بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
جامعة الملك عبدالعزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

بعض معالم المجتمع الإسلامي

من
سورة الأحزاب

رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص الأولى (الماجستير)
من فرع الكتاب والسنة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة



إعداد
عبدالوهاب لطف زيد الديلمي

بإشراف
فضيلة الدكتور محمد الصادق عرجون



١٣٩٧هـ - ١٣٩٨هـ
١٩٧٧م - ١٩٧٨م

شكر وتقدير

أشكر الله عز وجل على ما أولانى من عظيم نعمه ، وجليل آلائه ، وأحمده فى السراء والضراء ، حمدا وشكرا دائمين لا ينقطعان ، كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، فهو أهل الثناء والمجد ، لا نحصى ثناء عليه .

• • •

ثم — اعترافا بالجميل ، وانطلاقا من قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله "(1) —

أتقدم بالشكر والتقدير ، لفضيلة الشيخ الدكتور **محمد الصادق عرجون** ، المشرف على هذه الرسالة ، ولا يسعنى ازاء ما أسدى الىّ من النصح والتوجيه الا أن أتوجه الى الله ذى المن والفضل ، أن يتولى حسن مثوبته وأن يدخر له عنده جزاء ما قدم لى من حسن صنيعه .

• • •

كما أتقدم بالشكر لكل من أسهم فى توجيهى وافادتى وتعليمى من أساتذتى واخوانى ، جزاهم الله بما هو أهله انه حميد مجيد .

• • •

---

(١) رواه أبو داود : كتاب الأدب ٤/٢٥٥ . والترمذى ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، كتاب البر والصلة ٤/٣٣٩ . وأحمد ٢/٢٨٥ ، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢ . ٣/٣٢، ٧٤ . ٤/٢٧٨، ٣٧٥ . ٥/٢١١، ٢١٢ . مع اختلاف يسير فى ألفاظ الحديث .

ان الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بـه من شرور أنفسنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هـادى لـه .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبـده ورسوله ، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه .

* * *

المقدمة

كان سبب اختيارى للكتابة فى هذا الموضوع (بعض معالم المجتمع الاسلامى من سورة الأحزاب لنيل شهادة التخصص الأول " الماجستير " فى فرع الكتاب والسنة ، بقسم الدراسات العليا ، كلية الشريعة بجامعة الملك عبد العزيز : أن هذه السورة : أعنى " سورة الأحزاب " اهتمت اهتماما كبيرا ، ببناء المجتمع الاسلامى : اذ اشتملت على كثير من الأسس التى يقوم عليها بناء شامخ ، لا يتطرق اليه الوهن (١) ولا الخلل . كما اشتملت على أمور كانت من فضائل الانسانية ، وقد عرفت فى الجاهلية بين العرب بفضلها ، فأقر الاسلام منها ما يوائم طبيعته المنهجية فى الحياة ، وكل ذلك قد وضع فى اطار لوحظ فيه دائما اقامته على التوجيهات القيمة ، والآداب الكريمة ، التى وجهت اليها السورة ، وهذا شامل لأمور داخلية فى اصلاح المجتمع الاسلامى ، وأمور خارجية ، كانت ضرورية لتحقيق هذا الاصلاح .

ولما كانت المجتمعات الاسلامية اليوم فى أمس الحاجة إلى يقظة جديدة ، وإلى جهود يبذلها الدعاة والمصلحون ، لتطهيرها مما لصق بها من أمراض الجاهلية قديمها وحديثها ، وجدت الرغبة عندى ملحة للكتابة فى هذا الموضوع ، لملاءمته للمرحلة التى تعيشها المجتمعات الاسلامية لعلى بذلك أقدم خدمة لأمتى .

---

(١) الوهن : بسكون الهاء ، وكذا بفتحها لغة : أى الضعف .
لسان العرب ١٣/٤٥٣ .

واهتمام السورة بالشئون الداخلية للمجتمع الى حد كبير ، يأتى فى الوقت الذى وجهت فيه غزوة الأحزاب ضربة قاصمة لظهر الشرك والمشركين ومن ظاهرهم ، حتى قال بعدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " الآن نغزوهم ولا يغزوننا[1] " أى أن المشركين بعدها سيصبحون فى موقف الدفاع لا الهجوم ، مما يجعل المسلمين يلتفتون باهتمام بالغ ، الى الاصلاح الداخلى ، فى الشئون العامة والخاصة التى يحتاج اليها المجتمع الاسلامى . غير أن أعداء الاسلام فى هذه المرحلة ، لجأوا الى حرب من نوع آخر ، حينما رأوا الاسلام بدأ يثبت قواعده ، ويقيم صرح مجده ، وينشر فى الأرض رايته .

فمن طبيعة أعداء الحق ، أنهم اذا رأوا محاسن غيرهم ، ومساوىء أنفسهم واضحة ، وعلموا أن محاسنه هى السر فى تقدمه ورقيه ، وأن مساوئهم ومواضع ضعفهم والانحلال فيهم ، هى التى تضع من شأنهم ، وتخسرهم المعركة ، يأخذهم الهم بأن يخلقوا فيه — بأى حيلة من الحيل — ما فى أنفسهم من المساوىء ومواضع الضعف والفوضى ، أو يرموه بما ليس فيه ، ويدنسوا ذيله ، ويشوهوا سمعته ، حتى لا ترى الدنيا محاسنه بدون عيب على الأقل . فهذه العقلية الناقصة ، هى التى حولت مساعى أعداء الاسلام فى هذه المرحلة ، من الأعمال الحربية الظاهرة ، الى الحملات الرذيلة واحداث الفتن فى داخل نظام المسلمين ومجتمعهم خفية .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب المغازى ، باب غزوة الأحزاب ٥ / ١٤١ وأحمد ٤ / ٢٦٢ ، ٦ / ٣٩٤ .

(*) البخارى ١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ هو محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخارى ، أبو عبد الله ، صاحب " الجامع الصحيح " و " التاريخ " و " الضعفاء " . ولد فى بخارى ، ومات فى خرتنك من قرى سمرقند .

ولما كان القيام بهذا الأسلوب ، أسهل للمنافقين فى داخل المسلمين من الكفار الصرحاء فى الخارج ، قرروا لها الطريق ، ورسموا لها الخطة — قصدا أو بغير قصد — بأن يحدث المنافقون فى المدينة الفتن من الداخل ، ويحاول المشركون واليهود استغلالها وجنى ثمارها من الخارج ، وفى قصة الافك ، وقصة زينب ، والتخذيل والارجاف ، ونحو ذلك من أساليبهم الماكرة ما يدل على ذلك .

وقد اشتملت السورة على هدم بعض العادات الجاهلية التى كانت مستحكمة فى النفوس ، والتى يحتاج ازالتها الى شىء كبير من الجرأة والصبر ، وتحمل ما قد يحدث ذلك من ردود فعل من قبل الكافرين والمنافقين ، الذين يتحينون الفرص ، لزعزعة الكيان الاسلامى بالقاء الشبهات ، وبث سموم الريب (١) ، ومحاولة التنفير من الاسلام ، وحامل لوائه صلى الله عليه وآله وسلم .

لذلك تأتى السورة مفتتحة بنداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بلقب التشريف المحبب الى نفسه : لقب " النبوة " التى كرمه الله سبحانه بها . ولعل فى ذلك اشارة الى أن ما يقوم به من الاصلاح والتبليغ لم يكن من عند نفسه ابتداء وانتهاء ، حتى يكون له الخيار فى القيام به أو الترك ، أو أن يتردد بين الاقدام على التغيير ، وهدم العادات الجاهلية والاحجام ، وانما بوصفه نبيا ، فهو ينبأ ويوحى اليه ، لذلك فهو ملزم بالمسارعة الى تنفيذ ما أمر به وأوحى اليه .

---

(١) الريب : بكسر الراء وفتح الياء ، جمع ريبة : الشك ، والظنة ، والتهمة . هـ من اللسان ١/٤٤٢ .

ولعل هذا هو السر فى الأمر – بعد هذا النداء – بالتقوى ،والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين : ((يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين))(1) لأنه حال التبليغ فى حاجة الى عون الله سبحانه ، وعون الله تعالى انما يستمد عن طريق تقواه وحده ، وعدم طاعة أحد سواه .

وسيأتى مزيد بيان وايضاح للحكمة أيضا من هذا الأمر والنهى .

ثم يأتى الأمر باتباع الوحى ، والتوكل على الله تعالى .

وكل من تقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع وحى الله تعالى والتوكل عليه ، تتضافر على أداء المعنى الذى أشرت اليه .

وكما أوضحت السورة المنهج الاصلاحى فى شأن بعض الأمور الداخلية ، تعرضت أيضا لذكر غزوتى الأحزاب وقريظة ، وموقف المنافقين من الاسلام للاشارة الى أنه كما احتاج المسلمون – فى محاربة الأعداء – الى اعداد وجلد وصبر وثبات ، واستمداد النصر من الله سبحانه – الذى منحهم النصر وكتب الهزيمة على أعدائهم – فكذلك الحال بالنسبة للبناء الداخلى ، وتغيير الأوضاع والمفاهيم والعادات ، التى خلفتها الجاهلية ، وما تزال رواسبها قائمة فى المجتمع ، يحتاج الى الاعداد التام ، واستمداد النصر من الله سبحانه ، وعدم المبالاة بموقف الكافرين والمنافقين من ذلك ، فقد خيب الله آمال الفريقين وهم يكيدون للمسلمين فى غزوة الأحزاب ، فلم يفلحوا وسوف يحبط الله تعالى مكائدهم اذا ما وقفوا موقفا مماثلا ضد الاسلام ، وهو

---

(1) سورة الأحزاب / 1

يبنى المجتمع على الأسس السليمة ، فما على المؤمنين الا أن يمضوا فى اقامة ما أمرهم الله سبحانه به ، مع الاتجاه الصادق الى الله سبحانه والاعتماد عليه : (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور)[1] .

منهجى فى البحث :

ربما يتبادر الى ذهن الناظر فى عنوان الرسالة : " بعض معالم المجتمع الاسلامى من سورة الأحزاب " أن البحث سيكون قاصرا على آيات متفرقة من السورة ، تحمل معالم المجتمع الاسلامى ، وأنه لا يتعرض لجميع آيات السورة ، غير أن هذه النظرة بعيدة عن واقع الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم ، والترابط التام بين آيات السورة منه ، وعلاقة كل آية بسابقتها ولاحقتها ، مما حملنى على الكتابة عن كل آية : ألتمس منها معالم ، وأقتبس منها نورا يشع على المجتمع الاسلامى .

فما من آية فى السورة الا وهى تقدم لنا شيئا - قل أو كثر - من هذه المعالم .

فالآيات الأولى من السورة تمهد لارساء قواعد المجتمع ، ثم يتلوها اصلاح لبعض الأوضاع الداخلية ، ثم بيان مكانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومكانة ازواجه رضوان الله عليهن ، وما الواجب على المؤمنين نحو كل منهما ، يتلو ذلك بيان الواجب على الدعاة الذين حملوا أمانة

---

(١) سورة الحج / ٣٨ .

البيان والتبليغ عن الرسل عليهم الصلاة والسلام ، حين يذكر الله سبحانه الميثاق الذى أخذه على أنبيائه ، يتبع ذلك بيان الموقف الواجب على المؤمنين فى مواطن الجهاد ، والتحذير ، من صفات المنافقين ، وكشف مواقفهم وصفاتهم ، وما يجب على المؤمنين أيضا من التأسى بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولزوم الصدق فى مواقف الجهاد وغيرها ، كما تحمل الآيات بعد ذلك بشرى النصر والظفر التى تستوجب من المؤمنين الشكر الدائم لله ، وكمال الاتصال به ، واستمداد النصر منه وحده سبحانه ، ثم تأتى الآيات التى تحمل معالم التربية الالهية لأمهات المؤمنين وسائر المؤمنات ، يتلو ذلك الصفات التى ينبغى أن يكون عليها المسلمون والمسلمات ، وبيان الجزاء لمن اتصف بها .

وهذا الجزء من السورة هو الذى اقتصر البحث عليه فى هذه الرسالة .

وقد جاء المنهج الاصلاحى فى السورة مشتملا على بحوث فى موضوعات مختلفة يعانق بعضها بعضا :

البحث الأول :

التمهيد لارساء قواعد المجتمع الاسلامى .

البحث الثانى :

ارشاد المؤمنين فى الاتجاه الى الله عز وجل . واصلاح بعض رواسب الجاهلية .

البحث الثالث :

مكانة النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة للمؤمنين .

البحث الرابع :

التنويه بشأن أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

البحث الخامس:

الاشارة الى حقوق أولى الأرحام .

البحث السادس:

وحدة دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

البحث السابع :

تذكير المؤمنين بنعمة النصر فى الأحزاب .

البحث الثامن :

تصوير القرآن الكريم لموقف المنافقين فى الأحزاب .

البحث التاسع :

النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الأسوة العليا لأمته .

البحث العاشر :

موقف الصادقين من الأحزاب .

البحث الحادى عشر :

ثمرة موقف كل من الفريقين .

البحث الثاني عشر :

قصة بني قريظة وهزيمتهم .

البحث الثالث عشر :

دروس في التربية لأمهات المؤمنين ونساء المسلمين .

البحث الرابع عشر :

صفات الصفوة في المجتمع الاسلامي .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله وعلى آله وصحبه والحمد لله رب العالمين .

... ...

البحث الأول

التمهيد لارساء قواعد المجتمع الاسلامى

يقول الله تبارك وتعالى : ((يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليما حكيما ١/)) .

فى استفتاح هذه السورة بـ ((يا أيها النبى)) اظهار لمكانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وجلالة قدره عند الله سبحانه ، حيث يناديه بهذا الوصف الكريم ، دون اسمه العلم ، أو وصف آخر غير وصف النبوة ، وفيه الملاطفة والملاينة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لما يعقبه من الأمر والنهى ، كما أن فيه الاشارة الى الحمل العظيم ، والعبء الثقيل ، الذى تحمله بمقتضى النبوة .

فهو ينبأ ويتلقى الوحى من الله سبحانه ، وفى الوحى تكاليف جسيمة ، تتناسب مع مكانته وعلو شأنه ، واختيار الله له لتلقى الوحى والتبليغ عن الله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته[(١)]) .

وهكذا جاء كل نداء موجه اليه صلى الله عليه وآله وسلم فى القرآن الكريم ، انما كان بالوصف الذى يتناسب مع نبوته ورسالته ، دون اسمه العلم .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٤ .

ناداه الله سبحانه بوصف الرسالة فى موضعين ، كلاهما فى سورة المائدة[1] .

وناداه بوصف النبوة فى ثلاثة عشر موضعا : منها خمسة فى هذه السورة[2] ، وثمانية فى خمس سور أخر[3] .

وناداه بأوصاف أخرى فى مواضع أخر ، مثل : يا أيها المزمل[4] ، يا أيها المدثر[5] .

والسورة هذه ان تختص بكثرة مجيء النداء فيها للنبى صلى الله عليه وآله وسلم بوصف النبوة ، يأتى فيها أيضا ذكره بوصف النبوة فى غير النداء ، أكثر من أى سورة أخرى[6] .

كما يذكر فيها أيضا من الخصائص والفضائل له ولأهل بيته ، ما لم يذكر فى أى سورة من سور القرآن الكريم ، فهى السورة التى يبرز فيها الى حد كبير جانب الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فى مواقف عديدة من حياته : مثل الدفاع عنه فى قتال الأحزاب ، ومعاونة اليهود والمنافقين للمشركين عليه ، وطعن المنافقين فى زواجه من زينب ، والعتاب لأزواجه رضوان الله عليهن ، وهن يطالبنه بالنفقة ، وتأديبها لمسلمين الذين كانوا

---

(١) فى آيتى ٤١ ، ٤٧

(٢) فى آية ١ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٩

(٣) فى سورة الأنفال ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ وفى سورة التوبة ٧٣ وفى سورة الممتحنة ١٢ وفى سورة الطلاق ١ وفى سورة التحريم ١ ، ٩ .

(٤) سورة المزمل ١ .

(٥) سورة المدثر ١ .

(٦) ذكر النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى سورة الأحزاب بوصف النبوة فى غير النداء عشر مرات فى الآيات الآتية : ٦ ، ١٣ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٠ (مرتين) ، ٥٣ (مرتين) ، ٥٦ .

يطيلون الاشتغال بالحديث في بيته حتى يؤذيه ذلك ، والوعيد الشديد لكل من يؤذيه أو يؤذى المؤمنين ، والتهديد بالعقوبة العاجلة للمنافقين ومرضى القلوب والمرجفين ، وختم كل ذلك بقوله سبحانه : ((يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها))[1]

وهذا من ميزات هذه السورة وخصائصها .

أما سائر الأنبياء — على نبينا وعليهم الصلاة والسلام — الذين حكى الله نداءهم في القرآن ، فلم يرد نداء أحد منهم في القرآن الكريم بوصف الرسالة أو النبوة ، وانما نودوا بأسمائهم ، مثل : ياآدم ، يانوح ، ياعيسى ، ياموسى .....

وأما في الاخبار ، فجاء ذكر اسمه العلم صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : (محمد رسول الله ..[2]) لأن القصد منه تعليم الناس وتلقينهم أنه رسول الله .

وجاء ذكر الاسم (محمد) في ثلاثة مواضع أخرى ، وهي : قوله تعالى : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل[3]) ، (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم[4]) ، (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد[5]) لأن المقام مقام تعيين وتشخيص وازالة اشتباه ، مع قصد أن لا يكون

---

(١) سورة الأحزاب ٦٩ .
(٢) سورة الفتح ٢٩ .
(٣) سورة آل عمران ١٤٤ .
(٤) سورة الأحزاب ٤٠ .
(٥) سورة محمد ٢ .

القرآن خاليا عن بركة اسمه العلم .

وحيث لم يقصد ذلك ، ذكره بمثل ما ذكره فى النداء ، أعنى بالوصف ، وذلك فى سائر ما ورد فى القرآن الكريم ، سوى موضع واحد ، ذكر فيه باسمه (أحمد) وذلك فى قوله تعالى : (ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) لأن المقام مقام حكاية لما قاله عيسى عليه السلام لقومه ، ولأن عيسى أراد التعريف به صلى الله عليه وآله وسلم[1] .

والنداء فى هذه الآية تبعه خطاب موجه الى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : (يا أيها النبى اتق الله ...) ، وللعلماء فى الخطاب من حيث هو — أعنى سواء سبقه نداء أم لا — الموجه الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى القرآن الكريم ، كلام طويل : هل هو خاص به ؟ أو شامل لأمته ؟ أو أن الخطاب له والمقصود أمته ؟

والذى يعنينا من ذلك فى هذا المقام ، هو الخطاب الموجه اليه صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد ندائه بـ (يا أيها النبى) أو (يا أيها الرسول) لارتباط هذا النداء ، بوصف الرسالة والنبوة الخاصين به وذلك لا يؤديه الا ذكر اسمه العلم مرتبطا بهذين الوصفين .

فأقول : علم — باستقراء المواضع التى نودى فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — أن الخطاب الموجه اليه بعدها ، اما خاص به ، مثل قوله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك)[2] .

---

(١) أنظر : تفسير " غرائب القرآن ورغائب الفرقان " ، للنيسابورى جـ ٢١/ ٨١ بهامش تفسير الطبرى .
(٢) سورة المائدة ٦٧ .

واما أن يكون مقصودا بالأولية والأولوية ، مثل قوله تعالى :(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)[١] .

واما أن يراد بما يأتي بعد النداء التسلية ، مثل قوله سبحانه : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ...)[٢] أو التثبيت ، مثل قوله عز وجل : (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)[٣] أو اظهار شرفه ، وعلو منزلته عند الله تعالى ، مثل قوله سبحانه : ((يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا))[٤] .

فهذه جملة ما اتضح لي من مدلول الخطاب الموجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الوارد بعد النداء بـ (يا أيها النبي) و (يا أيها الرسول) والله أعلم .

---

(١) سورة التحريم ١ .
(٢) سورة المائدة ٤١ .
(٣) سورة الأنفال ٦٤ .
(٤) سورة الأحزاب ٤٥ ، ٤٦

وبعد أن ذكرت المقصود بالنداء بـ((يأيها النبى)) وتعرضت للمقصود بالخطاب الوارد غب النداء[1]، فانى الآن أريد بيان الخطاب الوارد فى هذه الآية والتى تليها، من أى أنواع الخطاب هو ؟ وذلك فى قوله سبحانه :

((اتق الله . ولا تطع الكافرين والمنافقين ... واتبع ما يوحى اليك ... وتوكل على الله ..))

أما الأمر بالتقوى، فيذكر المفسرون[2] فى المراد به احتمالات منها :

الأول : للطبرى[3] يقول — عند قوله تعالى : ((يا أيها النبى اتق الله)) — بطاعته، وأداء فرائضه، وواجب حقوقه عليك، والانتهاء عن محارمه، وانتهاك حدوده .

---

(١) فى اللسان : وجئته غب الأمر : أى بعده ١/٦٣٥ .

(٢) راجع تفسير الآية فى : الكشاف، للزمخشرى ٣/٢٤٨، وزاد المسير، لابن الجوزى ٦/٣٤٩، والبيضاوى ٥٥٣، وأبى السعود ٤/٣٩٨ وفتح القدير، للشوكانى ٤/٢٦٠ وتفسير القاسمى ١٣/٤٨٢٢ .

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن، لابن جرير ٢١/١١٧ .

(*) البيضاوى ... — ٦٨٥ هـ هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على الشيرازى، ناصر الدين البيضاوى، قاض مفسر، علامة . ولد فى المدينة البيضاء بفارس قرب شيراز، وتوفى فى تبريز .
من مصنفاته : " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " المعروف بتفسير البيضاوى و " طوالع الأنوار " فى التوحيد .

(*) ابن الجوزى ٥٠٨ — ٥٩٧ هـ هو عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرشى، البغدادى، أبو الفرج، علامة عصره فى التفسير والحديث، مولده ووفاته ببغداد، ونسبته الى مشرعة الجوز، من محالها .
من مصنفاته : " مناقب عمر بن عبد العزيز " و " تلبيس ابليس " و " صيد الخاطر " و " زاد المسير فى علم التفسير " .

(*) القاسمى ١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط، امام الشام فى عصره، علما بالدين، وتضلعا فى فنون الأدب، مولده ووفاته فى دمشق . كان سلفى العقيدة لا يقول بالتقليد .
من مصنفاته : " دلائل التوحيد " و " موعظة المؤمنين " و " اصلاح المساجد من البدع والعوائد " و " محاسن التأويل " فى تفسير القرآن الكريم .

الثانى : أن المراد : استدامة ما هو عليه .

الثالث : الاكثار مما هو فيه ، لأن التقوى باب لا يبلغ آخره .

الرابع : أنه خطاب موجه الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد أمته .

وقد أبدع الامام الرازى حيث قال ما حاصله :-

أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يزداد كل لحظة علمه ومرتبته ، حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة الى ما هو فيه تركا للأفضل[1] ، فكان له فى كل ساعة تقوى متجددة ، فقوله : ((اتق الله)) — على هذا — أمر بتجديد تقوى فوق ما هو عليها ، ولأنه طلب من ربه — بأمر الله اياه — زيادة العلم ، حيث قال : (وقل رب زدنى علما)[2،3] .....

اذا علم هذا ، فالنبى صلى الله عليه وآله وسلم بحكم ((انما أنا بشر مثلكم))[4] كان قد وقع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم ، بدليل قوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)[5] فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه ، بحيث تنسيه الخلق ، ولا يريد الا الحق[6] ...

---

(١) وهذا يشبه قول ابن القيم فى كتابه : " التبيان فى أقسام القرآن " : ٥٣ — فى الكلام على سورة الضحى حيث يقول — ما لفظه : " وأطلق سبحانه أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعم كل حالة يرقيه اليها هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها " انتهى محل الغرض منه .

(٢) سورة طه ١١٤

(٣) تفسير مفاتيح الغيب ٢٥/١٨٩ وما بعدها بتصرف .

(٤) سورة الكهف ١١٠ .

(٥) سورة الأحزاب ٣٧ .

(٦) المرجع السابق بتصرف .

أما المعنى الذى فسر به الامام الطبرى التقوى فى هذه الآية ، والذى ذكرناه آنفا ، فهو يتضمن — كما ترى — الأمر بتحصيل التقوى من حيث هى من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فى طاعة الله سبحانه ، وأداء فرائضه ، وواجب حقوقه ، والانتهاء عن محارمه ، وانتهاك حدوده .

وهذا واضح غاية الوضوح فى مجانفته للصواب ، فانه ان أراد تحصيل ما كان حاصلا ، فالحاصل لا يطلب تحصيله ، وان أراد الزيادة فى جنس التقوى التى يشاركه فيها غيره ، فهو أمر مطلوب من كل مؤمن فلا يظهر وجه لتخصيص النبى صلى الله عليه وآله وسلم به ، ولأن الكمال الانسانى قد انتهى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى كل خصله حميدة وخلق نبيل ، وكان يقول : " أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له[1] " .

وأقرب المعانى الذى تحمل عليه الآية وأمثالها ، هو هذا الذى نقلته عن الامام الرازى ، والذى يدل على أن التقوى المطلوبة منه صلى الله عليه وآله وسلم ، ليست كتقوى سائر المؤمنين بل هى المنزلة التى لا يدانيه فيها غيره ، ويشهد لهذا المعنى السياق أيضا ، ومقاصد السورة الكريمة ، التى جاءت لتهدم عادات جاهلية مستحكمة ، والموقف يحتاج الى شجاعة نفسية وقوة فى صدق التوكل على الله سبحانه فى الامتثال لتنفيذ ما يوحى ، وعدم المبالاة بكيد الكافرين والمنافقين ، لتتم بذلك الارادة الالهية فى استبدال التشريع الالهى ، بالعادات والتقاليد الجاهلية .

---

(١) رواه البخارى : كتاب النكاح ٢/٧ ومسلم : كتاب الصيام ٢/٧٧٦ .

(*) الامام مسلم ٢٠٤ — ٢٦١ هـ هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى ، أبو الحسين : حافظ ، من أئمة المحدثين . ولد بنيسابور وتوفى بظاهر نيسابور . أشهر كتبه "صحيح مسلم" ومن كتبه "المسند الكبير" و "الجامع" و "والأسماء والكنى" .

وانما خص الكافرين والمنافقين بالذكر — مع كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ينبغي له أن لا يطيع أحدا سوى الله سبحانه — لأن الذين يقفون موقف المعارض للتشريع الاسلامي ، ويطعنون فيه ، ولا يريدون أن يحل بديل مهما كان طيبا وكريما ، مكان ما ألفته نفوسهم القذرة ، من العادات المستقذرة — هم الكفار والمنافقون ، ولذلك نرى القرآن الكريم يصف حالهم عند سماعهم شيئا من القرآن بالنفور ، والاشمئزاز ، والغيظ ممن يدعوهم الى الحق ، حتى ليكادوا يفتكون به ، وادعاء أن ما هم عليه من الباطل خير من حال المؤمنين ، ومحاولة اضلال المؤمنين ، والصد عن سبيل الله سبحانه وغير ذلك من الأوصاف والأحوال المستنكرة ، وها أنا أذكر بعض الآيات الكريمة التي تشير الى ذلك فتأملها : يقول الله تبارك وتعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)[1] ، (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ...)[2] ، (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أيّ الفريقين خير مقاما وأحسن نديا)[3] ، (ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ...)[4] ، (وودوا لو تكفرون)[5] ، (الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا)[6] ، (وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون)[7] ، هذا

---

(١) سورة فصلت ٢٦
(٢) سورة الحج ٧٢
(٣) سورة مريم ٧٣
(٤) سورة النساء ٨٩
(٥) سورة الممتحنة ٢
(٦) سورة الأعراف ٤٥
(٧) سورة القلم ٥١

شأن الكافرين والمنافقين . وفى ذكر الكافرين والمنافقين أيضا ، بيان أنه ليس هناك فى ذلك المجتمع مفسدة تحتاج الى مزيد الاهتمام والعناية لازالتهـــا كعداوة الكافرين والمنافقين ، فكأنه قيل لا تشغل نفسك بغير تبليغ الوحـى ومحاربة الكافرين والمنافقين ، مع الاعتصام بالله سبحانه . أما المؤمنون فشأنهم الاستسلام الكامل لأمر الله سبحانه وتعالى ، والانقياد والطاعة لكل ما يأتـى على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، والرضا التام بحكم الله سبحانه :

يقول الله عز وجل : (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع اللـــه ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون[1]) . (وما كان لمؤمن ولا مؤمنـــة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللـــه ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا[2]) .

فالمؤمن لا يتردد ولا ينكأ فى امتثال أمر الله عز وجل وأمر رسوله صـــلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، لا يجد فى نفسه حرجا ولا ضيقا من ذلــك ، (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما[3]) .

ولما كان ذلك هو شأن المؤمن لم يكن هناك حاجة لذكره ، بل اكتفـــى بذكر الكافرين والمنافقين فقال : ((ولا تطع الكافرين والمنافقين)) .

---

(١) سورة النور ٥١ ، ٥٢
(٢) سورة الأحزاب ٣٦
(٣) سورة النساء ٦٥

وقوله سبحانه : ((ان الله كان عليما حكيما)) اقترنت صفة "عليم" بصفة "حكيم" فى أكثر من ثلاثين موضعا من القرآن الكريم . وسنبين معنى كل من هاتين الصفتين ، مع بيان سر هذا الاقتران ان شاء الله تعالى :

أما العليم : فالمراد به الذى أحاط علمه بكل شئ ، فلا تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عن علمه قاصية ولا دانية ، فهو الذى يعلم ما كان وما يكون الى قيام الساعة ، ويعلم ما لم يكن كيف يكون لو كان ، قال تعالى : (ولو رد والعادوا والما نهوا عنه ...)[1] . (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون)[2] وأمثال هذا فى القرآن كثير .

وأما الحكيم : فمن معانيه[3] ، ذو الحكمة ، الذى وضع بعلمه وحكمته كل شئ فى موضعه ، ولحكمة ومصلحة يعلمها سبحانه ، ولو اجتمع حذاق الدنيا ومهرة أربا بالفنون على أن يغيروا من وضع شئ لكي يؤدى الى مصلحة

---

(١) سورة الأنعام ٢٨ .
(٢) سورة الحجر ١٤ ، ١٥
(٣) والحكيم يدل على معان ، يمكن حمل ما ورد فى القرآن الكريم من هذه الصفة عليها ، من هذه المعانى ، أن يكون فعيلا بمعنى فاعل ، ويحتمل معنيين :
الأول : أن يكون بمعنى الحاكم الذى يحكم الناس ويمنعهم من الفساد ، لانه تعالى أنزل الشريعة التى بها يحكم الناس .
الثانى : أن يكون بمعنى الحاكم الذى يقضى بين الناس ، ويعطى كل ذى حق حقه ، أما في الدنيا فقد قضى سبحانه . وأوضح الحقوق المتعلقة بالأفراد والمجتمع والدولة ونحو ذلك . وأما في الآخرة فيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون
ومن معانيه : المحكم : وهو الذى أحكم صنع كل شئ وأتقنه .
ومعنى رابع : وهو أن يكون بمعنى حاكم : أى الذى حكم على الأشياء بأنها كذا أو ليست كذا ، ولن يستطيع أحد سوى الله تعالى أن يحكم على الأشياء حقائقها وخواصها ومميزاتها (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) سورة تبارك / ١٤ .

أعظم أو حكمة أدق لباءوا بالفشل والخسران ، ولن يؤدى ذلك الا الـــى الفســاد .

وأما اقتران صفة "عليم" بصفة "حكيم" ففيه الاشارة الى أن الحكمـــة لازمة لكل ما يصدر عن الله سبحانه ، ذلك أن كل شيء يصدر عن الله عز وجـل انما يصدر عن علم وحكمة ، فهو المحيط بكل شيء علما ، والحكمة : ايجـــاد الأشياء على غاية من الاحكام والاتقان والكمال ، مع كمال الاحاطة بها قبـــل وجودها .

قال أبو السعود (*) — فى قوله سبحانه : ((ان الله كان عليما حكيما)) : "مبالغا فى العلم والحكمة ، فيعلم جميع الأشياء من المصالح والمفاســـد ، فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ، ولا ينهاك الا عما فيه مفسدة ، ولا يحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة . فالجملة تعليل للأمر والنهى ، مؤكدة لوجـــوب الامتثال بهما ." (1)

كما تتضمن الجملة أيضا الاشارة الى أن الفساد كل الفساد فى طاعـــة الكافرين والمنافقين الذين لا يصدرون فى أحكامهم عن علم ولا حكمة ، وانمـــا عن الهوى واللهو واللعب والعبث ، وفى ذلك افساد للمجتمع ، وضياع للقيم والموازين .

وقوله سبحانه : ((واتبع ما يوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون

---

(١) تفسير أبى السعود ٢٩٨/٤

(*) أبو السعود ٨٩٨ — ٩٨٢ هـ محمد بن محمد بن مصطفى العمـــادى أبو السعود : مفسر شاعر ، من علماء الترك المستعربين . ولد بقرب القسطنطينية ، وهو صاحب التفسير المعروف باسمه ، وقد سمـــاه "ارشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم .

خبيرا ٢/)) ، من المعلوم أن الأمر بالتقوى فى الآية الأولى ، شامل لما ذكر بعدها من الأمر والنهى • وانما خص الله سبحانه بالذكر النهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، والأمر باتباع الوحى ، والأمر بالتوكل عليه سبحانه، لاقتضاء المقام ذلك •

فالكافرون والمنافقون ، يريدون من الحق أن يتبع أهواءهم • والاسلام كلما حقق نصرا فى صد عدوان خارجى ، أو فى اصلاح داخلى ، لتثبيت قواعده وأسسه ، ساء ذلك أعداء الاسلام ، وتمزقت أحشاؤهم ، وعملوا على الكيد له بكل صنوفه ، لاحباط ما يحرزه الاسلام من نصر ، فلذلك يحتاج من يحمل لواء الاسلام ، ويعمل على نشره ، أن لا يكترث لما يصنع هؤلاء ، وأن لا يميل اليهم ، أو يطيعهم فى شىء ، لأنهم لا يريدون الا الاضرار والفساد، وذلك انما يتم بتنفيذ كل ما يأتى من عند الله سبحانه ، الذى لا يأمر الا بالخير والمصلحة ، فالوحى من الله سبحانه هو الحقيق بالاتباع ، لأن فيه غناء عن كل ما سواه • وتأتى هذه الجملة بعد قوله تعالى : ((ان الله كان عليما حكيما)) للاشارة الى أن ما يوحى اليك يامحمد ، صادر عن علم وحكمة •

والتعرض لصفة الربوبية ((ما يوحى اليك من ربك)) فيه تأكيد وجوب الامتثال ، لأن المربى والمنعم بجميع النعم دقيقها وجليلها ، هو الحرى بالخضوع والامتثال الكامل له دون غيره • وفيه ترغيب فى القيام بحق المربى • وفى الانتقال من ضمير الافراد ((اتق الله ••• اتبع ما يوحى اليك)) الى ضمير الجماعة ((بما تعملون)) الدلالة على أن ما يؤمر به النبى صلى الله عليه وآله وسلم يشمل المؤمنين أيضا ، فهم مكلفون بما كلف به ، مالم يدل دليل على اختصاصه به •

وجاء بالصفة ((خبيراً))[1] للدلالة على احاطة علمه سبحانه ببواطن الأمور ، وفيه الاشارة الى أنه سبحانه محاسبهم على أعمالهم فمجازيهم عليها . ففى هذا التذييل انذار ضمنى لما قد يحدث منهم من المخالفة أو التقصير فيما أمروا به ونهوا عنه .

وقوله سبحانه : ((وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ٣/)) .

يأمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، بالاعتماد عليه وحده ، وتفويض جميع أموره اليه .

وهذه الأمور التى ذكرت فى مطلع هذه السورة : من تقوى الله سبحانه واتباع وحيه ، والتوكل عليه ، مع مخالفة الكافرين والمنافقين : هى الزاد الكامل الذى لا غناء عنه للداعية ، ولذا يأتى أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالتزامها ، تمهيدا لما يكلفه به من القيام بتغيير بعض المفاسد الجاهلية .. ، الذى سيثير عليه حنق أعدائه من الكافرين والمنافقين ، فهو فى حاجة الى التحصن بما وجهه اليه ربه عز وجل .

---

(١) يقول الامام الغزالى فى " المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى " : ص ٦٤ ، ٦٥

الخبير : هو الذى لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجرى فى الملك والملكوت شئ ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن ، الا ويكون عنده خبرة .

(*) الغزالى ٤٥٠ — ٥٠٥ هـ هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى ، أبو حامد ، حجة الاسلام ، فيلسوف ، متصوف . له نحو مائتى مصنف مولده ووفاته فى الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) من كتبه : " احياء علوم الدين " و " تهافت الفلاسفة " و " الاقتصاد فى الاعتقاد " و " المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى " .

وجعل الله تعالى التوكل خاتمة هذه الأمور ، لأن الله سبحانه بعد أن أمره بالتقوى واتباع الوحى ، يقول له : ((وتوكل على الله)) أى لايهمك بعد ذلك شأن أعدائك ، ولا تهتم بكيدهم ومكرهم ، وألق أمرك اليه وحده ، ليصرفه بعلمه وحكمته وخبرته .

والانسان اذا ما قويت ثقته بالله ، ورد أمره اليه ، وقف عند مهمته المناطة به ، ثم يدع ما وراء ذلك لصاحب الأمر والتدبير سبحانه وتعالى ، وهو فى غاية الثقة والطمأنينة ، ((وكفى بالله وكيلا)) حافظا موكولا اليه كل الأمور .

فالله عز وجل ، هو الذى توكل الى علمه وقدرته وحكمته أمور الخلق ، وشئون العباد ، التى يعجزون عن القيام بها بأنفسهم ، والنهوض بهما ، بما منحوا من قوى محدودة الأثر ، فيتوكل لهم بها ويتولاها .

والمتأمل يرى أن هذه الصفة ، ترد فى القرآن الكريم ، فى المواطن التى يظهر فيها عجز الانسان ، وشدة حاجته الى عون الله سبحانه أو يخاف من دعوى الغرور ، فيقف العبد مستسلما بين يدى الله سبحانه :

من ذلك الآيات(١) التى تأمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالتوكل على الله سبحانه ، اثر بيان حال الكافرين والمنافقين ، من الاعراض والصد

---

(١) كقوله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم — وهو متجه الى أحد لمقاتلة أعدائه — : ((فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين)) ١٥٩ سورة آل عمران .

وحين أمره سبحانه أن ينذر عشيرته الأقربين ، وهو العليم سبحانه بما سيواجه من الاعراض والايذاء ، قال له : ((فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم)) ٢١٦ ، ٢١٧ سورة الشعراء ... الى غير ذلك من الآيات .

وقوله تعالى — حكاية عن نوح عليه السلام — : ((وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا)) سورة الأعراف ٨٩ .

والايذاء . فالله سبحانه يثبت نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، حين يأمره بالتوكل عليه ، ليسير في طريقه مبلغا عن الله ، متوكلا عليه ، لا يثنيه شيء مما يواجه من أعدائه .

المناسبة :

والمناسبة التي تربط بين هذه الآيات الثلاث ، وبين مقاصد السورة ، هي أن السورة اشتملت على أحكام وآداب وتوجيهات ، وهدم لبعض ما كان مألوفا في الجاهلية. ولما كان قيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة الى هذه التشريعات سيكلفه عناء ومشقة ، ومواجهة من أعدائه بالصد والايذاء وكان هو المكلف بالتبليغ عن الله سبحانه ، اقتضى كل ذلك ، توجيهه الى مواطن التثبيت ، والارتقاء الى درجة تحمله على الاقدام في تبليغ وحي الله سبحانه كامل الثقة والطمأنينة واليقين :

١ — فقد وجه النداء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، في مطلع السورة بوصف النبوة : ((يا أيها النبي)) للاشارة الى أنه مكلف بأعباء النبوة المقتضية للتبليغ الذي يستدعي منه صبرا وجلدا ، وتحملا لما يلقاه من الخصوم ، المتربصين به وبدعوته وأتباعه .

٢ — وأمر بتقوى الله سبحانه ، فالله تعالى هو وحده مصدر الخير كله ، فهو الذي يستمد منه عونه وتوفيقه وثباته وهدايته ، ولا يمنح الله سبحانه ذلك الا لمن اتقاه ، وليست التقوى المطلوبة منه صلى الله عليه وآله وسلم كالتي تطلب من سائر الناس .

٣ — ثم نهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ، للاشارة الى مصدر الشر ، بعد الاشارة الى مصدر الخير. فالكافرون والمنافقون مصدر شر للاسلام وأهله ، لذلك يجب أن يحذروا كل الحذر ، ولا يطاعوا فى شئ ، فانهم لا يألون جهدا فى محاربة الحق والخير.(١)

ولم يكتف سبحانه بالأمر بالتقوى ، الشاملة لكل ما يحبه الله سبحانه ويرضاه ، بل خص أمرين بالذكر ، لأهميتهما البالغة فى هذا المقام ، وهما :

٤ — الأمر باتباع وحيه سبحانه .

٥ — والتوكل عليه وحده .

أما الوحى فلأن اتباعه يضمن للانسان كل مصلحة وسعادة عاجلة وآجلة، ويغنى عن اتباع — بل مجرد الميل — الكافرين والمنافقين .

وأما التوكل ، فلأنه حين يقوم بوسائل الدعوة والاصلاح والتبليغ ، التى أمر بها ، لا ينتظر من هذه الوسائل أن تحقق له مقاصده ، وانما يجعل مرد الأمر الى الله سبحانه ، فهو المتصرف فى الكون ، وهنا تقوى ثقته وطمأنينته ، ويكل أمر النتائج الى الله سبحانه . وفى هذا بيان لعدم تأثير الأسباب فى الايجاد والاعدام وانما هى وسائل لشغل الانسان بها فى تحصيل مطالبه والفاعل الحقيقى هو الله المقتدر المختار .

---

(١) ألا يألو ألوا وألوا ... قصر وأبطأ . اللسان ١٤/ ٣٩ .

استخلاص النتائج مما تقدم :

ونستخلص من هذه الآيات التوجيهات الآتية :

أولا : تعليم الأمة الأدب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، تأسيا بمخاطبة الله سبحانه له .

ثانيا : التوجيه الى التقوى مع كون الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، القائم على التشريعات التي تضمنتها السورة ، لأن تقوى الله سبحانه ، والشعور برقابته الدائمة ، واستشعار جلاله وعظمته ، هي القاعدة التي يناط بها القيام بالتكليف .

ثالثا : التوجيه الى عدم طاعة المخالفين لأوامر الله سبحانه ، وخاصة الكافرين والمنافقين ، وعدم اتباع توجيههم واقتراحهم أو الاستماع الى رأيهم . وهذا النهي فيه توجيه للمؤمنين في كل مكان وزمان ، ففيه تحذير للمؤمنين أن يتبعوا آراء الكافرين والمنافقين مطلقا ، وخاصة الدعاة الى الله سبحانه ، وهم ورثة الانبياء وحملة العلم ، وبالأخص في أمر العقيدة ، والتشريع ، والتنظيم الاجتماعي ، ليبقى منهجهم الالهي خالصا غير مشوب بتوجيه من سواه . ولا يعني ذلك أن يهملوا أخذ ما عند غيرهم من العلم والتجربة والخبرة ، فتلك علوم انسانية يستوي في الانتفاع بها كل البشرية ، مع عدم الانخداع بها ، ومع الاستقامة على منهج الله سبحانه ، وأن يكون الأخذ والانتفاع قائمين على أساس العقيدة الصحيحة .

رابعا : التوجيه الى الاستمساك بوحي الله تعالى ، واتباعه والاكتفاء به ، فالله سبحانه هو وحده مصدر التوجيه ، وهو الحقيق بالاتباع دون

سواه ، فالآمر بالاتباع هو صاحب الأمر المطاع ، وهو المربى بجميع النعم ، وهو المتفضل بالوحى ، فما بقى الا الاستسلام وكمال الرضا والاستغناء بما يوحيه الله سبحانه الخبير بأعمالكم ، وبما يصلح شئونكم فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا تأكيد للأمر بالتقوى ، والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين ٠

خامسا : التوجيه الى تفويض الأمور كلها الى الله سبحانه ، وعدم الاهتمام بشأن الكافرين والمنافقين ، وتسليم الأمر له تعالى ، ليتصرف به كيف يشاء بمقتضى علمه وحكمته وخبرته ، مع اقامة ما أمر الله تعالى به من الأسباب ٠

وهكذا تأتى السورة فى مطلعها بالدعوة الى قواعد أساسية ، يسهل معها القيام بما سواها ، اذا ما رسخت هذه القواعد فى النفوس ، اذ يسهل عليها بعد ذلك القيام بسائر التشريعات ، تطبيقا وتبليغا ، ومن هذه التشريعات ، ما تضمنته هذه السورة مثل :

١ — ابطال صورة الظهار ، التى كانت سائدة فى الجاهلية ، من جعل الزوجة محرمة كالأم ٠

٢ — ابطال التبنى ، فلا يعترف الاسلام الا بالولد الشرعى دون الدعىّ ٠

٣ — كون أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، أمهات المؤمنين ٠

٤ — تربية أمهات المؤمنين على النهج النبوى فى العشرة ووسائل العيش فى الحياة ٠

٥ — آداب الحجاب وأحكامه ٠

الى غير ذلك من الآداب والأحكام التى رفعت من شأن المؤمنين وبنت

مجتمعهم على النزاهة ، والطهر والعفة ، وميزتهم عن خصومهم من المنافقين واليهود وسائر الكفرة .

... ...

البحث الثاني

ارشاد المؤمنين في الاتجاه الى الله عزوجل، واصلاح بعض رواسب الجاهلية

المناسبة :

وبعد ما تقدم من الآيات ، التى مهدت لارساء قواعد المجتمع وأوضحت الطريق الى اقامتها ، تأتى الآية التالية ، لتؤكد الاتجاه الى الله عز وجل وحده ، ثم تشير الى بعض رواسب الجاهلية ، للبدء فى اصلاح المجتمع ، وتطهيره منها :

يقول الله عز وجل : ((ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل ادعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل /٤)) .

فى ختام التوجيهات الربانية السابقة ، يأتى قوله عز وجل : ((ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)) .

والظاهر أن القرآن الكريم يقصد الى استئصال بعض العادات المستحكمة ، وهذا من قبيل ضرب المثل ، وضرب الأمثال فى القرآن الكريم كثير ، ولاشك أن المثل له تأثير كبير فى التقريب والايضاح .

فقوله تعالى : ((ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)) مثل ضربه الله سبحانه للمستحيل من الأمور ، كاجتماع النقيضين ، فاذا كان هناك عادات سادت فى المجتمع ، وهى فى حقيقتها باطلة ، لأنها تؤدى الى دعوى اجتماع النقيضين ، مما هو باطل بالعقل والشرع ، فان مثل هذه الأمور ،

لا يقرها الشرع ، ولا يجوز الصاقها بالدين ، فالدين لا مجال فيه للمتناقضات ، فمن اعتقد شيئا ، أو مارس شيئا من هذا الباطل ، فان دين الله الحق برئ من هذا الباطل ((والله يقول الحق وهو يهدى السبيل)) .

فالآية ((ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه)) جاءت بعد الأمر بالتقوى ، للاشارة الى أن القلب مع التقوى لا يبقى فيه محل للخوف أو الرجاء من غير الله سبحانه ، فالقلب الذى يتجه الى الله سبحانه ، يستحيل مع هذا الاتجاه أن يتجه فى نفس الوقت الى غيره سبحانه . فمادام الانسان ليس له الا قلب واحد ، فهو حينما يتجه الى غير الله ينصرف عن الله ، وكما يستحيل فى القلب الواحد أن يتجه اتجاهين ، يستحيل كذلك فى حق الزوجة أن تصير أما ، وفى حق الدعى أن يصير ولدا حقيقيا .

وهذا المعنى ألصق المعانى بهذه الآية . وقد اتفقت عليه — فى الجملة — أقوال عدد من المفسرين . يقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

" ما جمع الله قلبين فى جوف ، ولا زوجية وأمومة فى امرأة ، ولا بنوة ودعوة فى رجل . والمعنى : ان الله سبحانه ، كما لم ير — فى حكمته — أن يجعل للانسان قلبين — لأنه لا يخلو* اما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك ، فذلك يؤدى الى اتصاف الجملة ، بكونه مريدا كارها ، عالما ظانا ، مؤمنا (1)

---

(1) الكشاف ٢٤٨/٣ — ٢٤٩ .

(*) الزمخشرى ٤٦٧ — ٥٣٨ هـ هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى الزمخشرى ، جار الله ، أبو القاسم ، من أئمة العلم بالتفسير واللغة والآداب . ولد فى زمخشر من قرى خوارزم ، وسافر الى مكة فجاور بها زمنا ، فلقب بجار الله ، وتوفى فى الجرجانية من قرى خوارزم ، وكان معتزلى المذهب .
من مصنفاته : " الكشاف " و " أساس البلاغة " و " المفصل " و " الفائق " فى غريب الحديث " .

شاكا ، فى حالة واحدة — لم ير أيضا أن تكون المرأة الواحدة ، أما لرجل زوجا له ، لأن الأم مخدومة ، مخفوض لها جناح الذل ، والزوجة مستخدمة متصرف فيها بالاستفراش وغيره ، وهما حالتان متنافيتان ، وأن يكون الرجل الواحد دعيا لرجل وابنا له ، لأن البنوة أصالة فى النسب ، وعراقة فيه ، والدعوة الصاق عارض بالتسمية لاغير ، ولا يجتمع فى الشئ الواحد أن يكون أصيلا وغير أصيل "(1) .

وكلام الزمخشرى هذا جيد ، لولا أنه عدل فى مستهله عن القاعدة العامة ، التى يدخل تحت اطارها كل هذه الجزئيات التى أشار اليها ، والقاعدة هى : أن كل ما يؤدى الى التنافى والتناقض فهو مرفوض عقلا وشرعا .

ولما كان القلب فى الانسان مهبط المعارف الالهية ومنزل الوساوس الشيطانية ، وهما أمران متناقضان لا يجتمعان فى مكان واحد فى زمان واحد ، كان مضرب المثل فى أن الانسان لا يمكن أن يكون على عقيدتين متناقضتين أو مؤمنا بمعلمين متضادين .

وقد أجاد العلامة أبو بكر ابن العربى(2) — فى تفسيره لهذه الجملة — حيث قال : وهو (أى القلب) محل الخطرات والوسواس ، ومكان الكفر والايمان ، وموضع الاصرار والانابة ، ومجرى الانزعاج والطمأنينة ، والمعنى فى الآية : أنه لا يجتمع فى القلب الكفر والايمان ، والهدى والضلال ، والانابة

---

(1) الكشاف ٣/ ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(2) أحكام القرآن ٣/ ١٤٩٢ .
(*) أبو بكر ابن العربى ٤٦٨ — ٥٤٣ هـ هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى الاشبيلى المالكى ، أبو بكر ابن العربى : قاض من حفاظ الحديث ، ولد فى اشبيلية ، ومات بقرب فاس ، بلغ رتبة الاجتهاد فى علوم الدين ، صنف كتبا فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ .

والاصـرار.[1]

ومن خلال هذه الأقوال التي قدمتها لبعض أئمة التفسير ، نـرى أن الجملة ذات صلة متينة بما قبلها ، بل هي ألصق ما يكون بالأمر بالتقوى ، ذلك أن تقوى الله سبحانه ، تستوجب صرف القلب اليه وحده ، فان القلب لايمكن أن يكون محلا للأمور المتنافية والمتناقضة ، واتجاه القلب الى غير الله سبحانه وتعالى ، يتنافى مع كمال التقوى والمحبة والخوف والرجاء والتوكل .

وقد أوضح الامام الرازي هذه الصلة في تفسيره لهذه الجملة حيث قال : " ان الله تعالى لما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالاتقاء بقولـــه : ((يا أيها النبي اتق الله)) فكان ذلك أمرا له بتقوى لا يكون فوقها تقـوى ، لمجيء الأمر بالتقوى بعد ندائه بوصف النبوة ، وهي أرفع المقامات . ومـــن يتقي ويخاف شيئا خوفا شديدا ، لا يدخل في قلبه شيء آخر ، ألا تـرى أن الخائف الشديد الخوف ، ينسى مهماته حالة الخوف فكأن الله تعالى قـال : يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ، ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غـير الله ، فان المرء ليس له قلبان حتى يتقي بأحدهما الله وبالآخر غيره . فـان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره ، وذلـــك لا يليق بالمتقي الذي يدعي أنه يتقي الله حق تقاته"[2] ....

---

(١) أحكام القرآن ٣/١٤٩٢.

(٢) مفاتيح الغيب للامام الرازي : ٢٥/١٩١.

(*) الفخر الرازي ٥٤٤ — ٦٠٦ هـ هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي ، الامام ، المفسر ، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشي النسـب . أصله من طبرستان ، ومولده في الري واليها نسبته ، ويقال لــه : " ابن خطيب الري " . توفي في هراة . من مصنفاته : " مفاتيح الغيب" في التفسير و " معالم أصول الدين " و " شرح أسماء الله الحسنى " .

ومما ذكرنا فى تفسير قوله تعالى : ((وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم)) نكتفى فى ايضاح هذه الجملة من الآية الكريمة ، اذ أن حملها على ارادة ضرب المثل ، أنسب بالمقام من حملها على ارادة النهى عن الظهار ، أما الظهار وما يتصلق به من أحكام ، فليراجع فيه سورة المجادلة : الآيـــات من ١ — ٤ .

ولا يبعد حملها على ظاهرها من ارادة النهى عن الظهار ، فالســـورة قد جاءت لتقيم بناء الأسرة والمجتمع ، وتقومه من كل عوج ، وظاهرة الظهـــار ، كانت من العادات المتفشية فى الجاهلية ، ولابد من تطهير المجتمع الاسلامى منهـا .

وعلى كل حال فقد تركت التفصيل فى شأن الظهار ، احالة على ســـورة المجادلة . أما قوله تعالى : ((وما جعل أدعياءكم أبناءكم)) فقد جـــاءت لابطال عادة جاهلية كانت تجعل من الابن الدعى ابنا فى جميع حقوق ابـــن الصلب التى قد ينتج عنها من الاضرار وفساد المجتمع ما لا طاقة للمصلحـــين برفعه ومقاومته الا بتنزيل تشريع من الحكيم العليم .

ولما كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم أول من يطلب منه تطبيق التشريع المنزل عليه وكان عنده حبه زيد بن حارثه عتيقه ومولاه وقد تبناه حتى كان يدعى زيد بن محمد أراد الله تعالى أن يكون صلى الله عليه وآله وسلم أسبـــق السابقين فى ابطال هذه العادة ليسارع الناس الى التطبيق والامتثـــال بعد ذلك ، فنزلت الآية [1] .... ، كما جاء ذلك فى حديث عبد الله بن عمـــر رضى الله عنهما عند البخارى ، قال :

---

(١) راجع قصة زيد فى سيرة ابن هشام ٢٤٧/١ — ٢٤٨ ومستدرك الحاكـــم : ٢١٣/٣ — ٢١٤ .

" أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ماكنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن — ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله — "[1]، وأدعياء[2]: جمع دعى ، وهو الذى يدعى ابنا ، فهو فعيل بمعنى مفعول ، وقوله تعالى: ((ذلكم)) اشارة الى التبنى[3] ((قولكم بأفواهكم)) أى من غير أن يكون له مصداق وحقيقة فى الواقع ونفس الأمر فهو ناظر الى قوله: (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) لأن هذا قول باللسان ويستحيل أن يكون بمقد القلب ، فاذا هو بمعزل عن القبول أو استتباع الأحكام كما زعمتم ، لأن الدعى مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان[4] .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب التفسير ٦/١٤٥ — ١٤٦ .

(*) ابن هشام ... — ٢١٣ هـ هو عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى ، أبو محمد جمال الدين ، مؤرخ ، كان عالما بالأنساب واللغة وأخبار العرب . ولد ونشأ فى البصرة ، وتوفى بمصر .

(٢) وأدعياء : جمع دعى ، فعيل بمعنى مفعول ، جاء شاذا ، وقياسه فعلى ، كجريح وجرحى ، وانما هذا الجمع (أفعلاء) قياس فعيل المعتل اللام بمعنى فاعل ، نحو تقى وأتقياء ، شبهوا أدعياء بتقى فجمعوه جمعه شذوذا ... " تفسير البحر المحيط ، لأبى حيان النحوى ٧/٢١٢ .

(*) أبو حيان النحوى ٦٥٤ — ٧٤٥ هـ هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى الأندلسى الجيانى ، أبو حيان : من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات . ولد فى احدى جهات غرناطة ، وتوفى بالقاهرة بعد أن كف بصره ، من كتبه : " البحر المحيط " فى تفسير القرآن و " طبقات نحاة الأندلس " و " منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك " .

(٣) قصر الاشارة على التبنى ، هو الذى ذهب اليه كثير من المفسرين . راجع : الكشاف ، والنيسابورى فى تفسيره " غرائب القرآن ورغائب الفرقان " ، والرازى ، وابن الجوزى . ويؤيده قوله سبحانه بعد ذلك ((ادعوهم لآبائهم ...)) فخصه بالذكر دون الظهار . والله أعلم .

(٤) من تفسير ابن كثير ، وتفسير الآلوسى . مع تصرف .

(*) النيسابورى ... — ٧٢٨ هـ هو الحسن بن محمد بن الحسين الخراسانى ، نظام الدين ، المعروف بالأعرج : فاضل مفسر ، من أهل نيسابور ، سكن بقم .
من كتبه : ثلاثة تفاسير للقرآن الكريم ، كبير ومتوسط وموجز .

ولا يبعد أن تكون الاشارة الى الأمرين جميعا ، فكلاهما من الأمور التى أنكرها الشرع ، ولم يرتب عليها تلك الأحكام التى كانوا يرتبونها عليها .

((والله يقول الحق)) أى الأمر الثابت الذى تعضده الأدلة والبراهين ، لا ما ينشأ عن عادات باطلة ومفاسد جاهلية وهو الحق المطلق الذى لا يلابسه باطل ، ومن الحق : اقامة العلاقات على تلك الرابطة الحقة ، المستمدة من اللحم والدم ، لا على كلمة تقال بالفم ، فالله سبحانه لا يجعل غير الابن ابنا ، ولا يجعل الزوجة أما .

((وهو يهدى السبيل)) أى يرشدكم الى هذا الحق ، ويجنبكم الباطل الذى لا حقيقة له فى الواقع ، فسبيل الله هو الذى لا يغنى غناءه سبيل آخر مصنوع بالأفواه لا مدلول له فى الواقع .

و " أل " فى قوله " السبيل " عوض عن المضاف اليه : أى يهدى الى سبيل الحق . والله أعلم .

... ...

المناسبة :

ولما بين سبحانه بطلان ما تنطق به أفواههم من جعل غير الابن ابنا وأشار سبحانه الى أن الحق هو ما يهدى اليه هو وحده تعالى ، أتبع ذلك بالارشاد الى الطريق القويم فى دعوة هؤلاء فقال تعالى : ((ادعوهم لآبائهم هو أقسط(١) عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ٥/)) وهذا قطع للبنوة الباطلة ، وتشريع للاخوة الايمانية .

قوله سبحانه ((ادعوهم لآبائهم)) : أى انسبوهم اليهم ، وخصوهم بهم(٢) . وهو استئناف بيانى ، لبيان الحق المشار اليه فى الآية السابقة .

((وهو أقسط عند الله)) : أى ذلك هو القسط والعدل ، أن يدعى الولد لأبيه ، اذ هو عدل للوالد الذى نشأ هذا الولد منه ، وهو عدل كذلك للولد الذى هو بضعة من أبيه ، وهو لذلك يرثه ويورثه ، وهو عدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شئ فى مكانه ، ويقيم كل علاقة على أصلها ، ولا يضيع حقا على والد ولا ولد ، كما أنه لايحمل غير الوالد الحقيقى تبعة الأبوة ،

---

(١) القسط : العدل . من أقسط الرباعى . قال ابن منظور فى اللسان : يقال : أقسط يقسط ، فهو مقسط : اذا عدل . وقسط يقسط ، فهو قاسط : اذا جار . فكأن الهمزة فى أقسط للسلب ، كما يقال : شكا اليه فأشكاه . انتهى ٣٧٧/٧ .

(*) ابن منظور . ٦٣٠ ـ ٧١١ هـ هو محمد بن مكرم بن على ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور الانصارى الرويفعى الافريقى ، صاحب " لسان العرب " ، الامام اللغوى الحجة ، من نسل رويفع بن ثابت الأنصارى ولد بمصر (وقيل : فى طرابلس الغرب) وتوفى بمصر . وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد وعمى فى آخر عمره .

(٢) تفسير أبى السعود ٤/٠٠٤ .

ولا يعطيه مزاياها . ولا يحمل غير الولد الحقيقي تبعة البنوة ولا يحابيه بخيراتها .

قال ابن كثير : وهذا أمر ناسخ[1] لما كان في ابتداء الاسلام ، من جواز ادعاء الابناء الأجانب وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى ، برد نسبهم الى آبائهم في الحقيقة ، وانّ هذا هو العدل والقسط والبر[2] ، (وسرد رواية ابن عمر عند البخاري التي ذكرتها سابقا) .

ولعل ابن كثير يريد بالنسخ مطلق الازالة ، وهو ازالة ما كان معروفا في الجاهلية من جواز الادعاء ، لأنه لم يكن ثابتا بحكم شرعي ، والنهي عن دعوة الغير ابنا — المدلول عليه ضمنا بهذه الآية — المقصود منه ماكان على سبيل التبني ، واستتباع سائر أحكام البنوة ، وأما النداء بنحو يا بني على سبيل التكريم والتحبيب ، فليس مما نهي عنه في هذه الآية ، بدليل ما روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله لأنس : " يا بني " وللمغيرة بن شعبة : " أي بني " وكلاهما من رواية مسلم[3] . وربما قيل : لعل هذا سابق على النهي فيكون منسوخا . والجواب عن ذلك بما رواه أحمد وأصحاب السنن الا الترمذي ، قال أبو داود :

حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا سفيان ، قال : حدثني سلمة بن كهيل ، عن الحسن العرني ، عن ابن عباس ، قال : قدمنا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) لو عبر بكلمة " البطلان " مكان " النسخ " لكان أولى : لأن النسخ انما يكون رافعا لما ثبت بحكم شرعي . والتبني لم يثبت بحكم شرعي . الا أن يقصد النسخ اللغوي . وهو مطلق الازالة . ه .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٦٦/٣ .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الآداب ١٦٩٣/٣ .

وآله وسلم ليلة المزدلفة أُغَيْلِمَةَ بني عبد المطلب على حمرات فجعل يلطخ أفخاذنا ، فقال : " أُبَيْنِيَّ لا ترموا الجمرة حتى تطلع الشمس "(١) قال أبو داود: اللطخ : الضرب اللين.

ومن المعلوم أن هذا كان في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، أي بعد نزول سورة الأحزاب .

ولما نهى الله سبحانه عن التبني ، لم يهمل — رحمة منه — شأن الذين لا يعرف نسبهم ، بل جعل لهم مكانا في المجتمع ، قائما على الاخوة في الدين ، والموالاة فيه ، فقال سبحانه : ((فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم)) فيقال له : يا أخي ، ويامولاى على تأويل الولاية في الدين التي يراد بها المحبة والنصرة وقرب النفس .

وحمل الولاية على الولاية في الدين أولى لشمولها كل من جهل نسبه سواء أكان عبدا أم لا ، وهذا المعنى هو الذي قال به كثير من المفسرين .(٢)

وهذه العلاقة التي أثبتها الاسلام لهؤلاء في المجتمع ، هي الرابطة التي تربط بين أفراد المجتمع ، ولا يترتب عليها تلك الالتزامات التي كانت تترتب على التبني ، غير أنها من ناحية أخرى تجعل من المجتمع الاسلامي

---

(١) سنن أبو داود : كتاب مناسك الحج ١٩٤/٢ . ورجال السند كلهم ثقات كما في التقريب لابن حجر . ورواه أيضا : النسائي : كتاب المناسك ٢٧١/٥ وابن ماجه : كتاب المناسك ١٠٠٧/٢ والامام أحمد ٢٣٤/١ ، ٣١١ ، ٣٤٣ .

(*) أبو داود ٢٠٢ — ٢٧٥ هـ هو سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدي السجستاني ، أبو داود : امام أهل الحديث في زمانه ، أصله من سجستان ، وتوفي بالبصرة ، له " السنن " وهو احد الكتب الستة ، و " البعث " و " المراسيل " .

(٢) منهم : النيسابوري ، والزمخشري ، وأبو السعود ، والآلوسي ، والبيضاوي .

وحدة في الولاء والمحبة والنصرة ، ولا يضيع فرد في مجتمع شأنه ذلك .

وقوله سبحانه : ((وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)) .

الجناح(١) : الاثم أو الحرج ، والآية فيها رفع المآخذة على الخطاء ، والخطأ هنا المراد به عموم الخطأ(٢،٣) ، ويدخل فيه سبب النزول دخولا أوليا .

والمراد أن الاثم مرفوع فيما فعل على سبيل الخطأ ، فيشمل ما فعلوه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النهي ، ويكون الاثم فيما تعمدوه بعد ورود النهي(٤) . كما يشمل الخطأ ، وسبق اللسان ، والنسيان(٥) . كما يدخل فيه أيضا من نسب غيره الى غير أبيه خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع وهو

---

(١) قال الراغب : وسمى الاثم المائل بالانسان عن الحق جناحا ، ثم سمى كل اثم جناحا نحو قوله تعالى : (لاجناح عليكم) في غير موضع ص ١٠٠ .

(*) الراغب الأصفهاني ٠٠٠ـ٥٠٢ هـ هو الحسين بن محمد بن المفضل ، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب : أديب ، من الحكماء العلماء ، من أهل " أصبهان " ، من كتبه : " محاضرات الأدباء " و" الذريعة الى مكارم الشريعة " و "المفردات في غريب القرآن" .

(٢) ذكره الزمخشري ٢٥٠/٣ والقرطبي في تفسيره ١٢٠/١٤ .

(*) القرطبي ٠٠٠ـ٦٧١ هـ هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي الأندلسي ، أبو عبد الله القرطبي : من كبار المفسرين ، من أهل قرطبة ، استقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط بمصر) وتوفي فيها . من كتبه : "الجامع لاحكام القرآن" و "قمع الحرص بالزهد والقناعة" و "الاسنى بشرح أسماء الله الحسنى" .

(٣) قال في اللسان : الخطأ والخطاء : ضد الصواب ، وقد أخطأ . وفي التنزيل : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) عداه بالباء لأنه في معنى عثرتم أو غلطتم . . .
وقال أيضا : ويقال : قد خطئت ، اذا أثمت ، فأنا أخطأ وأنا خاطئ ، وقال المنذري : سمعت أبا الهيثم يقول : خطئت : لما صنعه عمدا ، وهو الذنب ، وأخطأت لما صنعه خطأ غير عمد ... ٦٥/١ ، ٦٧ .

(٤) الزمخشري ٢٥٠/٣ بتصرف .

(٥) المصدر السابق .

يرى أن من ينسبه اليه أبوه[1] .

وحمل الآية على العموم الشامل لكل هذه الصور أولى من قصره على صورة واحدة منها ، وقد ثبت بأدلة أخرى ، أن الله عز وجل رفع عن عباده الخطأ المقابل للعمد ، وذلك فى مثل قوله سبحانه — آمرا عباده أن يقولوا — : (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا)[2] .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن الله عز وجل قال : " قد فعلت "[3] .

وقوله سبحانه : ((ولكن ما تعمدت قلوبكم)) أى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم ، أى فيما فعلتموه بعد ورود النهى ، على سبيل العمد .

وذيل سبحانه الآية بقوله : ((وكان الله غفورا رحيما)) اظهارا لكمال رحمته ومغفرته ولطفه بعباده فى تجاوزه عن سيئاتهم ، وعدم تكليفهم ما لا يطيقونه .

قال الامام الرازى : المغفرة : هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته ، حتى أن العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه ، لا يقال : غفر له . والرحمة : هو أن يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لا لعوض ، فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال : رحمه ، وكذا من أحسن الى غيره رجاء فى خيرة أو عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان ، لا يقال : رحمه ، اذا علم هذا ، فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة ، يكون معناها ، أنه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه ، واذا ذكرت المغفرة بعد

---

(١) تفسير ابن جرير ١٢١/٢١ وتفسير ابن كثير ٤٦٧/٣ بتصرف .
(٢) سورة البقرة ٢٨٦ .
(٣) رواه مسلم : كتاب الايمان ١١٥/١ من حديث طويل .

الرحمة — وهو قليل — يكون معناها : أنه مال اليه لعجزه فترك عقابه ، ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه (١) .

*** *** ***

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/١٩٣ — ١٩٤ .

البحث الثالث

مكانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة للمؤمنين

المناسبة :

لما ذكر الله سبحانه حكم التبنى ، وانه فى ميزان الحق والعدل باطل ، وقرنه بالظهار ، الذى قال فيه : (وانهم ليقولون منكرا من القول وزورا[1]) ، كما جعلهما من الأمور التى لاحقيقة لها فى الواقع ، وانما هى مجرد قول بالأفواه ، وكان زيد يتبنى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اياه قد كسب رفعة خاصة وشرفا عظيما ، بعد أن آثر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على أبيه ، كان فى ابطال التبنى ، مع قوله تعالى : ((ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ... الآية[2]) سلب لذلك الذى كان كسب زيدا من رفعة ، لانتسابه الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أردف الله سبحانه النهى عن التبنى بقوله : ((فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم)) فأثبت لهم مكانة فى المجتمع بدلا عن التى سلبها منهم ، تلك المكانة هى الأخوة فى الدين . ولما كانت الأخوة فى الدين ، تقتضى الولاية فيه أيضا ، فان فى التصريح بها فى قوله تعالى ((ومواليكم)) اشارة الى أن لهم مكانة خاصة فى أمر الولاية[3] ، وهذا قد يجعل المؤمنين يظنون أن زيدا له من

---

(١) سورة المجادلة ٢
(٢) سورة الاحزاب ٤٠
(٣) لما خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مكة بعد عمرة القضاء ، وتبعته ابنة حمزة ، وتنازع فيها على وجعفر وزيد رضى الله عنهم ، قضى بها صلى الله عليه وآله وسلم لخالتها (وكانت تحت جعفر) . ثم قال لعلى : " أنت منى وأنا منك " . وقال لجعفر : " أشبهت خلقى وخلقى " . وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا " . والقصة بكاملها فى صحيح البخارى : كتاب الصلح ٢/٢٤١ـ ٢٤٢ .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، مكانة خاصة فى أمر الولاية ، زائدة على سائر المؤمنين ، فجاء بعدها مباشرة قوله سبحانه وتعالى :

((النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ٦/)) .

فكان فى ذلك تسلية للمؤمنين جميعا بأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمؤمنين جميعا على حد سواء ، وهذا وجه محتمل للمناسبة .

وهناك احتمال آخر وهو : انه سبحانه لما نهى عن التبنى ، كان لابد أن يصيب زيدا من ذلك وحشة من أنه صار لا يدعى بعد الآن : زيد بن محمد خصوصا بعد الذى كان من أمر أبيه وعمه مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه قد يرى فى تخلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أبوته حطًا من قدره بين الناس ، وقد كان هو يعتز بهذه الدعوة ، لأنها تكسبه جاها عريضا ينفعه فى الدنيا والآخرة ، أنزل الله تعالى هذه الآية تسلية لزيد ، ولبيان أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ان تخلى عن أبوته فالى الولاية العامة ، والرأفة الشاملة ، التى تعم المسلمين جميعا ، لا تفريق فيها بين ابن من الصلب أو غيره ، فهو يرعاهم حق الرعاية ، ويهديهم طريقا ان اتبعوه لن يضلوا بعده أبدا ، وماكانت أبوّته لزيد أو لأحد غيره بزائدة فى ذلك شيئا ، ولن ينقص زيد بتخلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أبوته شيئا ، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أولى وأحق بكل المؤمنين من أنفسهم ، فهو الآمر الناهى بما يحقق للناس سعادتهم فى الدنيا والآخرة والحفيظ على مصالحهم ،

لا يضيع منها شيئاً.(١)

والأولوية فى الآية مطلقة غير مقيدة ، فهى لذلك شاملة لجميع مصالح العباد فى الدين والدنيا : أى هو أحق بهم فى كل أمور الدين والدنيا من أنفسهم ، فضلا عن أن يكون أولى بهم من غيرهم ، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وأنفسهم ، وأن يحبوه فوق حبهم أنفسهم ، وأن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم.(٢)

وبالجملة ، فاذا دعاهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم لشئ ،ودعتهم أنفسهم الى غيره وجب عليهم أن يقدموا ما دعاهم اليه ، ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم اليه ، وأن يطيعوه فوق طاعتهم أنفسهم ، وأن يقدموا طاعته على ما تميل اليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم.(٣)

وقد ورد فى هذا المعنى أدلة أخرى مثل قوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(٤).

وما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : " مامن مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ،

---

(١) آيات الأحكام : اشراف وتحقيق محمد على السايس ٤/١٢.
(٢) فتح القدير : الشوكانى ٤/٢٦١ بتصرف.
(*) الشوكانى ١١٧٣–١٢٥٠ هـ هو محمد بن على بن محمد بن عبد الله الشوكانى فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن ، ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن ، ونشأ بصنعاء ومات بها ، وكان يرى تحريم التقليد.
من مؤلفاته : " نيل الأوطار " و " البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع " و " الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ".
(٣) المرجع السابق.
(٤) سورة الحشر ٧.

اقرأوا ان شئتم : ((النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم)) فأيما مؤمن تـــرك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فان ترك دينا أو ضياعا[1] فليأتنى وأنا مولاه[2] "•

وفى الصحيحين : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين[3] "•

وفى البخارى : " قال عمر : يارسول الله لأنت أحب الى من كل شىء الا نفسى • فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا والذى نفسى بيده ، حتى أكون أحب اليك من نفسك• فقال له عمر : فانه الآن والله لأنت أحب الـى من نفسى • فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : الآن يا عمر[4] "•

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : " انمـــا مثلى ومثل أمتى ، كمثل رجل استوقد نارا ، فجعلت الدواب والفراش يقعـن فيه• فأنا آخذ بحجزكم ، وأنتم تقحمون فيه[5] "•

وهذا مثل لشفقته صلى الله عليه وآله وسلم لأمته واجتهاده صلى الله عليه وآله وسلم فى نجاتنا ، وحرصه على ابعادنا عن الهلكات التى بين أيدينا ، فهو أولى بنا من أنفسنا[6]•

---

(١) والضياع: العيال نفسه• اللسان ٨/٢٣١• قال القرطبى فى " الجامع لاحكام القرآن " : والضياع بفتح الضاد : مصدر ضاع ، ثم جعل اسمـا لكل ما هو بصدد أن يضيع من عيال وبنين لا كافل لهم ، ومال لا قيم لـه ... ١٤/١٢٢ — ١٢٣•
(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير ٦/١٤٥•
(٣) البخارى : كتاب الايمان ١/١٠ ومسلم : كتاب الايمان ١/٦٧•
(٤) صحيح البخارى : كتاب الأيمان (بفتح الهمزة) ٨/١٦١•
(٥) البخارى : كتاب الرقاق ٨/١٢٧ ومسلم : كتاب الفضائل ١٧٨٨ واللفظ له •
(٦) تفسير القرطبى ١٤/١٢٢ بتصرف •

البحث الرابع

التنويه بشأن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ولما تبين بذلك حق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنزلته ، وصلة المؤمنين به ، أردف سبحانه ذلك ببيان مكانة أزواجه وحقهن على المؤمنين فقال سبحانه : ((وأزواجه أمهاتهم)) أى بمنزلة أمهاتهم فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والاعظام ، وحرمة النكاح ، دون سائر أحكام الأمومة : مثل الخلوة بهن ، أو النظر اليهن ، أو التوارث بينهن وبين المؤمنين ، أو تحريم اخواتهن وبناتهن على المؤمنين .[1]

وفى تحريم نكاحهن أيضا ، نزل قوله تعالى : ((ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أبدا))[2] .

وفى الخلوة بهن أو النظر اليهن نزل قوله تعالى : ((واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب))[3] ، وقوله تعالى : ((يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما))[4] . ويمكن أن يقال : ان الآية على عمومها فى جميع الأحكام الا ما خاصه الدليل ، كالآيات السابقة .

... ...

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٦٨/٣
(٢) سورة الأحزاب ٥٣
(٣) سورة الأحزاب ٥٣
(٤) نفس السورة ٥٩

وقد يقال : كيف ينهى عن جعل المرأة أما للغير ، وهو ما يقتضيه قوله سبحانه : ((وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم)) ثم يجعل أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم أمهات للمؤمنين ، ولسن بأمهاتهم حقيقة ؟

والجواب : أن الصورة المنهى عنها هى الظهار ، التى رتب عليها الناس أحكاما باطلة من عند أنفسهم . وأما ما هنا فليس الا مجرد اخبار عن مكانة نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم من المؤمنين ، وصلتهن بهم ، وهو لا يتجاوز الاعظام والتوقير والاحترام . وقد يكون فيه اشارة الى ما يدفع المؤمنين الى المبادرة فى ترك التبنى ، فكأنه يقول : اذا كانت منزلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من المؤمنين فوق منزلة آبائهم منهم ، وأزواجه بمنزلة أمهاتهم فى التكريم والاعظام ، ومع هذا لم يقر الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم — على نسبة الغير اليه فالمؤمنون من باب أولى .

... ...

البحث الخامس

الاشارة الى حقوق أولى الأرحـــــــــــــــــام

وقول الله عز وجل : ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين)) .

يذهب المفسرون فى تأويلها ، الى أنها جاءت ناسخة للتوارث الذى كان بين المؤمنين بسبب الهجرة ، أو بسبب المؤاخاة ، أو بسبب المعاقدة والمحالفة ، فلما نزلت هذه الآية نسخ ذلك ، وبقى ما عدا الارث من النصرة والرفادة والوصية ، وصار الارث مقصورا على سبب القرابة .

والقول بالنسخ لا يصار اليه الا اذا ثبت أن الحكم السابق كان ثبوتـه بدليل شرعى ، وجميع الأدلة ، التى استند اليها القائلون بالنسخ ، ليس فيها شيء يدل على أن التوارث بين المؤمنين ، كان بنص شرعى ، وغاية ما استدلوا به ، هو قوله تعالى — فى سورة الأنفال — : (ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ... الآية) [1] فقصروا معنى الولاية هنا على الارث ، وهو قصر لا دليل عليه ، والأولى حمل الولاية هنا ، على عموم المواساة ، بما فى ذلك الارث ، واذا كان التوارث قد حصل بينهم ، فان ذلك لم يكن بنص شرعى ، وانما كان أثرا من آثار المؤاخاة والمعاقدة والمحالفة ، ولهذا نجد المفسرين لا يتفقون

---

(١) سورة الأنفال ٧٢ .

موقفا حاسما أمام ما يسمونه بالناسخ لهذا التوارث ، فهم يقولون — عند قولــه تعالى : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) الواردة فى آخر سورة الأنفال[١] : أنها الناسخة ، وهنا لم تظهر حكمة النسخ ، لأن السورة نزلت بعد غزوة بدر الكبرى ، والمسلمون حينئذ لم يكن لهم غناء عن التوارث ، اذ لم ينالوا حتى الآن سعة فى الرزق ، كما أن أموال المهاجرين ما تزال محبوسة فى مكة .

ويأتى بعض المفسرين فى سورة " النساء " عند قوله تعالى : (ولكــل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم)[٢] فيجعل قوله تعالى : (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون) هو الناسخ للتوارث الذى كان بين المهاجرين والأنصار بالمؤاخاة ، وروى البخارى هذا عن ابن عباس رضى الله عنهما[٣] . كما يذكر المفسرون — عند قوله تعالى — فى سورة الأحزاب — وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ... الآية — أنها الناسخة ، وروى هذا ابن كثير عن سعيد بن جبير وغيره[٤] .

ومما سلف يتبين لنا أن التوارث لم يكن بين المؤمنين ثابتا بنص شرعى ، وأنه انما كان ثبوته بالتآخى ، أو المعاقدة والمحالفة ، كجزء مما كان يلتزمــه المؤمن تجاه أخيه المؤمن من المواساة والايثار .

وبذلك كان المعنى الذى يقتضيه سياق الآيات والمقام ، فى كل من سورتى الأنفال والأحزاب هو :

---

(١) سورة الأنفال ٧٢ .
(٢) سورة النساء ٣٣ .
(٣) صحيح البخارى : كتاب التفسير ٦ /٥٥ — ٥٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣/٤٦٨ .

أما فى سورة الأنفال ، فالمراد — والله أعلم — تقديم ذوى الأرحام على من عداهم من المؤمنين ، فى الأمور التى تضمنها قوله سبحانه : (أولئك بعضهم أولياء بعض)[١] . بمعنى أنه اذا وجد ذو رحم من المؤمنين ، فانه يقدم على غيره من سائر المؤمنين .

ومن المستحسن هنا أن ننقل بعض كلام الشيخ رشيد رضا — بعد أن ذكر أن بعض المفسرين ذهب الى أن معنى الولاية فى آية سورة الأنفال مقصور على الميراث ، قال :

والمتعين أن يكون لفظ الأولياء عاما يشمل كل معنى يحتمله . والمقام الذى نزلت فيه هذه الآية بل السورة ، كلها يأبى أن يكون المراد به حكما مدنيا من أحكام الأموال فقط . فهى فى الحرب ، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض ، وعلاقتهم بالكفار .

وكل ما يصلح أن يقال فى مسألة التوارث : انها داخلة فى عموم هذه الولاية ، سواء كان بالاسلام أم بالقرابة ....

ويعقب على القول : بأن آية الأنفال ، هى الناسخة للتوارث .[٢]

---

(١) وذلك فى آية ٧٢ .
(٢) تفسير المنار ١٠/١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، باختصار .
(*) رشيد رضا ١٢٨٢ — ١٣٥٤ هـ هو محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة القلمونى ، البغدادى الأصل ، الحسينى النسب : صاحب " مجلة المنار " ، وأحد رجال الاصلاح الاسلامى . من الكتاب ، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير ولد ونشأ فى القلمون (من أعمال طرابلس الشام) ثم رحل الى مصر سنة ١٣١٥ هـ فاتصل بالامام الشيخ محمد عبده ، وتتلمذ له ، وتوفى بمصر ودفن بالقاهرة .

بقوله ... لا يبقى معها لذلك التوارث فائدة ، ولا لنسخه حكمة ، لقرب الزمن بين هذا الارث وبين نسخه ، فان سورة الأنفال نزلت عقب غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، ولم تكن الحاجة الى ذلك الارث قد تغير منها شىء ، ......

فالاسلام قد عز بغزوة بدر ، ولكن الشمل لم يجتمع ، والوحشة لم تذهب ، والسعة فى الرزق لم تحصل ، وكان لايزال أكثر ذوى القربى مشركين .

والمعنى المتبادر من نص الآية وقرينة السياق ، أنها فى ولاية الرحم والقرابة ، بعد بيان ولاية الايمان والهجرة ، فهو عز شأنه يقول : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض) : أى أحق من المهاجرين والأنصار الأجانب ، بالتناصر والتعاون ، وكذا التوارث فى دار الهجرة ، فى عهد وجوب الهجرة ثم فى كل عهد هم أولى بذلك فى كتاب الله : أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى فى هذه الآية وغيرها مما نزل قبلها ، وأكده فيما نزل بعدها كآية الأحزاب ...

فالقريب ذو الرحم ، أولى من غيره من المؤمنين ، بولاء قريبه وبره ، ومقدم عليهم فى جميع أنواع الولايات المتعلقة بأمره ، كولاية النكاح ، وصلاة الجنازة وغير ذلك .

وهذه الولاية لا تقتضى عدم التوارث العارض بين المهاجرين والأنصار ، والمتعاقدين على أن يرث كل منهما الآخر ، كما كانت تفعل العرب ، واذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة ، فالقريب مقدم ، كما قال تعالى : (وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين)(١)(٢) ...

---

(١) سورة النساء ٣٦ .
(٢) المرجع السابق .

وجملة القول : ان أولوية أولى الأرحام بعضهم ببعض ، هو تفضيل لولايتهم على ما هو أعم منها ، من ولاية الايمان ، وولاية الهجرة فى عهدها ، ولكن فى ضمن دائرتهما ، فالقريب أولى بقريبه ذى رحمه المؤمن المهاجرى والأنصارى من المؤمن الأجنبى . وأما الكافر فان كان محاربا للمؤمنين ، فالكفر مع القتال يقطعان له حقوق الرحم ، كما قال تعالى — فى سورة الممتحنة —: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء[1] ... الآيات) وان كان معاهدا أو ذميا ، فله من حق البر وحسن العشرة ، ما ليس لغيره ، قال تعالى — فى الوالدين المشركين — : (وان جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا[2] ...) ثم قال — فى الكفار عامة — : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين[3]) فالبر والعدل مشروعان عامان فى حدود الشرع[4] " انتهى محل الغرض منه[5] .

وأما ما يقتضيه السياق فى سورة الأحزاب ، فان جملة ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض)) لا علاقة لها بالميراث من حيث هو . وحملها على ارادة النسخ للتوارث الذى كان بين المؤمنين ، بالهجرة والمعاقدة ، أو المؤاخاة ، لا يساعد عليه المقام ، وسياق الآيات من قريب ولا من بعيد .

والمتأمل للسياق ، يدرك أنها ذات صلة قوية بما سبقها من أمر التبنى ، فالله سبحانه وتعالى ، بعد أن أبطل التبنى ، الذى كان يستتبع أحكام

---

(١) سورة الممتحنة ١ .
(٢) سورة لقمان ١٥ .
(٣) سورة الممتحنة ٨ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) وللامام الرازى فى هذا الموضوع كلام جيد فراجعه فى تفسيره مفاتيح الغيب ١٥/٢٠٩ ، ٢١٣ .

ولد الصلب ، من النسب والميراث ، أمر المؤمنين — فى شأن النسب — أن يدعوهم لآبائهم ، ثم ندبهم — فى شأن البر والاحسان — الى أن يقدموا فيه ذوى القربى فقال : ((وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين)) : أى أن أولى الأرحام من المؤمنين — ولابد من اجتماع وصفى القرابة والايمان — هم أولى بالاحسان من غيرهم ، فالمتبنى (بفتح النون) يعود حكم ميراثه ، وسائر أنواع البر والاحسان الى قرابته ، والمتبنى (بكسر النون) يعود حكم ميراثه ونحوه أيضا ، الى ذوى رحمه .

وحين صرف الله عز وجل هذا الحق عن الدعى ، الى الوارث الحقيقى ، لم يهمل شأن هؤلاء الأدعياء فى باب البر والاحسان ، فهو سبحانه كما جعل لهم مكانا بدلا عن الانتساب الى المتبنى فقال : ((فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم)) كذلك جعل لهم — بدلا من حرمانهم من ميراث المتبنى — الوصية احسانا اليهم ، فقال تعالى : ((الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا)) .

والاشارة فى قوله سبحانه : ((كان ذلك فى الكتاب مسطورا)) الى ما يتعلق بشأن أولى الأرحام من الميراث وسائر أنواع البر والاحسان ، وأن ذلك قد سطر فى كتاب الله تعالى ، وسبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقى ، والمنهج المطرد ، الذى لا يبدل ولا يغير .

... ...

البحث السادس

وحدة دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

المناسبة :

لما كان ما سبق متضمنا أحكاما شرعية ، من ابطال أمور كانت فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وتشريع أحكام أخرى مكانها ، وكان القيام بتبليغ ذلك يحتاج الى تحمل أعباء وتبعات ، أردفه الله عز وجل ذلك ، بما فيه حث على التبليغ، وهو تذكيره سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، ما أخذه عليه وعلى سائر الأنبياء من العهد ، بتبليغ الرسالة والشرائع ، والدعوة الى دين الحق ، وتصديق بعضهم بعضا ، ومناصرة بعضهم لبعض ، واعلانهم بأن محمدا — صلى الله عليه وآله وسلم — رسول الله ، فقال تعالى :

((واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ٧/٨)) .

وهذه الأمور التى أخذ عليها الميثاق أبهمت فى هذه الآية ، وجاء مصرحا ببعضها فى قوله تعالى :

(واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ... الآية) (١) .

---

(١) سورة آل عمران ٨١ .

قال ابن كثير : قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس رضى الله عنهما : " ما بعث الله نبيا من الأنبياء ، الا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمدا وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه "(١)

وآية " آل عمران" هذه ، لم تخص بالذكر أحدا من الأنبياء ، بينما آية " الأحزاب" خصت بالذكر خمسة منهم ، للايذان بمزيد مزيتهم وفضلهم ، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع ، وأساطين أولى العزم من الرسل .

وتقديم خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم ، لابانة خطره الجليل ، ولافادة عموم رسالته ، وأنها جامعة لجميع فضائل رسالات المرسلين .

وفى ذكر النبيين عليهم الصلاة والسلام عامة — مع أن المقام مقام تذكير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالميثاق — للحفاوة بخاتم النبيين ، وبيان مقامه الشريف ، بين مقامات الأنبياء ، لأن الميثاق الذى أخذ عليهم ، للتبليغ بالرسالة وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وللاشارة الى أن رسالات النبيين واحدة ، ومهمتهم واحدة ، فكلهم يبلغ عن الله ، ويدعو الى وحدانيته ويواجه من قومه مواقف شبيهة بمواقف الأمم الأخرى من الأنبياء ، فكأنه جل وعلا يقول : لقد أدى الرسل من قبلك مهمتهم فى تبليغ الرسالة ، وفى ايصاء أممهم بنصرتك وتأييدك على كل من أدركته رسالتك(٢) ، وفاء بحق العهد الذى أخذناه عليهم ، وواجهوا من أممهم من التمرد والايذاء والصد ما الله

---

(٢) روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : " والذى نفسى محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به الا كان من أصحاب النار " ١/١٣٤ فى كتاب الايمان .

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٧٨ .

أعلم به ، وصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ، ففيه تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم وتثبيت ، ولذلك جاء بعد هذا الميثاق ، ذكر غزوة " الأحزاب" ومواقف الأعداء من المؤمنين ، ونصر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما سنبين ذلك في مكانه ان شاء الله تعالى .

وأما قوله سبحانه : ((ليسأل الصادقين عن صدقهم ... الآية)) فالظاهر أن المراد بالصادقين هنا : الأنبياء ، بدليل السياق ، والمعنى — والله أعلم — ان الله تعالى ، يسألهم عن صدقهم في تبليغ رسالاتهم والتي منها : اذا جاءهم رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ولينصرنه ، وفي هذا تبكيت في ذلك الموقف الرهيب للكافرين بهم ، كقوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ... الآية)[1] .

ويحتمل أن يكون المسئول كلا من الأنبياء والمؤمنين ، واطلاق صفة الصدق على المؤمنين ، لأن من قال للصادق : صدقت ، كان صادقا أيضا . فالأنبياء يسألون عن التبليغ ، والمؤمنون يسألون عن الاستجابة .

واحتمال ثالث : وهو أن يراد بالصادقين هنا المؤمنون فقط ، بدليل كونه ذكر في المقابل الكافرين . وفيه اشارة الى أنه يسأل الكافرين أيضا ، غير أنه اكتفى بذكر ما أعد للكافرين ، لكونه المهم في حقهم ، ولأن السؤال في حقهم مفروغ منه ، وفيه وعيد لمن كذب بالرسل عليهم الصلاة والسلام . وعلى هذا المعنى الثالث ، تكون الآية قد ذكرت مهمة من مهمات الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فقد جرت سنة الله سبحانه ، أن يرسل الرسل ، ليؤدوا مهمة التبليغ بالانذار والتبشير ، لتقوم بذلك الحجة على الناس كما قال تعالى:

---

(١) سورة المائدة ١١٦ .

(رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[1] وحتى لا يقول الكافرون يوم القيامة : (لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)[2] .

وبالتبليغ يتحمل كل انسان مسئولية العقيدة ، والمنهج والسلوك ، التى سار بها فى هذه الحياة ، ويوم القيامة يسأل ويجازى بميزان العدل والحق ، ((ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما)) ، (فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين)[3] ويجازى الله سبحانه بعد ذلك الصادقين ، الذين صدقوا بعقيدتهم وسلوكهم ، وصدقوا الرسل ، يجازيهم بثوابه وجزيل افضاله وكرمه . كما يجازى المبطل المكذب ، الذى عاش بالكذب فى عقيدته وسلوكه ، وكذب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ووقف فى وجه دعوتهم ، يجازيهم بالعذاب الأليم .

... ...

---

(١) سورة النساء ١٦٥
(٢) سورة طه ١٣٤
(٣) سورة الأعراف ٦

البحث السابع

تذكير المؤمنين بنعمة النصر في الأحزاب

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل الميثاق ، الذى أخذه سبحانه على الأنبياء ، وفيه الاشارة الى وحدتهم ، ووحدة دعوتهم ، وتشابه مواقفهم ، ومواقف أممهم منهم ، ناسب ذلك أن يردفه بذكر موقف من المواقف التى وقفها أعداء الاسلام ، من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفيه تذكير بنعمة عظيمة ، يمتن تعالى بها على المؤمنين ، ولذلك يستهلها بنداء المؤمنين :

((يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا /٩))

فكما ذكر سبحانه الأنبياء جميعا ، وهو يذكر نبيه محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بالميثاق ، نادى المؤمنين جميعا عند الامتنان بهذه النعمة الجليلة ، فالقضية فى مجال الدعوة والتبليغ — وان تعلقت بشخص أو أشخاص — ولكنها تبرز وكأنها قضية الرسل والمؤمنين جميعا ، فما من مساءة تنزل بأى منهم ، فى أى زمان وأى مكان الا ساءتهم جميعا ، وكذلك المسرة التى تصيب ايا منهم تسرهم جميعا ، ولذلك فرض الله سبحانه على كل مؤمن الايمان بكل الرسل ، فلا يتم الايمان بواحد منهم الا بالايمان بهم جميعا (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم

أجورهم وكان الله غفورا رحيما)[1] . ومن يكفر بواحد منهم فقد كفر بهم جميعا (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم ... الآية)[2] .

فالقضية اذا لا تعود الى شخص أو فئة ، وانما هي قضية الايمان والرسالة ، التي حملتها أمة في سلسلة متصلة ، منذ أراد الله سبحانه استخلاف هذا الانسان في الأرض .

والكافرون مهما اختلفت مشاربهم وتصوراتهم ، فهم جميعا بعضهم أولياء بعض ، يقفون من دعوة الله سبحانه موقفا واحدا ، في العداء والصد والمحاربة ، وقد فرض الله تعالى أن يكون المؤمنون كذلك بعضهم أولياء بعض ، (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... الآية)[3] وقال سبحانه : (الا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[4] .

وهذا الموقف الذي تقفه طوائف الكفر كلها من المؤمنين ورسلهم ودعوتهم تبرز صورة منها في "غزوة الأحزاب" ، كما يصورها القرآن الكريم في قوله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ٩/١٠))

---

(١) سورة النساء ١٥٢
(٢) سورة الفرقان ٣٧
(٣) سورة التوبة ٧١
(٤) سورة الأنفال ٧٣

يذكر الله عز وجل المؤمنين جميعا بنعمة جليلة من نعمه ، لمس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون من حوله ، حلاوة تلك النعمة ، التى كانت بالنسبة لهم نعمة مباشرة ، غير أنها كذلك تشمل المؤمنين جميعا ، انها ليست نعمة مال ولا صحة جسم ، ولكنها نعمة نصر الايمان والرسالة وأتباع الرسل ، دحر فيها ذلك التحزب الهائل من طوائف الكفر المختلفة ، المتفقة على استئصال هذا الدين .

والأحداث فى حياة الجماعة المسلمة ، ما هى الا سلسلة مترابطة ، لا تنفك بعضها عن بعض ، وما حدث فى غزوة سابقة ، تنصب آثاره على غزوة لاحقة .

"وغزوة الأحزاب" — وهى لاحقة لغزوتين عظيمتين ، هما " بدر " و " أحد " — لايمكن أن يهمل فيها جانب آثارهما على الأحوال النفسية والاجتماعية ، والمواقف الايمانية ، لأولئك الذين حضروا هذه الغزوة ، بعد أن رتبهم الأحداث مرة تلو أخرى . واذا كان ما حدث فى "الأحزاب" نعمة تستحق عظيم الشكر ، فان ما حدث فى كل من "بدر" و " أحد " نعم كذلك .

أما فى "بدر" فقد حدث ذلك النصر على يد تلك الفئة ، التى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " اللهم ان تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض "[(1)].

فهى الجماعة التى رفع الله بها راية الحق ، وكسر شوكة الباطل ، وقد كانت الخلاصة ، لتربية طويلة ، قام بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) رواه مسلم : كتاب الجهاد ٣ / ١٣٨٤

فى دار الأرقم ، وتربية المحنة والبلاء ، والصبر الطويل الذى تحملته الجماعة الناشئة فى مكة ، فكان لتلك التربية الثمرة العظيمة ، ثمرة الايمان الكامل ، والثقة التامة بالله تبارك وتعالى ، والتوكل عليه ، وخلوص النفس من كل غثاء ، حتى وصلت الى الدرجة التى تقدر معها على أن يثبت الواحد منها لعشرة ، وكذلك كان ، فقد كلف الله سبحانه هذه الصفوة المختارة ، أن يثبت الواحد منها للعشرة ، يقول الله عز وجل : (ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) (١) .

وكان لها ذلك النصر والتمكين ، مع قلة عددها ، وضآلة عدتها ، وضخامة جيش عدوها ، وكمال استعدادهم المادى . وهو تمكين لم يسأت للجماعة وهى عاكفة على أوراد وأذكار ، فى المساجد والخلوات تنتظر الخوارق ، وانما شاء الله سبحانه ، أن يكون عن استحقاق ، وبالجهد والجهاد ، وتكاليف الجهاد ، مع الرجوع الى الله سبحانه ، والاعتماد عليه .

وقد تعرض القرآن الكريم لأمرين هامين فى غاية الأهمية ، تصويرا للمجتمع ، وتربية للنفوس ، وتصحيحا للسلوك :

أولهما : بيان أن النصر انما كان من عند الله سبحانه ، وهذا المعنى ورد فى عدد من الآيات فى سورة الأنفال ، مثل قوله تعالى : (وما النصر الا من عند الله) (٢) ، (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) (٣) .

---

(١) سورة الأنفال ٦٥ .
(٢) نفس السورة ١٠ .
(٣) نفس السورة ١٧ .

والتربية المستفادة من هذه الآيات ، هي اعلامهم بأن نصرهم لم يكن بعددهم القليل ، ولا بعدتهم الضعيفة ، وانما كان بكمال صلتهم بالله ، وثقتهم به . وهذا يجعلهم يصبرون عن نشوة النصر ، ويغالبون البطر والزهو والخيلاء ، ويلتزمون التواضع الدائم والشكر لله عز وجل ، وتقوى صلتهم بالله تعالى ، ويلجأون اليه وحده اذا نزل بهم كرب ، ولا يركنون الى أنفسهم في قليل ولا كثير .

وأما الأمر الثاني : فهو معالجة التصور الخاطيء ، الذي كان عند بعض المؤمنين ، الذين أرادوا من خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يكون للغنيمة فحسب ، فرد الله سبحانه عليهم ، بأن جماع الخير فيما يختاره الله سبحانه لعبده ، وان كان فيه عنت ومشقة على النفس ، في تحمله والقيام به ، لا فيما يختاره العبد لنفسه .

أما ما أراده الله سبحانه لهذه الجماعة ، فشيء آخر ، انه النصر للحق ، والهزيمة للباطل ، والتمكين لدينه وعباده في الأرض ، والخلود لهذه الجماعة والدعوة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وأن تكون هذه الغزوة مثلا في التاريخ ، تقرر دستور النصر والهزيمة ، وتكشف عن أسباب النصر والهزيمة ، وتبين سنة من سنن الله سبحانه الجارية في خلقه .

وهذا المعنى أيضا ورد في آيات من سورة الأنفال ، مثل قوله تعالى : (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون) (1) ، (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون) (2) وقد كان لنصر المؤمنين في هذه

---

(١) سورة الأنفال ٥
(٢) نفس السورة ٨

الغزوة أثر بالغ فى نفوس اليهود ، فلم يفتأوا بعدها يحرضون المشركين حتى بدأت غزوة "الأحزاب".

وأما ما حدث فى " أحد " فوسيلة أخرى من وسائل التربية والاعداد لهذه الجماعة ، لتؤدى الدور العظيم الشاق ، الذى ينوطه سبحانه بها .

وقد كانت التربية فى " أحد " بالبلاء العظيم ، بلاء الهزيمة والكرب والشدة ، لتلجأ النفوس الى الله سبحانه ، وتعرف حقيقة قوتها الذاتية ، وضعفها حين تنحرف أدنى انحراف عن منهج الله سبحانه ، وتظل مع ذلك مستعلية على الباطل بما عندها من الحق المجرد : (ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين)(١).

وتعرف مواضع نقصها وضعفها ، ومداخل شهواتها ، فتحاول اصلاح كل ذلك فى الجولة القادمة ، وتخرج من النصر والهزيمة ، بالزاد والرصيد الكامل لمستقبلها . وقد صور القرآن الكريم مواضع النقص عند الجماعة فى هذه المعركة ، فى آيات من سورة آل عمران ، مثل قوله تعالى : (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم(٢) ... الآية) .

ومن هذه التربية المتسلسلة ، نعرف أن التذكير بنعمة النصر فى " الأحزاب " ، هو تذكير كذلك بما سبقها من نعم أخرى ، أنعم الله سبحانه بها على هذه الجماعة ، وهو يربيها لتتسلم فى النهاية قيادة البشرية .

---

(١) سورة آل عمران ١٣٩ .
(٢) نفس السورة ١٥٢ .

والتذكير بهذه النعمة ، والأمر باستدامة ذكرها — ليكون سببا فى دوام الشكر عليها — يأتى فى هذه الفترة — فى غزوة " الأحزاب" — التى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، " الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم "(١) وقد صار الاسلام أكثر التفاتا الى الاصلاح والبناء الداخلى للمجتمع ، واقامة الأسس الجديدة التى جاء بها هذا الدين ، وهدم العادات التى كانت قائمة على تصور جاهلى ، وكل هذا يتطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين معه ، تضحيات وصبرا لتحمل ما سيواجهونه من ايذاء وصد عن الحق ، بأساليب ماكرة ، ~~فناسب ذلك أن يذكر الله سبحانه المؤمنين هنا بأن~~ ففى هذا التذكير اشارة الى أن ما سيواجهونه من أعدائهم فى الداخل ، وهم بصدد اقامة المجتمع على القواعد السليمة ، لن يكون أكثر ضررا ، وأشد خطورة من الموقف الذى وقفته الأحزاب بقواها وأحلافها ، لاستئصال هذا الدين ورسوله وأتباعه ، ومع ذلك فقد من الله تعالى بذلك النصر ، الذى كان خارجا عن الأسباب المادية ، والحيلة البشرية ، فالمسلمون لم يبذلوا من الأسباب سوى حفر الخندق ، وفى هذا النصر جبر لما انكسر من قلوب المؤمنين بسبب الهزيمة التى كانت نتيجة للمخالفة التى ارتكبها بعض جند المسلمين ، واذا كان الله سبحانه قد نصرهم فى هذه الغزوة بمعجزة من عنده ، فلا ينبغى التهيب أو التراجع عن حمل هذا الدين واعلانه للناس ، واقامة كل ما هو حق وخير وهدم كل ما هو باطل وشر ، مع التوكل على الله سبحانه ، الذى بيده النصر ، وكل ذلك من مقتضيات العهد والوفاء به .

---

(١) صحيح البخارى : كتاب المغازى ٥/١٤١ وأحمد ٤/٢٦٢ ، ٦/٣٩٤ .

(*) الامام أحمد ١٦٤ — ٢٤١ هـ هو أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الله الشيبانى الوائلى ، امام المذهب الحنبلى ، وأحد الأئمة الاربعة ، أصله من مرو ، ولد ببغداد ، من مصنفاته : " المسند " وله كتب فى " التاريخ " و " الناسخ والمنسوخ " و "الرد على من ادعى التناقض فى القرآن " .

وقبل أن ندخل فى الكلام التفصيلى عن هذه الآيات التى تشير الى "غزوة الأحزاب" يحسن بنا أن نشير الى تاريخ الغزوة، متى كان؟ والى سببها :

■ متى كانت غزوة الأحزاب ؟

جمهور أهل السير والمغازى أنها كانت فى سنة خمس(١) من الهجرة وخالف فى ذلك موسى ابن عقبة ، فقال : كانت فى شوال سنة أربع ، ورواه عنه البخارى ، وأيده بحديث ابن عمر رضى الله عنهما : " أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم عرضه يوم أحد ، وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ، وعرضه يوم الخندق ، وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه "(٢).

وقد سرد جماعة(٣) من أهل العلم حججا فى اثبات أنها كانت فى السنة الخامسة ، ونكتفى هنا بذكر كلام ابن حجر فى الفتح ، عند شرحه للحديث السابق ، يقول ابن حجر :

---

(١) قاله ابن اسحق : سيرة ابن هشام ٢١٤/٢ وابن سعد فى الطبقات ٦٧/٢ والطبرى فى تاريخه ٥٦٤/٢ والمقريزى فى امتاع الأسماع ٢١٦/١ وذهب اليه ابن حجر فى الفتح ٣٩٦/٨ وابن القيم فى الزاد ١٣٠/٢.

(٢) صحيح البخارى ١٣٧/٥.

(*) موسى ابن عقبة ... — ١٤١ هـ هو موسى بن عقبة بن أبى عياش الأسدى بالولاء ، أبو محمد ، مولى آل الزبير : عالم بالسيرة النبوية ، من ثقات رجال الحديث ، من أهل المدينة ، مولده ووفاته فيها ، له " كتاب المغازى ".

(*) ابن اسحق ... — ١٥١ هـ هو محمد بن اسحاق بن يسار المطلبى بالولاء المدنى : من أقدم مؤرخى العرب ، من أهل المدينة له " السيرة النبوية " رواها عنه ابن هشام و " كتاب الخلفاء " و " كتاب المبدأ " مات ببغداد ودفن بمقبرة الخيزران أم الرشيد .

(٣) راجع كلام المقريزى ، فى غزوة "بنى المصطلق" متى كانت؟ "امتاع الأسماع" المرجع السابق ، وانظر أيضا كلام ابن القيم فى "زاد المعاد" المرجع السابق .

" ومال المصنف (البخارى) الى قول موسى بن عقبة ، وقواه بمـــا أخرجه أول حديث الباب ، من قول ابن عمر : انه عرض يوم أحد ، وهو ابـن أربع عشرة سنة ، ويوم الخندق ، وهو ابن خمس عشرة ، فيكون بينهما سنـة واحدة ، وأحد كانت سنة ثلاث ، فيكون الخندق سنة أربع .

ولا حجة فيه اذا ثبت أنها كانت سنة خمس ، لاحتمال أن يكون ابـن عمر فى أحد كان فى أول ما طعن فى الرابعة عشر ، وكان فى الأحــزاب ، قد استكمل الخمس عشرة ، وبهذا أجاب البيهقى . وقد ذهب ابن اسحاق الى أنها كانت فى السنة الخامسة . ويؤيد قول ابن اسحاق[1] ، أن أبا سفيان قال للمسلمين — لما رجع من أحد — : موعدكم العام المقبل ببدر ، فخـرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم من السنة المقبلة الى بدر ، فتأخر مجىء أبـى سفيان تلك السنة للجدب الذى كان حينئذ ، وقال لقومه : انما يصلح الغزو فى سنة الخصب . فرجعوا بعد أن وصلوا الى عسفان أو دونها ، ذكر ذلـك ابن اسحاق وغيره من أهل المغازى . وقد بين البيهقى سبب هذا الاختلاف: وهو أن جماعة من السلف ، كانوا يعدون التاريخ من المحرم الذى وقع بعـد الهجرة ، ويلغون الأشهر التى قبل ذلك الى ربيع الأول ، وعلى ذلك جرى يعقوب بن سفيان فى تاريخه ، فذكر أن غزوة بدر الكبرى كانت فى السنة الأولى وأن غزوة أحد كانت فى الثانية ، وأن الخندق كانت فى الرابعة ، وهــذا[2]

---

(١) يريد بقول ابن اسحاق ، أنها كانت فى شوال سنة خمس .
(٢) فتح البارى ٨ /٣٩٦ .
(*) البيهقى ٣٨٤ — ٤٥٨ هـ هو أحمد بن الحسين بن على ، أبو بكـر : من أئمة الحديث ، ولد فى خسرو جرد (من قرى بيهق ، بنيسابـور) ومات بنيسابور ، ونقل جثمانه الى بلده ، صنف زهاء ألف جزء ، منها : "السنن الكبرى" و " السنن الصغرى " .

عمل صحيح على ذلك البناء ، لكنه بناء واه مخالف لما عليه الجمهور من جعل التاريخ من المحرم سنة الهجرة ، وعلى ذلك تكون بدر في الثانية، وأحد في الثالثة ، والخندق في الخامسة ، وهو المعتمد "(١)". انتهى .

سبب غزوة الأحزاب :

يذكر المؤرخون(٢) - في سبب "غزوة الأحزاب" - : أن نفرا من زعماء اليهود ، من بني النضير ، خرجوا حتى قدموا مكة ، فدعوا قريشا الى حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقالوا : سنكون معكم حتى نستأصله .

وقالوا لهم : انما أنتم عليه خير من دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) . ففيهم نزل قول الله تعالى(٣) : (ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين

---

(١) المرجع السابق . ومادام هذا الرأي لم يستند الى رواية تقاوم رواية البخاري صحة ، وانما حجته مجرد احتمالات ، فانه يترجح الأخذ برواية البخاري ورأيه ، حتى يثبت ما يرجح خلافه ، والله أعلم .

(*) يعقوب بن سفيان ... - ٢٧٧ هـ هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفارسي الفسوي ، أبو يوسف : من كبار حفاظ الحديث . من أهل "فسا" بايران . عاش بعيدا عن وطنه في طلب الحديث ، نحو ثلاثين سنة ، وروى عن أكثر من ألف شيخ . وتوفي بالبصرة له : "التاريخ الكبير" و "المشيخة" .

(٢) أنظر في ذلك : سيرة ابن هشام ٢١٤/٣-٢١٥ وطبقات ابن سعد ٦٥/٢-٦٦ وامتاع الأسماع : للمقريزي ٢١٦/١ - ٢١٧ وتاريخ الطبري : ٥٦٥/٢ - ٥٦٦ .

(٣) وذكر رواية سبب النزول الواحدي في "أسباب النزول" ص ٨٨ - ٨٩ .

آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا) (١) .

فاتفقوا مع قريش على حرب المسلمين . ثم خرج أولئك النفر من اليهود ، حتى جاءوا غطفان ، فدعوهم الى مثل ما دعوا قريشا اليه ، ولم يزالوا بهم حتى وافقوهم على ذلك . ثم اتوا ببنى فزارة وبنى مرة ، وتم لهم مع هؤلاء جميعا تواعد ، على الزمان والمكان لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

اجمال قصة "الاحزاب" :

ونعود الآن الى الكلام حول الآيات التى تشير الى الغزوة :

يقول الله تبارك وتعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا)) .

تفتتح الآية الكريمة بالنداء لعموم المؤمنين ، تذكيرا بهذه النعمة العظيمة وامتنانا بها على جميع المؤمنين ، لأنها لا تخص فئة منهم دون أخرى .

والنداء بصفة الايمان ، لأنها أحب صفة الى نفوسهم وأشرفها ، فهى تشعرهم بمحبة الله تعالى لهم ، وقربهم منه .

ونعمة الايمان التى منحهم الله اياها ، هى السبب فى النعمة الأخرى ، نعمة النصر على الأعداء ، فالصراع بينهم وبين أعدائهم انما كان للمباهة عليهم

---

(١) سورة النساء ٥١ ، ٥٢

(*) الواحدى ... ــ ٤٦٨ هـ هو على بن أحمد بن محمد بن على بن متوية ، أبو الحسن الواحدى : مفسر ، عالم بالأدب ، أصله من ساوة (بين الرى وهمذان) ، ومولده ووفاته بنيسابور ، له : "البسيط" و "الوسيط" و "الوجيز" كلها فى التفسير و "أسباب النزول" .

— ★ —

الايمان والكفر، والنصر انما كان بالايمان وللايمان ، وعداء هؤلاء الكفار ، وتحزبهم ومحاربتهم انما كان فى وجه الايمان .

وقد كانت نعمة النصر ، بمحض فضل الله وكرمه ورحمته ، فهى نعمة لا يقدر قدرها ، جاءت للمسلمين وجراحهم تقطر دما مما أصابهم فى "غزوة أحد" وقلوبهم تعتصر ألما مما نزل بهم فى تلك الغزوة ، فلما جاءت غزوة الأحزاب بما فيها من قوة الكفار المادية وغرورهم بنصر أحد وقد أحاطت هذه القوة الفاجرة بالمسلمين من كل جانب أراد الله تعالى أن يصور ذلك فى أبرع صورته ليكون النصر بعده ، فى أبرع مواقفه وأحسن مواقعه فقد كان المسلمون فى حالة يقف التعبير حائرا أمام تصويرها ، لولا أن ذلك التصوير ، جاء عن الله سبحانه فكان بأدق وصف وأبلغه ، اذ يقول الحق تبارك وتعالى : ((اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا [١٠، ١١])) .

والقصة فى السورة تأتى هكذا :

اجمال للغزوة أولا .

ثم وصف لحال المؤمنين ثانيا .

ثم كشف لحال أعداء داخل صفوف المؤمنين .

وتختم ببيان هزيمة الأحزاب ومن ظاهرهم من اليهود .

قوله سبحانه : ((اذكروا نعمة الله عليكم)) : النعمة هنا شاملة للنصر وأسبابه ، من الايمان والثبات ، والصبر ، واللجوء الى الله سبحانه .

((اذ جاءتكم جنود)) هم الأحزاب .

((فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها)) ، فالله عز وجل ينصر رسله

بما شاء ، وله جنود السموات والأرض . وقد ذكر سبحانه هنا الريح التي اشتدت على الأعداء ، حتى كفأت القدور ، وأطفأت النيران ، واقتلعت أوتاد الخيام .

وأما الجنود ، فقد أبهموا في هذه السورة . ولا يبعد أن تكون الملائكة منهم ، بالاضافة الى الرعب الذى قذفه الله سبحانه في قلوبهم ، مع مابلغهم من أن "قريظة" قد خذلتهم . فتنادوا بعد ذلك بالرحيل ، بعد أن نفد جهدهم ، وأعوزتهم الحيلة ، وتعذر البقاء أو المواجهة للمؤمنين .

وتذييل الآية بقوله عز وجل : ((وكان الله بما تعملون)) أى من ترتيب مبادىء الحرب ، ومن رجائه سبحانه وقوة اللجوء اليه ، والاستنصار به على الأعداء ، والصبر على الشدائد ((بصيرا)) أى مشاهدا لها ظاهرها وخافيها .

وهذه الغزوة التي قام بها حشد هائل من المشركين وحلفائهم ، غطفان ويهود ، كان ليهود "النضير" فيها دور كبير ، بل لقد كانوا هم الدافع الأكبر لها ، فقد انتدب عدد من أشرافهم ، كسلام بن أبى الحقيق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وغيرهم الى قريش ، يحرضونهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويعدونهم الوقوف الى جانبهم ، وحشدوا ما استطاعوا من العدة والعتاد والجنود (١) ، ليحقق اليهود بذلك القضاء التام على المؤمنين ، وبذلك يتم لهم غرضان مهمان في نفوسهم :

<u>أولهما خاص</u> : وهو أن تخلو لهم المدينة ، فيتم لهم الاستيلاء عليها ، لا ينازعهم فيها منازع .

---

(١) وقد سبقت الاشارة الى ذلك عند الكلام على سبب الغزوة .

وثانيهما عام : وهو القضاء على الاسلام ، ليشفى ما فى قلوبهم من الغيظ على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والاسلام والمسلمين ، ويبقى لهم بعد ذلك السلطان الدينى فى الجزيرة .

ومن أراد الوقوف على تفاصيل الغزوة ، فليرجع الى كتب السيرة ، والذي يعنينا منها هنا ، هو الوقوف عند التعبير القرآنى - قدر الامكان - ففيه غناء فى هذا المقام .

قوله عز وجل : ((اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم)) " اذ " فى قوله سبحانه (اذ جاؤكم) ظرف للنعمة الممتن بها على المؤمنين وفيه اشارة الى الحصار الذى ضربه الكفار على المؤمنين ، والاحاطة بهم من كل جانب ، ليتبين بذلك ، مقدار نعمة الله سبحانه على المؤمنين ، الذين لم يصبح لهم بعد هذا الحصار - وهم فى كل حال كذلك - حول ولا قوة الا بالله سبحانه . وهنا يدركون أن القوة الفاعلة فى النصر والخذلان ، ما هى الا قوة الله سبحانه ، فعندها يلتمس النصر ، وبها تتقى الهزيمة ، واليها يكون التوجه ، وعليها يكون التوكل ، بعد اتخاذ الأسباب اللازمة الممكنة ، ونفض الأيدى من العواقب ، وتعليقها بقدر الله سبحانه .

وهنا أيضا يخلص تصور الجماعة ، من التماس شئ الا من عند الله سبحانه ، وتتصل قلوبها مباشرة بالله عز وجل ، وتنفض أيديها من كل الأسباب الباطلة للنصرة والحماية والالتجاء .

وأما قوله عز وجل : ((واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ١٠ ، ١١)) .
فكلا الآيتين لتصوير الحال التى كان عليها المؤمنون ، حين طوقتهم الأحزاب ،

ونقضت قريظة العهد الذى كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآلــه وسلم ، وانضمت الى جيش العدو .

" فقد كانت " بنو قريظة " ـ وهم من اليهود ـ لهم حصن شرقــى المدينة ، ولهم عهد من النبى صلى الله عليه وآله وسلم وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب اليهم حيى بن أخطب النضرى ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد وما لأوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسـلم ، فعظم الخطب ، واشتد الأمر ، وضاق الحال "[1] ، فلم يكونوا يأمنون فى أيــة لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق ، وأن تميل عليهم اليهود ، فى معركة حاسمة ، ينوى فيها الأحزاب استئصال المسلمين .

وقوله تعالى : ((واذ زاغت الأبصار)) أى مالت عن سننها ، وانحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة .

وقوله عز وجل : ((وبلغت القلوب الحناجر)) مبالغة فى تصوير الحال التى وصل اليها المسلمون من الخوف الشديد ، والفزع العظيم .

وقوله عز وجل : ((وتظنون بالله الظنونا)) جمع الظن مع كونه مصـدرا للدلالة على اختلاف أنواعه . والمراد أن بعض الظنون التى حصلت من بعض المؤمنين ، لم تكن حقا ولا صوابا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٧٠ .

(*) ابن كثير ٧٠١ ـ ٧٧٤ هـ هو اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشى البصروى ثم الدمشقى ، أبو الفداء ، عماد الدين : حافظ مؤرخ فقيه . ولد فى قرية من أعمال بصرى الشام ، وتوفى بدمشق ، من كتبه " البداية والنهاية " و " شرح صحيح البخارى " و " طبقات الشافعية " و " تفسير القرآن الكريم " .

والمؤمنون المخاطبون بهذا الخطاب ، هم كل من ظهر منه الايمان ، سواء أكان مؤمنا ظاهرا وباطنا ، أم ظاهرا فحسب ، قوى الايمان أم ضعيفه؟ وهؤلاء منهم :

١ - الثبت القلوب والأقدام •

٢ - ومنهم ضعاف القلوب •

٣ - ومنهم المنافقون •

فأما الصنف الأول ، فقد يكون ظنهم ، أن هذا ابتلاء واختبار من الله سبحانه ، يرجون معه من الله الثبات ، ويخافون الزلل وضعف الاحتمال ، مع يقينهم بأن الله سبحانه لابد ناصرهم • وكيف لايكون حالهم ذلك ؟ وقد أنزل الله سبحانه اليهم - قبل ذلك - قوله عز وجل : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب)(١) •

واما الصنف الثاني والثالث ، وهم ضعاف القلوب والمنافقون ، فقد ظنوا ظنا لا يليق بالله عز وجل ، وهو ما حكاه الله عز وجل عنهم بقوله :

((واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا))(٢) • وهذا موقف من مواقف المنافقين التي كشفها الله سبحانه

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ •

(٢) كون الخطاب في قوله تعالى : " وتظنون بالله الظنونا " يشمل كل من ظهر منه الايمان ، هو رأى الزمخشري ، راجع الكشاف ٣/٢٥٣ •
أما الحسن : فروى عنه أن المخاطب ما بين مؤمن ومنافق • قال : ظنوا ظنونا مختلفة : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون • وظن المؤمنون أنهم يبتلون • انتهى من الكشاف وارتضى جماعة من المفسرين كلام الحسن ، والظاهر أن كلام الزمخشري أقرب الى السياق الذى ذكر الأصناف الثلاثة ،
(=)

فى عدة آيات ، سيأتى الكلام عنها ان شاء الله تعالى .

وقوله عز وجل : ((هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)) .

الابتلاء : الاختبار . وقد سبقت الاشارة الى سنة الله سبحانه ، فى شأن مثل هذا الاختبار للمؤمنين ، أعنى الاختبار بالشدة والكرب ، وما الحكمة منه ؟

ولا بأس أن نذكر هنا بعض الحكم المقصودة من هذا الابتلاء ، والتى جاء ذكرها فى القرآن الحكيم :

فمنها : تمحيص المؤمنين ، ومحق الكافرين .

والمحص : تخليص الشئ مما فيه من عيب . يقال : محصت الذهب ومحصته ، اذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث . والمراد به — فى حق المؤمنين — التزكية والتطهير.(١) والمحق : النقصان.(٢)

ومنها : كشف حقيقة المؤمن الصادق من غيره ، فيعلم الله سبحانه — وهو العليم بكل شئ — علم وقوع ، بعد علمه السابق بأن ذلك كائن — الصادق من الكاذب ، ويتميز المؤمن من غيره .

ومنها : قيام الحجة ، بكشف حقيقة كل ، لأن الله سبحانه وتعالى ، لا يجرى الثواب والعقاب ، بمجرد علمه السابق بما سيفعله العبد قبل أن ~~تنكشف الحقيقة ، بل يكشف حقيقة العبد بالابتلاء ، ثم يجازيه على حسبها~~

(=) لأن الآية (وتظنون بالله الظنونا) تحتمل فى ظاهرها شمول ضعفاء الايمان من الحدثاء الذين دخلوا فيه من قريب وهذا احتمال يفيده جو الآية وسياقها ، والله أعلم .

(*) الحسن البصرى (٢١ — ١١٠ هـ) هو الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد : تابعى ، كان امام أهل البصرة ، وحبر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة ، وشب فى كنف على بن أبى طالب وسكن البصرة وتوفى بها .

(١) مفردات الراغب ٤٦٤ بتصرف .

(٢) المرجع السابق .

تنكشف الحقيقة ،بل يكشف حقيقة العبد بالابتلاء ، ثم يجازيه على حسب موقفه ، وحينئذ يقع الثواب أو العقاب بالحق والعدل .

ومنها : أن يمنح الله سبحانه من يشاء من عباده الشهادة في سبيله ، فتلك مكرمة عظيمة ، يصطفى الله عز وجل لها من يعلمه أهلا لأن يكون مع النبيين والصديقين .

والى هذه الحكم الاشارة بقول الله عز وجل : (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)[1] ، وقوله سبحانه : (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب[2] ... الآية) ، وقوله عز وجل : (ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين[3]) .

والابتلاء الذى حصل للمؤمنين فى هذه الغزوة ، كان من أشد أنواعه ، فقد كان بالخوف ، والجوع ، والحصر ، والنزال ، والبرد الشديد ،والتخذيل والارجاف من قبل المنافقين ، ولذلك حصل للمؤمنين هول ، وكرب عظيمان ، صورتهما الآية فى قول الله سبحانه : ((وزلزلوا زلزالا شديدا)) : أى اضطربوا اضطرابا شديدا، لهول البلاء ، وشدة الفزع .

---

(١) سورة آل عمران ١٤٠ — ١٤٢ .
(٢) نفس السورة ١٧٩ .
(٣) سورة العنكبوت ١ — ٣ .

وهكذا تمضى الارادة الالهية فى بناء هذه الشخصية الاسلامية ، وقد أراد الله سبحانه لها ، أن تبلغ الكمال الانسانى ، والذروة من الخلق الرفيع .

والشخصية التى يراد لها ذلك ، لا تصاغ فى الدعة[1] والأمن ، والسلم والاسترخاء . وانما تصاغ فى معترك الحياة ، ومصطرع الأحداث ، لكى يتم لها النضج ، وتبنى الجماعة المسلمة من لبنات صلبة ، لتتميز عن سائر الجماعات بسماتها ، وسلوكها ، وهديها ، وسائر قيمها .

ولقد كانت هذه الأحداث بقسوتها ، تكشف عن الذهب الخالص ، والزبد الزائف ، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها .

ويتنزل القرآن ساعة الابتلاء أو بعده ، ليتحدث عن تلك الأحداث ، ويكشف أحوال النفوس والمشاعر والنوايا والضمائر ، ويبين مدى التأثر والاستجابة ، ويوقفهم على ما حدث من أخطاء ، كما يرفع الستار عن المنافقين وأمراض النفوس ، ويرتب على كل ذلك أحكاما ، ويضع منهجا ، ويرشد الى الطريق الأقوم ، الذى يسير فيه المؤمنون دائما ، فهو اذا يضع المعالم واضحة للمجتمع القائم ، وللمجتمعات المتتالية ، لتسير على هدى من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) الدعة : الخفض فى العيش والراحة . اللسان ٨/ ٣٨١ .

— ** —

■ **وسيلة النصر :**

لقد كانت الوسيلة التى التجأ اليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، فى غزوة بدر ، هى نفسها التى التجأوا اليها فى الخندق .

انها وسيلة التضرع الى الله عز وجل ، والاكثار من الابتهال عليه بالدعاء والاستغاثة ، بل لقد كان هو العمل المتكرر الدائم ، الذى ظل يفزع اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كلما لقى عدوا ، أو سار الى جهاد .

وهى الوسيلة التى تعلو فى تأثيرها على كل الأسباب المادية الأخرى .

وهى الوسيلة التى لا تصلح حال المسلمين الا اذا قامت على أساسها بعناية كاملة . وقد جاء فى الصحيحين صورة من صور هذا الالتجاء والضراعة الى الله تعالى فى هذه الغزوة ، وهو فزع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الى ربه سبحانه بالدعاء قائلا :

"اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم"(١) كما ظهرت قوة ايمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واعتمادهم على الله سبحانه وحده ، حينما شاور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فى أن يصالح قبيلة غطفان على ثلث ثمار المدينة كى ينصرفوا عن قتال المسلمين .

---

(١) البخارى : كتاب الجهاد ٤/١٤٢ ، ومسلم : كتاب الجهاد والسير ٣/١٣٦٣ .

" فقالا له يارسول الله ، أمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟ قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك الا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب (١) ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم الى أمر ما .

فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لانعبد الله ولا نعرفه ، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها ثمرة الا قرى (٢) أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله مالنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم الا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم (٣) " .

أما كيف انهزم المشركون على كثرتهم — بعد ثبات المؤمنين ، وصبرهم ، وصدق التجائهم الى الله تعالى — فقد وصف الله تعالى الكيفية فى كتابه المبين اذ قال : ((اذ أرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ... الآية)) (٤).

وقال : ((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ... الآية)) (٥).

وقال — فى شأن بنى قريظة : ((وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب ... الآية)) (٦) .

---

(١) المكالبة : المشارة ، وكذلك التكالب ، يقال : هم يتكالبون على كذا : أى يتواثبون عليه . اللسان ٧٢٤/١ .

(٢) قرى الضيف قرى وقراء : أضافه . واستقرانى واقترانى : طلب منى القرى . اللسان ١٧٩/١٥

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٣/٢ وتاريخ الطبرى ٥٧٣/٢ .

(٤) سورة الاحزاب ٩ .

(٥) نفس السورة ٢٥ .

(٦) نفس السورة ٢٦ .

ـ ٩ ـ

وهذا المعنى الذى يتكرر فى غزوات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ،
لا يعنى اغراء المسلمين بالمغامرة والجهاد دون استعداد ولا تأهـب ،
وانما هو لايضاح أن على المسلم أن يعلم أن فى مقدمة أسباب النصر المختلفة
صدق الالتجاء الى الله ، واخلاص العبودية له ، فلن تجدى وسائل القـوة
كلها اذا لم تتوفر هذه الوسيلة بعينها .

واذا تحققت فى أعمال المسلمين هذه الوسيلة ، فحدث عن معجـزات
النصر ولا حرج . والا فمن أين جاءت هذه الريح العاصفة ، تعصف بمعسكر
المشركين وحدهم ، دون أن يشعر بها المسلمون وهم الى جانبهم ؟

... ...

البحث الثامن

تصوير القرآن الكريم لموقف المنافقين فى الأحزاب

المناسبة :

لما كانت غزوة " الأحزاب" من أهم الغزوات فى تاريخ الاســـــلام ، بسبب كثافة الجيش الذى تآمر على أن ينقض على الاسلام ، وكان للمنافقين دور كبير ضمن هذا التآمر ، فان السورة لم تهمل جانبهم ، بل تعرضـــت للحديث عنهم ، وعن دورهم فى المعركة ، وعن صفات هى من ألصق صفـــات المنافقين ، بل هى طابعهم وديدنهم ، لتفضح بذلك هذه الفئة ، وتكشف الستار عن حقيقتها ، وليكون فى ذلك تحذير للمؤمنين من هذه الصفـــــات الخسيسة ، ومن المتصفين بها .

وقبل البدء فى تناول هذه الآيات ، نذكر لمحة يسيرة عن هذه الفئة متى ، وكيف ولماذا ظهرت ؟

فأما زمن ظهورها ، فقد ظهرت فى المدينة (١) دون مكة ، ذلك أن المسلمين فى مكة لم يكن لهم من الشوكة والقوة والسلطان ، ما يرهب العدو ، حتى يحمله على التزلف والتملق فى الظاهر ، وابطان العداء ، ومحاولة الكيد فى الخفاء كما هو شأن المنافقين ، بل كان أهل مكة يظهرون ما يبطنون من الكراهيـــة للمسلمين ، فحاربوهم وآذوهم جهارا بشتى الوسائل دون تحرز أو تحفظ .

أما فى المدينة فقد كان الأمر يختلف اختلافا بينا ، ذلك أنه لم يهاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى دخل الاسلام كل بيت مـــن

---

(١) ذكر المكان فيه اشارة الى الزمن أيضا ، وهو كون ذلك بعد الهجرة لاقبلها .

بيوت المدينة على وجه التقريب • وارتبطت الأغلبية من الأوس والخزرج بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم • بمواثيق الدفاع والنصرة • وحسن اسلامهم • وصار الشعار الغالب عليهم " الأنصار " لما يرون للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الحق عليهم بحكم رسالته الالهية • فهو رسولهم وقائدهم الواجب الطاعة • ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع • فكبر ذلك على اليهود وتحرك فى قلوبهم الحسد للنبى صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين والاسلام • وأوحوا الى أوليائهم ممن يعلمون بقاءهم على الكفر صورا من هذا الكيد اليهودى • وتواطأوا معهم على أن يداخلوا المسلمين فى مجتمعهم • ويتعرفوا على أحوالهم وأسرارهم • ثم ينقلوها الى هؤلاء اليهود • ليتم لهم المكر بالمسلمين • وما يمكرون الا بأنفسهم •

وفى هذه الحال التى قويت فيها شوكة المسلمين الى هذا الحد • ليس من السهل على المنافقين • أن يقفوا من المسلمين موقف العداء السافر • بل لقد كان كل ذلك مانعا لهذه الفرقة — التى ظلت تغلبها نزعة الشرك • ويتحكم فيها مرض القلب والمكابرة والحقد • حتى حملها على مناوأة النبى صلى الله عليه وآله وسلم — من أظهار عدائها علنا • ولم يبق أمامها الا التظاهر بالاسلام • والقيام بأركانه الظاهرة • مع جعل كيدهم ومكرهم ودسهم ومؤامراتهم • محجوبة بستار الخديعة والتمويه •

وبهذا تتضح الكيفية التى ظهرت فيها صورة هذه الفرقة من أعداء الاسلام •

وأما سبب ظهور المنافقين • واصرارهم على الكفر ومحاربة الاسلام ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم • فلعل من أبرز تلك الأسباب : أن قدوم الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم ، كان فيه حد لنفوذ زعمائهم وسلطانهم ، كما ورد ما يدل على ذلك من كلام سعد بن عبادة وأسيد بن حضير رضى الله عنهما ، فى قصتين لعبد الله بن أبىّ :

أما سعد فقال — لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما شكى السى سعد ايذاء ابن أبىّ له — : اعف عنه يارسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذى أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاكه شرق بذلك[1] ، فذلك فعل به ما رأيت "[2].

وأما أسيد بن حضير رضى الله عنه ، فقال — لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — قريبا من قول سعد ، عند قفوله[3] من غزوة بنى المصطلق ، لما شكى اليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مقالة ابن أبىّ : " أما والله لئن رجعنا الى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل "[4].

---

(١) الشرق : الشجا والغصة ، والشرق بالماء والريق ونحوهما : كالغصص بالطعام ... وفى حديث أبىّ : لقد اصطلح أهل هذه البلدة على أن يعصّبوه ، فشرق بذلك : أى غص به ، وهو مجاز فيما ناله من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحل به حتى كأنه شئ لم يقدر على اساغته وابتلاعه فغص به . اللسان ١٠/١٧٣.

(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير ٤/٤٩ — ٥٠ ومسلم : كتاب الجهاد: ٣/١٤٢٣.

(٣) القفول : الرجوع من السفر . اللسان ١١/٥٦٠ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٩١ — ٢٩٢ وامتاع الأسماع للمقريزى ١/٢٠٢.

(*) المقريزى ٧٦٦ — ٨٤٥ هـ هو أحمد بن على بن عبد القادر ، أبو العباس الحسينى العبيدى ، تقى الدين المقريزى : مؤرخ الديار المصرية ، أصله من بعلبك . ولد ونشأ ومات فى القاهرة . من مؤلفاته : " كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " و " امتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع ".

ولما كان هذا الغيظ والحقد قد حملهم على محاربة الاسلام والكيد له في الخفاء ، فان خطواتهم الماكرة في حرب الاسلام ، كانت لا تخفى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أصحابه رضوان الله عليهم ، كما كان يزيد المنافقين فضيحة ومقتا بعض المواقف العلنية ، التي كانوا يقفونها من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وحسبك بالقرآن الكريم كاشفا وفاضحا لنواياهم ، ودامغا لهم برفع الستار عن شرهم وخبثهم وكيدهم ، ومحذرا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين منهم في كل مناسبة .

ولم تكن مواقف المنافقين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالهينة ، فقد كانت بالغة الأثر . والمعركة التي ظل الاسلام يصارع فيها المنافقين ، وهو يتلقى مكايدهم المتتابعة ، من داخل صفوفهم ، لا تقل أهمية عن مواقف المشركين التي وقفوها من الاسلام في مطلع أيامه ، وهو في مكة ينمو ويترعرع في قلوب القلة السابقة اليه .

وكان مصدر هذه النكاية منهم ، أنهم أبناء عومة للأنصار ، نسبوا اليهم وليسوا منهم ، بل كان فيهم من كان من رؤسائهم ، كعبد الله بن أبيّ وأبي عامر الفاسق ، ابطنوا الكفر ، وأضمروا العداء ، وأعلنوا الاسلام وتظاهروا بالمحبة الصافية ، وانتحلوا الود الخالص ، وان قلوبهم لتنطوي على المرض والحقد ، والغدر والمكر ، زعموا أنهم مصلحون ، وماهم الا أشرار أخساء ، قلوبهم دائما مع الكفار : (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون)(١) .

---

(١) سورة البقرة ١٤ .

لم يقولوا كلمة الاسلام عن صدق فينتظموا في عقد الأنصار ، ولم يعلنوا الكفر واضحا فيجرى عليهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحكام الكفار . ولكنهم — كما أخبر عنهم القرآن الكريم — : (مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء)(١) وكما أخبرت عنهم السنة المطهرة : " مثل المنافق كمثل الشاة العائرة(٢) بين الغنمين تعير الى هذه مرة والى هذه مرة "(٣) .

ولهذا كانوا أشد ضررا ، وأبلغ في الأذى أثرا ، اذ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ماكان في استطاعته الا أن يكتفي بظاهرهم ، ويكل الى الله عز وجل سرائرهم .

غير أن كل محاولاتهم — بحمد الله — باءت بالفشل ، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، كانت قوته تزداد ، ومركزه يتوطد ، ودائرة الاسلام تتسع شيئا فشيئا ، حتى صار صاحب سلطان ظاهر ، وأمر نافذ ، وجانب عزيز مرهوب ، وكان المنافقون يسيرون الى ضعف ، وضآلة عدد ، وخيبة أمل ، ولم يقووا على الاستمرار والثبات في محاربة الاسلام والكيد له ، الا بسبب وقوف اليهود الى جانبهم ، ولذلك كانت نهاية المنافقين حين انتهى اليهود .

ولابد لنا هنا من ذكر لمحة ، عن مدى ما وصل اليه تعاون اليهود مع المنافقين ، وتكاتفهم جنبا الى جنب ، في سبيل اقامة جبهة موحدة ضد

---

(١) سورة النساء ١٤٣ .

(٢) قال في اللسان — في تفسير العائرة في الحديث المذكور — : أي المترددة بين قطيعين ، لاتدري أيهما تتبع . ٦٢٢/٤ فمعنى تعير — على هذا — تتردد .

(٣) رواه مسلم : كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٢١٤٦/٤ .

الاسلام ، مما قد يحملنا على القول : بأن اليهود ربما كانوا أهم عامل في استمرار هذه الفئة (المنافقين) بل في وجودها :

١ - أخرج عبد الرزاق عن معمر ، والطبري من طريق سعيد ، كلاهما عن قتادة ، قال : أرسل عبد الله ابن أبيّ الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما دخل عليه قال : "أهلكك حب يهود" . فقال : يارسول الله انما أرسلت اليك لتستغفر لي ، ولم أرسل اليك لتوبخني . ثم سأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه . فأجابه"(١) .

وروى أبو داود وأحمد عن أسامة بن زيد : "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عاد عبد الله ابن أبيّ عند مرضه ، فقال له : "قد كنت أنهاك عن حب يهود" (٢) ... الحديث .

٢ - روى الواحدي في أسباب النزول عن عطية العوفي ، في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ... الى آخر الآيتين)(٣) ، قال : جاء عبادة بن الصامت فقال : يارسول الله ان لي موالي من اليهود ، كثير عددهم ، حاضر نصرهم ، واني أبرأ الى الله ورسوله من ولاية اليهود ، وآوي الى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي : اني رجل أخاف الدوائر ، ولا أبرأ من ولاية اليهود . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "يا أبا الحباب

---

(١) رواه ابن حجر في الفتح ٩/ ٤٠٣ وقال : وهذا مرسل مع ثقة رجاله .
(*) عبد الرزاق ١٢٦ - ٢١١ هـ هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري ، مولاهم ، أبو بكر الصنعاني : من حفاظ الحديث الثقات ، من أهل صنعاء ، له "الجامع الكبير" في الحديث وكتاب في "تفسير القرآن" .
(٢) مسند أحمد ٥/ ٢٠١ وسنن أبي داود ٣/ ١٨٤ ورجال سند الامام أحمد ثقات كما في التقريب عدا محمد بن اسحق ، قال عنه ابن حجر في التقريب صدوق يدلس . ورمي بالتشيع والقدر ٢/ ١٤٤ .
(٣) سورة المائدة ٥١ ، ٥٢ .

(يعنى عبد الله بن أبىّ) " ما تجلب به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه " . فقال : قد قبلت . فأنزل الله تعالى فيهما : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) الى قوله : (فترى الذين فى قلوبهم مرض) يعنى عبد الله بن أبىّ ومن معه (يسارعون فيهم) فى ولايتهم (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ... الآية)[1] .

قال الشوكانى فى فتح القدير عند تفسير الآية المذكورة — : وقد أخرج ابن اسحاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر : (وساق الرواية قريبا من رواية الواحدى المذكورة)[2] .

ويروى ابن اسحق — كما فى سيرة ابن هشام — هذه الحادثة على أنها وقعت فى غزوة " بنى قينقاع "[3] .

وفى حادثة " بنى قينقاع " أيضا ، ما يؤكد الولاء الذى كان بين ابن أبىّ واليهود ، فقد شفع لهم عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم اثر الحصار ، الذى ضربه عليهم مدة خمس عشرة ليلة ، فوهبهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لابن أبىّ ، وأمرهم أن يخرجوا من

---

(١) أسباب النزول : الواحدى ١١٣ وفى سنده عطية العوفى ، قال عنه ابن حجر فى التقريب : صدوق يخطىء كثيرا ، كان شيعيا مدلسا ٢٤/٢ .

(٢) ٣/٢٥٩ . ~~٥٣/٢~~

(٣) سيرة ابن هشام ٤٩/٢ .

المدينة ولا يجاوروه بها.[1]

وهذه الحادثة ، تدل على ماكان بين اليهود من جهة ، والأوس والخزرج من جهة أخرى ، من عهود ومواثيق ، حملهم عليها الجوار الذى كان بينهم ، واستمر المنافقون فى التمسك بها ، بعد أن نزل القرآن الكريم ينهى عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، وليس ذلك رغبة من المنافقين فى الوفاء بالعهد ، ولكنها الرغبة فى التكاتف مع اليهود ، لمحاربة الاسلام ونبيه صلى الله عليه وآله وسلم.

أما المؤمنون فتبرءوا منهم ، كما أشارت الى ذلك القصة السالفة الذكر ، فى شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبىّ مع حلفائهما من اليهود ، وكذلك موقف سعد بن معاذ من "بنى قريظة" حينما حكمه فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانوا موالى الأوس ، وكان الأوس يرجون منه أن يرفق بهم فى حكمه ، بسبب الولاية التى بينهما ، ولذلك قالوا له : يا أبا عمرو أحسن فى مواليك ، ولكنه لم تأخذه فيهم رأفة أو رحمة ، أو تشده عاطفة الولاء الذى كان بينهما نحوهم حتى يعدل عن العدل ، بل قال : "لقد أنى[2] لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم" وحكم فيهم بما هو معلوم ، من قتل الرجاله

---

(١) زاد المعاد : ابن القيم ٧٩/٢ بتصرف. قال المقريزى فى امتاع الأسماع ٥/١. ا- وابن سعد - فى الطبقات ١٩/٢ ا- : وهم حلفاء لعبد الله ابن أبى بن سلول ". وأشار ابن جرير أيضا الى القصة فى ٥٢/٢١ امن تفسيره.

(*) ابن القيم ٦٩١- ٧٥١ هـ هو محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى ثم الدمشقى. أبو عبد الله شمس الدين. من أركان الاصلاح الاسلامى ، وأحد كبار العلماء ، مولده ووفاته فى دمشق : ألف تصانيف كثيرة ، منها : "أعلام الموقعين" و "الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية" و "شفاء العليل" و "مفتاح دار السعادة" و "زاد المعاد".

(٢) أنى : حان. اللسان ٤٨/١٤.

وسبى النساء والصبيان ، وقسمة الأموال .(١) وأثلج بذلك صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٣ - جاء فى قصة بنى النضير" - لما حاصرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد تآمرهم على قتله - : أن عبد الله بن أبىّ ، طلب منهم عدم الاستسلام للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وأغراهم بأنه سيمدهم بألفى مقاتل ، ثم خذلهم ، كما خذلتهم "غطفان" ، و "بنو قريظة" ، فلم يقف معهم أحد ، حتى نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ونزل فى ذلك قول الله عز وجل (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون .. الآيات) .(٢و٣) وهناك آيات أخرى من كتاب الله الحكيم ، دلت على مدى ما وصلت اليه المودة بين المنافقين واليهود ، نذكر منها ما يلى :

أ - قوله تعالى : (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون) .(٤)

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ٢/٢٣٩ ومسند الامام أحمد ٦/١٤١ - ١٤٢ وابن جرير ٢١/١٥٢ - ١٥٣ .
(٢) سورة الحشر ١١ - ١٧ .
(٣) أنظر سيرة بن هشام ٢/١٩١ - ١٩٤ وطبقات ابن سعد ٢/٤٠ وزاد المعاد ٢/٨٠ .
(*) ابن جرير ٢٢٤ - ٣١٠ هـ هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ، أبو جعفر ، المؤرخ المفسر الامام . ولد فى آمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفى بها . من مصنفاته : "جامع البيان فى تفسير القرآن" و "تاريخ الأمم والملوك" و "كتاب القراءات" و "تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين" .
(٤) سورة البقرة ١٤ .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما - فى تفسير الشياطين - : " هم أصحابهم (يعنى أصحاب المنافقين) من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب ، وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم"(١) وبما أن هذه الآية الكريمة ، من أوائل ما نزل بالمدينة ، فان ذلك يدل على ما كان يضمره ، اليهود منذ وقت مبكر من الكيد للاسلام ، وعلى اهتمامهم بتغذية جبهة النفاق وتقويتها ، وعلى التواثق الذى كان بين الفئتين منذ وقت مبكر ، على حرب الاسلام بغيا وحسدا .

ب - قوله تعالى : (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون ان أوتيتم هذا فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا ... الآية)(٢) .

وفى هذه الآية الاشارة الى اشتراك اليهود والمنافقين فى المسارعة الى كل ما هو كفر ، أى كل ما هو حرب وكيد للاسلام ، فهم يتنقلون بين فنون الفتنة والكفر ، لمحاربة الاسلام ، يتبعون الكذب ويستجيبون له (سماعون للكذب) . كما يستجيبون لقوم آخرين لا يحضرون مجلسك أنفة واستكبارا ، وهم من أحبار يهود ورؤوس الشرك (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أو يستمعون الى

---

(١) ابن كثير ١/٥١ وتفسير الألوسى ١/١٥٧ .

(٢) سورة المائدة ٤١

القرآن فى مجلسك من أجل قوم آخرين ، من شأنهم تحريف الكلم عن مواضعه ، أى تحريف القرآن الذى ينقل اليهم ، فيتأولونه على غير تأويله ، ويبدلونه من بعد ما عقلوه ، (يقولون ان أوتيتم هذا) المحرف (فخذوه وان لم تؤتوه فاحذروا) [1] .

فقد التقت آراء اليهود والمنافقين والمشركين على أن يسيروا فى خطة واحدة ، ويتعاونوا على الاثم والعدوان .

جـ ـ قوله تعالى : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا) [2] .

اتفق المفسرون على أن المراد بالذين يتخذون : المنافقين . وبالكافرين : اليهود [3] . فالمنافقون قد استبدلوا بولاية المؤمنين ولاية اليهود وارتضوها ، وكيف لا يرتضون ولايتهم وهم اخوانهم فى عقيدتهم وغايتهم ، من حيث الكفر والضلال والافساد فى الأرض ، وقد حكم الله تعالى بأخوتهم فى قوله سبحانه : (ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ... الآية) [4] .

د ـ قوله تعالى : (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا

---

(١) هذا خلاصة ما قاله بعض المفسرين فى هذه الآية .
(٢) سورة النساء ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٣) نقله الامام الرازى فى تفسيره ١١/ ٨٠ ـ ٨١ .
(٤) سورة الحشر ١١ وقد تقدمت هذه الآية فى بيان نصرة المنافقين لليهود .

للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم اسرارهم)[1] .

فالذين ارتدوا : هم المنافقون - والذين كرهوا ما نزل الله : اليهود[2] .

وفى هذه الآية ، نرى أن المنافقين ، يعدون اليهود بالطاعة ، مما يدل على مدى انصياع المنافقين وراء اليهود ، وتنفيذ مكائدهم ، وتوجيهاتهم فى حرب الاسلام .

وبعد . فهذه لمحة ، أحببت أن أقدمها بين يدى الحديث عن المنافقين ، من خلال الآيات الواردة فى سورة الأحزاب ، وبعدها نستعين الله عز وجل فى فهم الآيات المتعلقة بهم فنقول :

يقول الله عز وجل : ((واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ١٢/)) .

فى مثل هذا الموقف الهائل ، تتكشف حقيقة المنافقين . وكل عقيدة صحيحة أو زائفة ، لابد لها أن تتكشف . فالمنافقون قد ادعوا الايمان ، والدعوى لابد لها من برهان يصدقها . والايمان حقيقة متى استقرت فى القلب ظهرت دلالتها وآثارها فى حياة الانسان ، وأعماله وواقعه . ومنهج الاسلام فى التربية ، يحول العقيدة المستقرة فى الباطن الى سلوك ظاهر ، حتى يصبح هذا السلوك عادة ثابتة يمارسها العبد دون تكلف أو تصنع .

---

(١) سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) جزم به أبو السعود ٥ /١٤٨ - ١٤٩ ، والآلوسى ٢٦ / ٧٤ - ٧٥ ، وعزاه الشوكانى للضحاك والسدى وارتضاه ، وقواه بالاستدلال بآية الحشر المتقدمة .

والمنافقون حين ادعوا الايمان والطاعة (يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا)[1] انما يدعون ذلك بأفواههم دعوى لا حقيقة لها في قلوبهم ، ولذلك نفى الله سبحانه عنهم ، ما ادعوه لأنفسهم بقوله عز وجل : (وما أولئك بالمؤمنين)[2] .

ولأن أعمالهم التي يمارسونها تتصادم مع هذه الدعوى ، فهاهم في ميدان الجهاد ، لا يطيقون الثبات والصبر على البلاء ، فانه لا ايمان يحملهم على الصبر والاحتساب لوجه الله عز وجل ، والتوكل عليه . بل يسخرون من وعد الله سبحانه بالنصر ، فيقولون ((ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)) : أي الا وعد غرور ، وهو الوعد الباطل الذي لا حقيقة له .

وفي هذه الآية يقرن الله عز وجل مرضى القلوب بالمنافقين ، كما قرنهم بهم في موضعين آخرين من كتابه العزيز[3] ، ونحن نستشف من هذا الاقتران ، مقدار ما وصل اليه هؤلاء من ضعف في ايمانهم ، فانهم صاروا بحيث يشاركون المنافقين في بعض أعمالهم الخسيسة ، التي لا يكون القيام بها الا من شأن المنافقين فاستحقوا أن يقرنوا بهم ، فقد وصل بهم هذا الضعف الى أن هان عليهم أمر الدين ، وصاروا أقرب ما يكون الى تتبع

---

(١) سورة النور ٤٧ .
(٢) نفس السورة ٤٧ .
(٣) أحدهما : في سورة الاحزاب أيضا ، قوله تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) ٦٠ .
والثاني : في سورة الأنفال ، قوله عز وجل : (اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) ٤٩ .

المصالح العاجلة وايثارها ، والرغبة بأنفسهم عما يحسبونه مخاطر ومجازفات ، ويأخذهم شيء من الشك والتردد في طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم طاعة تامة ، ويخدعون أحيانا بمكائد المنافقين ، فينساقون وراءهم ، حتى يقعوا في شباكهم .

وكما اتضح أن مرضى القلوب حين يقرنون بالمنافقين ، يراد بهم ضعاف الايمان — كما ورد في المواضع الثلاثة من كتاب الله تعالى ، المشار اليها فيما سبق — فاننا بالتأمل أيضا نرى أنه متى انفرد ذكر مرضى القلوب ، دون أن يقرنوا بالمنافقين ، فانه يراد بهم المنافقون أنفسهم ، وقد ورد ذلك في تسعة مواضع من كتاب الله العزيز (1) .

---

(١) وهي كما يلي :

١) في سورة البقرة : (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم ...) الآية ١٠ .

٢) في سورة المائدة : (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ...) الآية ٥٢ .

٣) في سورة التوبة : (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ...) الآية ١٢٥ .

٤) في سورة الحج : (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ...) الآية ٥٣ .

٥) في سورة النور : (أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ...) الآية ٥٠ .

٦) في سورة الأحزاب : (ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ...) الآية ٣٢ .

٧) في سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ...) الآية ٢٠ .

٨) في سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) : (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) الآية ٢٩ .

٩) في سورة المدثر : (وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ...) الآية ٣١ .

فقول الله سبحانه :

((واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)) .

" المرض فى القلب ، كالمرض فى الجسد . فكما أن هذا هو احالة عن الصحة والاعتدال ، من غير موت ، فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال من غير أن يموت القلب ، سواء فسد احساس القلب وادراكه ، أو فسد عمله وحركته ، وذلك من ضعف الايمان ، اما بضعف علم القلب واعتقاده . واما بضعف عمله وحركته ، فيدخل فيه من ضعف تصديقه ، ومن غلب عليه الجبن والفزع (وأكثر مايكون ذلك فى حدثاء الاسلام) فان أدواء القلب من الشهوة المحرمة ، والجبن ، والبخل ، وغير ذلك كلها أمراض . وكذلك الجهل والشكوك والشبهات التى فيه. "[1] .

وهذا الذى قاله المنافقون ومرضى القلوب ، هو ظن السوء الذى ظنوه بالله عز وجل ، وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم عند الزلزال الشديد ، والهول العظيم ، والخطر المحدق ، ظنوا أن الله سبحانه لن ينصر عباده المؤمنين . وقد تكرر من المنافقين هذا الظن السيء فى غير موضع كما يذكر ذلك عنهم القرآن الكريم ، ففى " أحد " — مثلا — يقول الله عز وجل — واصفا لهم — : (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن

---

(١) الفتاوى : ابن تيمية ٢٨/ ٤٣٣ .

(*) ابن تيمية ٦٦١ــ٧٢٨ هـ هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم الخضر التميرى الحرانى الدمشقى الحنبلى أبو العباس ، تقى الدين ابن تيمية : الامام ، شيخ الاسلام . ولد فى حران ومات معتقلا بقلعة دمشق . كان كثير البحث فى فنون الحكمة داعية اصلاح فى الدين ، آية فى التفسير والأصول .
من تصانيفه : " الجوامع " فى السياسة الالهية والآيات النبوية ، و " الايمان " .

الجاهلية ... الآية)[1] فقد كانوا لا يهمهم الرسول ، ولا المؤمنون ، ولا الاسلام ، وانما يهمهم النجاة بأنفسهم ، ذلك أنهم ظنوا أن الله سبحانه لن ينصر رسوله ، وأن الكافرين سيظهرون عليه .

وفى سورة الفتح ، يقول الله تعالى عنهم : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ... الآية)[2]

فقد كانوا يظنون أن الدائرة على المؤمنين ، وأنهم لن يرجعوا الى أهليهم ، ولذلك جعل الله سبحانه الدائرة على من يظن هذا الظن ، فقال : (عليهم دائرة السوء)[3] وأوضح الله عز وجل ذلك فى آية أخرى من السورة نفسها فقال : ـ مخاطبا المخلفين[4] من الأعراب ـ : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)[5] .

وهذه المقالة التى صدرت من المنافقين فى الأحزاب ، انما جاءت فى جو أحاط فيه المشركون بالمسلمين ، وانتقضت بنو قريظة من الداخل فتكشفت خبيئة المنافقين ، حين بلغت الشدة بالمسلمين منتهاها ، واطمأن المنافقون حينئذ الى هذا الجو ، ليخرجوا من ألسنتهم ما تنطوى عليه نفوسهم ، بعد ما وثقوا من أنه لن يوجه اليهم على تلك المقالة لوم ،

---

(١) سورة آل عمران ١٥٤.
(٢) سورة الفتح آية ٦ .
(٣) نفس السورة والآية .
(٤) أى الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى عمرة الحديبية . ابن كثير ٤/١٨٩.
(٥) سورة الفتح آية ١٢.

أو يؤاخذوا عليها ، وهم بذلك أيضا يجدون الفرصة سانحة للتوهين والتخذيل ، ولذلك يأتي بعد هذه الآية مباشرة ، بيان لصورة أخرى من صور التخذيل والتوهين ، والتثبيط والارجاف ، وذلك فى قوله تعالى :

((واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم (1) فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا)) ١٣/

ففى هذه الآية بيان لما كان يقوم به المنافقون ، من التحريض للمسلمين على مغادرة مكان المواجهة والمرابطة ، ومحاولة ادخال الرعب فى النفوس ، وأن وقوفهم أمام جيش هائل لا مبرر له ولا مسوغ ، فانهم بذلك يعرضون أنفسهم للذل والهوان ، وأن مقامهم الذى ينبغى أن يقيموا فيه ، هو بلدهم " يثرب " .

ويختار المنافقون هذا الاسم " يثرب " لما فيه من اثارة العاطفة نحو بلدهم ، الذين هم أبناؤه الأصليون ، والذى يتحتم عليهم بحكم انتسابهم اليه ، حمايته والدفاع عنه ، أما الدفاع عن غيره فانما هو تعريض بالنفس والمال للمخاطر والمخاوف ، دون فائدة ولا جدوى - حسب زعمهم - .

ثم يباشرون انتحال الأعذار ، التى تسوغ تخلصهم من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى يتمكنوا من الفرار من ميدان المعركة ، فيختلقون فرية ، يجدون فيها مسوغا للرجوع الى المدينة ، انها الحاجة الى حماية البيوت ، التى تضم النساء والصبيان . واذا ما تقدموا بهذا العذر ، ربما يحركون به

---

(١) قال فى اللسان : وقوله تعالى : (لامقام لكم) : أى لا موضع لكم ، وقرئ لا مقام لكم ، بالضم ، : أى لا اقامة لكم . ٤٩٨/١٢ .

عواطف الآخرين ، الذين يرغبون فى الثبات والصبر مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يحركون عواطفهم نحو النساء والذرية ، ليتوجه همهم الى خارج المعركة ، الى البيوت ، وبذلك يحصل الاهتزاز والخلخلة داخل الصف : ((ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة)) يتعللون بالبيوت ، وأنها مكشوفة للعدو ، ليس بينها وبينه حائل ولا مانع يمنعها منهم ، وانهم لا يأمنون عليها أن يقتحمها العدو .

والقرآن فى هذا الموقف ، لم يتركهم دون أن يكشف ما تنطوى عليه نفوسهم ، ويرفع الستار عن السبب الحقيقى للرغبة فى الرجوع الى المدينة ، فيقول الله عز وجل : ((وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا)) فهم فى هذه الحال ، لا يهمهم أمر البيوت ، ولا يخافون العدو أن يقتحمها ، ولكنها الرغبة فى الفرار ، وسيطرة الخوف على النفوس ، وهى نتيجة لابد منها ، لمن فقد الثقة بالله عز وجل ، وارتاب فى صدق وعده الذى لا يتخلف ، وسيطر النفاق على قلبه ، فالبيوت وما فى البيوت ، لا تحتاج منهم الى حماية ولا حفظ ولا دفاع ، فقد تكفل الله بحفظها ، ولن يمسها العدو بسوء ، ولا موجب للرجوع سوى الفرار من العدو ، وكراهية البقاء مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

والفرار أو التخلف عن الجهاد ، الذى يلوذ به المنافقون ، وكذا الهلع والفزع الذى يصيبهم عند لقاء العدو ، نتيجة للجبن ، الذى هو من سماتهم . وما أبلغ تصوير هذه الصفة فى قوله تعالى : (ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات

أو مدخلا لولوا اليه وهم يجمحون)[1] .

وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين ، لفتــة عجيبة للمؤمنين ، اذ فيها التنبيه الى أن الفرق ليس من شأن المؤمنين ، بل هو من شأن المنافقين ، فكما أن فى ذلك تحذيرا للمؤمنين أن يخافوا غير الله تعالى ، أو يسيطر عليهم الخوف من جهة العدو ، فان فيه أيضا تكذيبا للمنافقين ، الذين يدعون ، بل يحلفون بالله ، انهم من المؤمنين . ومنى التكذيب لهذه الدعوى ، على ما اتصفوا به من الخوف والفزع ، ثم أردف ذلك ، بالتصوير لحالهم عند لقــاء العدو : (لو يجدون ملجأ) يلجأون اليه من المعاقل والحصــون ، التى يفر اليها من يترك الجهاد ، (أو مغارات) يغورون فيها ، ويستــترون بها (أو مدخلا) أى مكانا يدخلون اليه بكلفة ومشقة (لولوا) عن الجهاد (اليه وهم يجمحون) يسرعون اسراعا لا يردهم شئ ، كالفرس الجمــوح الذى اذا حمل لا يرده اللجام .

وعدم الخوف من حزب الشيطان ، مما أوجبه الله تعالى على عباده ، قال تعالى : (انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)[2] ، (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون)[3] .

. . .

ثم يقول جل شأنه — فى كشف حال المنافقين أيضا — : ((ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا[١٤])) .

---

(١) سورة التوبة ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ١٧٥ .
(٣) سورة المائدة ٣ .

وفى هذه الآية وسابقتها ، موازنة بين حالتين للمنافقين ، حالة خوفهم وفزعهم وفرارهم من الجهاد والعدوّ ، اذا كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فى حين أن بيوتهم آمنة محفوظة من العدو — وهى الحالة التى تصورها الآية السابقة — وحالة رغبتهم فى الفتنة ، ومسارعتهم اليها ، فى حين أن بيوتهم ، قد أتيت من جميع جوانبها ، فهى فى أمس الحاجة ، الى حمايتهم لها ، والدفاع عنها — وهى الحالة التى تصورها الآية التى معنا — فلو كانوا صادقين فى دعواهم ، أن البيوت معرضة لاقتحام العدوّ ، وأنها فى حاجة اليهم للدفاع عنها ، ما كان من شأنهم أن يسارعوا الى الفتنة ، والكفر والردة ، ومحاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بعد أن تؤتى بيوتهم من جميع جوانبها ، ولكنها الرغبة عن الدين والجهاد فى سبيله ، والدفاع عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، والرغبة أيضا فى أن يحاط بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين معه ، ويلوذوا هم بالفرار ، وينجوا بأنفسهم ، " وما ذلك الا لمقتهم الاسلام ، وشدة بغضهم لأهله ، وحبهم الكفر ، وتهالكهم على حزبه "(1) .

فهم يسألون الايمان والطاعة ، فى حالة الأمن ، فلا يعطون شيئا من ذلك ، أما الفتنة لو سئلوها فى حالة الخوف والحرب ، وسلب بيوتهم ونهبها ، لأعطوها ، ولسارعوا اليها ، دون تردد ولا تلكؤ .

وفى قراءة ((لآتوها)) بالمدّ ، ما يشعر بأن المنافقين يسارعون الى اعطاء الفتنة ، رغبة فيها ، فهم يعطونها دون قهر ولا اكراه عليهم فى ذلك ، ولذلك ختمت الآية بقوله سبحانه ((وما تلبثوا بها الا يسيرا)) :

---

(١) الكشاف : للزمخشري ٣/٢٥٤ .

أى الا زمنا يسيرا ، ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف[١] " .

وقد يحمل على التهديد للمنافقين بأن ذلك لو حصل منهم لما نفعهم ذلك شيئا ، لأن الله عز وجل لا يمهلهم بعد ذلك ، ولن يدوم لهم البقاء واللبث على الفتنة الا يسيرا[٢] " ، فقد ينزل الله عليهم عذابا عاجلا من عنده ، أو يسلط عليهم عباده المؤمنين ، كما قال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا[٣]) " وحمل بعضهم عود الضمير فى ((دخلت)) على المدينة ، وفسر ((الفتنة)) بمحاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأعاد ضمير ((بها)) على البيوت : والمعنى لو أن المدينة دخلت عليهم من جميع جوانبها ، واشتد الحرب الحقيقى ، ثم سئل المنافقون الفتنة ومحاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، لطاروا اليها ، ولم يتلبثوا فى بيوتهم لحفظها الا يسيرا[٤] " .

والآيات القرآنية ، الدالة على جمعهم الكفر والفتنة ، والفساد فى الأرض ، ومحاربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين كثيرة ، منها قوله

---

(١) الكشاف : للزمخشرى ٣/٢٥٤ .
(٢) مفاتيح الغيب : الفخر الرازى ٢٥/٢٠٠ بتصرف .
(٣) سورة الأحزاب ٦٠ .
(٤) عزاه الآلوسى فى تفسيره لابن عطية ٢١/١٦١ بتصرف ، وهو معنى جيد كما ترى .
(*) ابن عطية ٤٨١ – ٥٤٢ هـ هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى ، من محارب قيس ، الغرناطى ، أبو محمد : مفسر ، فقيه ، أندلسى ، من أهل غرناطة ، عارف بالأحكام والحديث ، توفى بلورقة . له " المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز .

تعالى : (ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)(١) ، وقوله سبحانه : (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ... الآية)(٢) ، وقوله عز وجل : (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ... الآية)(٣) ، والآيات فى هذا الباب كثيرة .

. . .

قوله عز وجل : ((ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا(٤) /١٥))

هذه الآية الكريمة كسابقتها ، فضمائرها تعود على من عادت عليه ضمائر سابقتها ، والسياق واحد ، والحديث عن المنافقين ، وما أكثر ما تحدث القرآن الكريم عن نكثهم العهد ، ونقضهم الميثاق ، والتجائهم الى الأيمان الفاجرة(٥) ، لتغطية مواقفهم الخسيسة ، وادعاء الايمان .

وهذا الذى نحن بصدده ، واحد من تلك المواقف ، التى نقضوا فيها العهد والميثاق . وكل من الفرار من الجهاد ، ونقض الميثاق ، قبيح مذموم .

---

(١) سورة البقرة ١٢ .
(٢) سورة التوبة ١٠٧ .
(٣) سورة المنافقون ٧ .
(٤) روى ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن قتادة ـ فى تفسير هذه الآية ـ أنه قال : كان ناس غابوا عن وقعة بدر ، ورأوا ما أعطى الله أصحاب بدر من الكرامة والفضيلة ، فقالوا : لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن . فساق الله ذلك اليهم حتى كان فى ناحية المدينة . ٢١/١٣٧ .
(٥) أنظر فى سورة التوبة الآيات الاتية : ٤٢ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٧

والمنافقون مهما أعطوا من العهود على الثبات والصبر ، وتحمل البلاء في سبيل الله ، وعدم توليتهم الأدبار ، لا يمكن أن يفوا به ، بل يستحيل عليهم الوفاء به ، ذلك أن الجهاد يستلزم صفات هي من خصائص المؤمنين ، والمنافقون قد فقدوا الايمان ، فأنى لهم تلك الصفات ، " فالجهاد قد انتظم سنام جميع الأحوال الشريفة : ففيه سنام المحبة ، والذلة على المؤمنين ، والعزة على الكافرين ، يقول الله تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم)[1] ، وفيه سنام التوكل ، وسنام الصبر ، فان المجاهد أحوج الناس الى الصبر والتوكل على الله "[2] ، قال تعالى : (فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ... الآية)[3] وقال تعالى : (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[4] ، وقال تعالى : (ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)[5] .

" وفي الجهاد أيضا : حقيقة الاخلاص ، فان الكلام فيمن جاهد في سبيل الله – لا في سبيل الرئاسة أو المال أو الحمية – وهذا لا يكون الا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هي العليا ، وأعظم مراتب الاخلاص : تسليم المال والنفس للمعبود جل وعلا : (ان الله

---

(١) سورة المائدة ٥٤ .
(٢) الفتاوى : ابن تيمية ٢٨ / ~~٤٣٣~~ ٤٤١ .
(٣) سورة الأنفال ٦٦ .
(٤) سورة آل عمران ١٧٣ .
(٥) سورة ابراهيم ١٢ .

اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ... الآية) " (١)

فهذه بعض الصفات التى يستلزمها الجهاد ، والتى يفقدها المنافقون جملة وتفصيلا . وتختم الآية الكريمة بالتهديد ، لمن يخون العهد ولا يفى به ، ويدخل المنافقون – الذين نزلت فى شأنهم الآية – دخولا أوليا ، يقول جل وعلا : ((وكان عهد الله مسئولا)) فعهد الله عز وجل ، مطالب الوفاء به ، مسئول عنه يوم القيامة ، وبالتالى مجازى على ترك الوفاء به .

. . .

يقول الله عز وجل : ((قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا (١٦))) وتأتى هذه الآية لتبكيت المنافقين على فرارهم وجبنهم ، وأن الفرار لا يجديهم شيئا ، ولا يؤخر آجالهم ، وما هو الا فرار من قدر الله عز وجل ، الذى لا فرار منه ، ومن زعم أن بيده القدرة على الفرار منه ، وان الفرار من ميدان الجهاد قد ينفعه ، فقد كذب الله : ((قل لن ينفعكم الفرار)) وخبر الله عز وجل هو الصادق .

ثم يذكر المولى عز وجل جوابا آخر بقوله : ((واذا لا تمتعون الا قليلا)): أى وان نفعكم الفرار ، فانه لا ينفعكم الا شيئا قليلا . وما قيمة هذا الشىء القليل ، أمام خسارة عظيمة ، خسارة التمتع بالحياة الأبدية . ولماذا هذا

---

(١) سورة التوبة ١١١ .

(٢) المرجع السابق ، بتصرف .

الحرص على الدنيا ومتاعها ، فلو عمروا زمن الحياة الدنيا كلها ، ماكانت الحياة الدنيا فى معصية الله ، بجانب الآخرة شيئا .

وانظر فى التعبير القرآنى : ((لاتمتعون)) بصيغة الفعل المبنى لما لم يسم فاعله ، للدلالة على أن تلك الحياة اليسيرة ، التى يحرصون عليها ، وذلك الزمن اليسير الذى يمكن أن يعيشوه ، ليس حاصلا منهم ، وأنه ليس بأيديهم أن يمتعوا أنفسهم ، ولكنهم — مع كون التمتع قليلا — يمتعون ، ان الذى يمتع بالقليل والكثير ، هو الله سبحانه ، الذى بيده آجالهم وحياتهم ودنياهم وآخرتهم .

أما اذا كانوا يزعمون أن الفرار يخلدهم فى هذه الحياة ، فان الله سبحانه ، لم يجعل الدنيا دار خلود ، بل جعل لكل نفس ، ولكل أمة أجلا مسمى محتوما لا يتخلف ، ولا يقى منه الفرار ولا المعاقل والحصون . يقول الله عز وجل : (ولكل أمة أجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)[1] ويقول جل شأنه : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ... الآية)[2] ويقول سبحانه : (قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ... الآية)[3] .

. . .

---

(١) سورة الأعراف ٣٤ .
(٢) سورة النساء ٧٨ .
(٣) سورة الجمعة ٨ .

المناسبة :

لما ذكر الله سبحانه أن الفرار ، لا ينفع من قدر الله سبحانه ، باعتبار أن ذلك هو الذى حصل من المنافقين ، أردف ذلك ببيان أن عدم النفع ليس مقصورا على الفرار ، بل لو التجأ الخائف من الموت أو القتل الى أى شئ ، واعتصم بما شاء ومن شاء من دون الله ، فان ذلك لا يغنيه شيئا ، ولا يرد عنه قضاء ولا قدرا من الله عز وجل ، فانه لا ملجأ ولا منجا من الله عز وجل الا اليه ، واذا نزل أمر الله سبحانه فلا راد لما قضى ، فقال سبحانه :

((قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا /١٧)) .

وقال الله جل وعلا — فى قصة نوح عليه السلام مع ابنه —: (قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ... الآية)[١] ، وقال جل شأنه — فى يهود بنى النضير — : (وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ... الآية)[٢] وقال سبحانه : (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ... الآية)[٣] .

والاستفهام هنا ((من ذا الذى يعصمكم)) فى معنى النفى : أى

---

(١) سورة هود ٤٣ .
(٢) سورة الحشر ٢ .
(٣) سورة البقرة ٢٤٣ .

لأحد يمنعكم مما يريد الله عز وجل بكم من سوء أو رحمة ، وكلمة ((سوءا)) عامة[(١)] تشمل كل سوء يريده الله تعالى بهم ،وكذا كلمة : ((رحمة)). فالسوء يشمل : الهلاك ، والنقص فى الأموال ، والجدب ، والمرض ، وغير ذلك ولا داعي لتخصيصه بنوع معين . وكذا الرحمة ، تشمل كل خير ينزل من عند الله عز وجل ، وما أراده الله سبحانه لا يتخلف ، فقضاؤه محتم ، وأمره نافذ ، (والله غالب على أمره)[(٢)] .

وذكر الرحمة هنا — مع أن السياق مع المنافقين ، الذين لا يستحقون رحمة — لبيان شمول رحمة الله تعالى فى هذه الحياة العاجلة ، وأن الله سبحانه يمد بالخير فى هذه الحياة عموم خلقه ، ولأن الدنيا دار اختبار وابتلاء ، والله تعالى كما يختبر العبد بالشر يختبره كذلك بالخير ، كما قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة ...)[(٣)] الآية .

---

(١) لوقوعها نكرة فى سياق الشرط ، كما فى قوله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره ...) الآية سورة التوبة ٦ . راجع كتاب : " كشف الأسرار عن أصول البزدوى " : عبد العزيز بن أحمد البخاري ٢/١٣ .

(*) البزدوى ٤٠٠ — ٤٨٢ هو على بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم ، أبو الحسن ، فخر الاسلام البزدوى : فقيه أصولى ، من أكابر الحنفية ، من سكان سمرقند ، نسبته الى "بزدة" قلعة بقرب نسف ، له تصانيف ، منها "المبسوط" و "كنز الوصول" فى أصول الفقه ، يعرف بأصول البزدوى .

(*) عبد العزيز البخاري ... — ٧٣٠ هـ هو عبد العزيز بن أحمد بن محمد ، علاء الدين البخاري : فقيه حنفى من علماء الأصول ، من أهل بخارى ، له تصانيف ، منها : " شرح أصول البزدوى " مجلدان و " شرح المنتخب الحسامى " للأخسيكثى .

(٢) سورة يوسف ٢١ .

(٣) سورة الأنبياء ٣٥ .

وتذييل الآية بقوله تعالى : ((ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)) لتقرير ما ذكر قبله ، : أى لا تملكون حينئذ وليا يشفع لكم لمحبته اياكم ، ولا نصيرا ينصركم ، أو يدفع أو يمنع من قدر الله ، ونحو هذه الآية قوله تعالى : (قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا (١) ... الآية) .

. . .

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى المنافقين ، بتلك الصفات الذميمة ، من اتهام وعد الله بالباطل ، والتحريض على مغادرة صف المعركة ، واختلاقهم الأعذار الكاذبة للرجوع الى المدينة ، فرارا من مقابلة العدو مع المؤمنين ونكثهم العهد ، أتبع ذلك بقوله سبحانه :

((قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا /١٨)) .

لبيان أنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل يقومون بالتثبيط لغيرهم ، فهم يحاولون اثارة الزلزلة ، والقاء الحسرة فى قلوب المسلمين ، وبالأخص قلوب أهل الشهداء وأقربائهم حتى يتقاعدوا عن الجهاد والخروج مع رسول الله

---

(١) سورة الفتح ١١٠

فيمصلى الله عليه وآله وسلم ، ويهذلون محاولاتهم ، مع الذين آثروا الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفارقوا بيوتهم وأهليهم ابتغاء مرضـــاة الله ، يحاولون معهم الرجوع الى ديارهم ، وعدم المقاتلة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم . وقد هنا للتحقيق (١) .

ومن ثم جاء تأكيد العلم هنا ، وتأكيد العلم بمتعلقه ، متضمن لوعيد الله على ما يقومون به من التعويق ، والوعيد هنا مؤكد تبعا لتوكيد العلـــم . والمعنى : أن الله تعالى لا يخفى عليه ما يقوم به المنافقون من التعويـــق وغيره ، وان اجتهدوا في اخفائه وستره .

و ((المعوقين)) جمع معوّق على التكثير ، مأخوذ من عاق عـــن الخير اذا صرف عنه ، فقوله تعالى : ((قد يعلم الله المعوقين)) : "أي المثبطين الصارفين عن طريق الخير" (٢) .

وقد كان المنافقون يسلكون سبلا متعددة ، وأساليب مختلفة ، بغيـــة التثبيط والتعويق ، فان كانوا داخل المعسكر ، خذلوا بالتحريض على الفرار والرجوع الى المدينة بالقول والعمل : يختلقون الأعذار الكاذبة ، مـــن أجل الفرار ، ويقولون لغيرهم : ((لا مقام لكم)) وهذا نوع من التخذيـــل بالقول . وأما التخذيل بالعمل ، فانهم كانوا يتسللون دون استئــــذان : يخرجون عن الجماعة شيئا فشيئا ويلوذ بعضهم ببعض ، عند الخـــروج ، متخفين ومتسترين ، كما أشار تعالى الى ذلك بقوله : (قد يعلم اللـــه

---

(١) ذكر الآلوسي في تفسيره : ان قد هنا تفيد التحقيق ، أو التقليـــل باعتبار المتعلق ٢١/ ١٦٣ .
(٢) مفردات الراغب الاصفهاني ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

الذين يتسللون منكم لواذا) (١) .

أما اذا كانوا خارج المعسكر ، فانهم يعوقون من عندهم ، ويثبطونهم عن الخروج ، كما كانوا أيضا يدعون من عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى المعسكر للحاق بهم ، يدعونهم بطريق المراسلة أو المكاتبة ، كما يدل لذلك قوله تعالى : ((والقائلين لاخوانهم هلم الينا)) يدعون اخوانهم ، الذين يأنسون اليهم من صاحب وعشير وخليط ، وعلى رأسهم أشباههم من المنافقين وضعاف الايمان ، الذين يتوسمون فيهم الاجابة وتلبية الدعوة الى ماهم فيه من الفرار والنجاة بأنفسهم ، والابتعاد عن مواطن الخطر .

والمنافقون حينما يفرّون من القتال ، ويثبطون عنه ، ويدعون الآخرين الى الانضمام اليهم ، يمنون أنفسهم بالسلامة من الموت ، كما أشار الحق سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله : (الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ... الآية) (٢) ، وبقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... الآية) (٣) .

---

(١) سورة النور ٦٣ .
ذكر ابن اسحاق - كما فى سيرة ابن هشام - أن هذه الآية والتى قبلها ، وهى قوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ... الآية) ٦٢ ، نزلتا فى غزوة الأحزاب ، فى العاملين فى الخندق من مؤمنين ومنافقين ، سيرة ابن هشام ٢/ ٢١٦ . وذهب الى هذا أيضا أبو بكر ابن العربى فى أحكام القرآن ، وعزاه الى زيد بن أسلم ، والامام مالك وقواه بدليلين ، فيراجع : أحكام القرآن ٣/ ١٣٩٧ - ١٣٩٨ .
(٢) سورة آل عمران ١٦٨ .
(٣) نفس السورة ١٥٦ .

ويزعمون أن المغرم والمضرة فى اتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ومشاركته فى الدفاع عن الاسلام ، وأن المصلحة والحكمة ، فى التخلف عنه ، وهم بذلك يحاولون افساد معتقدات الاسلام وأصوله : فى قدر الله سبحانه ، وفى شأن الموت والحياة ، وأنهما بيد الله سبحانه وحده ، وأن الموت لابد أن يدرك المجاهد وغير المجاهد ، والشجاع والجبان ، لايرده حرص ولا حذر ، ولا يؤخره جبن ولا قعود ، فكم من حاضر صف القتال سلم ، وكم من فار من المنية لاقته ساعة فراره ، وهذا خالد بن الوليد يقول — لما حضرته الوفاة — : « لقد حضرت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى شبر الا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنا أموت على فراشى حتف أنفى ، كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء »(١).

وقد ورد فى تثبيطهم عن الجهاد آيات أخرى فى القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : (وان منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا)(٢) ، وقوله سبحانه : (وقالوا لا تنفروا فى الحر ... الآية)(٣) .

قوله جل شأنه : ((ولا يأتون البأس الا قليلا)) : أى لا يأتونه الا اتيانا قليلا ، وذلك حين يضطرون الى الخروج اضطرارا ، فيأتون ليرى الناس وجوههم ، وليوهموهم أنهم معهم ، ثم لا يبارزون ولا يقاتلون الا شيئا قليلا .

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير ١١٤/٧ .
(٢) سورة النساء ٧٢ .
(٣) سورة التوبة ٨١ .

روى أصحاب السير : أن عبد الله بن أبى - لما خرج مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى غزوة " أحد " - انخزل[1] بثلث الجيش قبل القتال ، ورجع بهم المدينة[2] .

ومع كون ابن أبى يخذل المسلمين بهذا التصرف فى هذا الموقف الحرج ، فان الأمر له أبعاد أخرى ، ذلك أنه لو قعد هو ومن معه فى المدينة ، ولم يخرجوا مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لكان الأمر - على قبحه - أهون ، ولكن خروجه مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم انخزاله ورجوعه من الجيش ، أشد قبحا ، وأعظم نكاية ، فانه يعنى محاولة تفريق الكلمة ، وتمزيق الشمل ، والقاء الشك فى نفوس المؤمنين ، وايجاد الرجفة والزلزلة فى صفوف المسلمين فى ساعة الحرج ، وهذا يدل دلالة واضحة على الخسة المتناهية التى وصل اليها المنافقون فى محاولة الكيد بالاسلام .

---

(١) انخزل فلان المال : اذا اقتطعه ... وفى حديث " أحد " : انخزل عبد الله بن أبى من ذلك المكان : أى انفرد . اللسان : ١١/٢٠٤ باختصار .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٦٤ والطبقات : لابن سعد ٢/٢٧ وامتاع الاسماع : المقريزى ١/١٢٠ وتاريخ الطبرى ٢/٥٠٤ .

(*) ابن سعد ١٦٨ - ٢٣٠ هـ هو محمد بن سعد بن منيع الزهرى ، مولاهم أبو عبد الله : مؤرخ ، ثقة ، من حفاظ الحديث . ولد فى البصرة وسكن بغداد فتوفى فيها ، أشهر كتبه : " طبقات الصحابة " ويعرف بطبقات ابن سعد .

وقد نزل فيمن رجع من المنافقين يوم أحد ، قوله تعالى : (فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا [1]) .

روى البخارى فى صحيحه ، عن زيد بن ثابت رضى الله عنه ، قال : لما خرج النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى أحد ، رجع ناس [2] ممن خرج معه ، وكان أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم فرقتين : فرقة تقول : نقاتلهم ، وفرقة تقول : لا نقاتلهم ، فنزلت : (فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا) وقال : " انها طيبة تنفى الذنوب كما تنفى النار خبث الفضة [3] " .

وهذه الآية — كما ترى — فيها عتاب للفئة المؤمنة ، التى وقفت موقف المدافع عن المنافقين ، فى هذه الحال التى انكشفت فيها نواياهم . ويأتى العتاب بهذا الأسلوب : (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) ؟ .

. . .

---

(١) سورة النساء ٨٨ .

(٢) قال ابن حجر — فى الفتح — : يعنى عبدالله بن أبىّ وأصحابه . وقد ورد ذلك صريحا فى رواية موسى بن عقبة فى المغازى انتهى من الفتح ٨/٣٥٩

(٣) رواه البخارى : كتاب المغازى ١٢٢/٥ — ١٢٣ ، كما رواه فى كتاب التفسير ٥٩/٦ وفى الرواية الأخرى : " انها طيبة تنفى الخبث ... " ورواه الترمذى : كتاب التفسير ٢٣٩/٥ .

(*) الترمذى ٢٠٩ — ٢٧٩ هـ هو محمد بن عيسى بن سورة السلمى البوغى الترمذى ، أبو عيسى : من أئمة علماء الحديث وحفاظه ، من أهل ترمذ (على نهر جيحون) مات بترمذ . من تصانيفه : " الجامع الكبير فى الحديث " ، مجلدان . و " الشمائل النبوية " و " التاريخ " و " العلل " فى الحديث .

المناسبة :

ولما ذكر الله تعالى ماكان يقوم به المنافقون من التثبيط ، والترغيب عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدم مشاركتهم القتال مع المؤمنين ، أردف ذلك ببيان ما جبلت عليه نفوسهم من الشح والجبن ، فقال تعالى : ((أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا /١٩)) .

الشح : "بخل مع حرص"[1] فليس الشح اذا مجرد البخل ، بل يزيد على البخل فى دلالته على الحرص ، فهو على هذا أشح من البخل وقد حذر منه النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لما له من عواقب وخيمة ، فى خلق الأمة ، وعلاقة بعضها ببعض ، تجرها - هذه العواقب - الى الهلاك والردى . قال صلى الله عليه وآله وسلم : " اياكم والشح فان الشح أهلك من كان قبلكم : أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا "[2] .

فانظر كيف كان الشح سببا للبخل والظلم والقطيعة ، والواحدة من هذه الصفات كفيلة بتحطيم أمة اذا ما أصبحت خلقا لها .

---

(١) مفردات الراغب الأصفهانى ٢٥٦ .

(٢) رواه مسلم : كتاب البر ١٩٩٦/٤ وأحمد ١٦٠/٢ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ واللفظ له . ولفظ مسلم : " واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم " .

وقد وصف الله عز وجل المنافقين بالشح فى هذه الآية مرتين ، وقيده فى الأولى بقوله ((عليكم)) لافادة أن المنافقين يشحون بكل ما فيه خير ومنفعة على المؤمنين : يشحون عليكم بأنفسهم فلا يجاهدون معكم ، بل يثبطون الناس عن الجهاد معكم ، وبأموالهم فلا ينفقون فى سبيل الله ، بل يقبضون أيديهم عن الانفاق ، ويحرضون الناس على عدم الانفاق عليكم فهم بخلاء عليكم حتى بما فى أيدى غيرهم . وهذا من داء الحسد ، فان الذين يشحون بفضل الله ، من نصر ورزق يجريه الله سبحانه على يد من شاء من عباده لمن شاء من عباده ، هم حساد . ومن وصف الله تعالى لهم بالحرص ، وعدم الانفاق ، قوله تعالى : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ... الآية[1]) .

ويشح المنافقون كذلك بتقديم أى مشورة أو نصح فلا يفعلون ، بل يخدعون ويمكرون . وبالمودة والشفقة عليكم ، فلا يحملون لكم الا الحقد والكراهية .

وان قدموا شيئا من الخير ، فانما يفعلونه رياء أو اضطرارا - مع محاولة الافساد - : (ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا ينفقون الا وهم كارهون[2]) ، (لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ...[3]) .

---

(١) سورة التوبة ٦٧ .
(٢) نفس السورة ٥٤ .
(٣) نفس السورة ٤٧ .

قوله تعالى : ((فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت)) .

بعد أن ذكر تعالى شح المنافقين على المؤمنين ، أردف ذلك ، بتصوير حالة من حالات الفزع والهلع عندهم ، اذا جاء ما يخيفهم ويفزعهم وهو العدو ، وذلك عند حضور البأس ومجيىء القتال ، فانهم فى هـــذه الحال ، يصيرون — من شدة الرعب الذى فى قلوبهم — كالمغمى عليه وقت النزع : يخافون ، وتذهل عقولهم ، ويشخصون اليك أبصارهم لواذا بك ، يستجيرون بك خوفا من أن تحملهم على المشاركة فى القتال ولقاء العدو ، وأعينهم لا تكاد تستقر ، فهى تدور فى أحداقهم رعبا وفزعا . ((فاذا ذهب الخوف)) بانتهاء القتال ، وذهاب العدو . أو بالظفر والغلبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين ، وحلول الأمن ((سلقوكم بألسنة حداد)) : أى بسطوا ألسنتهم فيكم بالأذى بحدة وذرابة . وكما أن سلق يأتـــى بمعنى : الايذاء بالكلام ، واسماع الغير ما يكره ، وشدة الصوت . فـــان من معانيه أيضا قولهم : سلق البيض والبقل وغيره بالنار : أغلاه . وسلقــه بالسوط : نزع جلده .(١)

ومن هنا ندرك سر اختيار هذا التعبير ، وكأن كلام المنافقـــين لشدة أذاه ، صار بحيث يشبه النار ، ولو كان من الأمور المحسوســة

---

(١) أنظر هذه المعانى فى لسان العرب ، فى مادتى سلق ، وصلق : ١٠/١٥٩ ، ٢٠٥ .

لكان له ما للنار من التأثير (١) .

ولنا أن نلتمس من مادة سلق نكتة أخرى ، وهى : أن السليقة فى اللغة بمعنى الطبيعة والسجية (٢) . ففى اختيار كلمة " سلق " هنا ، ما يشعر بأن ما صدر من المنافقين من الأذى للمسلمين ، انما كان حاصلا من طبيعتهم التى جبلوا عليها ، فانه لم يبق فى طبيعتهم شئ من الخير سوى الايذاء الذى منه سلاطة اللسان ، فما قالوه لكم ، كان نابعا من سجيتهم وطبيعتهم التى جبلوا عليها .

والمراد : أنهم يقولون للمؤمنين فى ذلك الوقت كلاما مؤذيا : " اما أن يدعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة وهم كاذبون " (٣) ، واما أن يقولوا : " هذا الذى جرى علينا بشؤمكم ، لأنكم أنتم الذين دعوتم الناس الى هذا الدين ، وقاتلتم عليه وخالفتموهم " (٤) ، واما أن يقولوا غير ذلك مما فيه ايذاء .

---

(١) وهذا يشبهه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لعائشة رضى الله تعالى عنها - لما أشارت الى صفية رضى الله تعالى عنها ، أنها قصيرة - : " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " رواه أبو داود : كتاب الادب ٢٦٩/٤ ، والترمذى : كتاب القيامة ٦٦٠/٤ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد ١٨٩/٦ .

(٢) اللسان : المرجع السابق .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٣/٣ .

(٤) الفتاوى : ابن تيمية ٤٣٣/٢٨ ، ومثل هذا القول الذى ذكره الامام ابن تيمية ، لا يجرأ المنافقون على مواجهة النبى صلى الله عليه وآله وسلم به ، وانما قد يقولونه لبعض المؤمنين .

وقوله تعالى : ((أشحة على الخير)) : أى أنهم بالاضافة الى ايذائهم اياكم بألسنتهم ، فانهم أشحة على الخير.

وقد سبقت الاشارة الى النكتة فى تقييد الشح أولا بقوله : ((عليكم)) ، أما هنا فلم يقيده بذلك ، بل قيده بالخير ، فقال : ((أشحة على الخير)) للدلالة على المغايرة فى معناهما : ذلك أن الله تعالى لما ذمهم بالبخل بكل ما فيه نفع للمؤمنين ، ذمهم هنا بالبخل وشدة الحرص على الخير مطلقا ، من غير نظر الى كون ذلك البخل على المؤمنين أو على غيرهم ، وهو أبلغ فى ذمهم من الأول [(١)].

فنفوسهم مطبوعة على الشح مطلقا ، غير أن شحها بالخير عليكم أشد.

وهذه الآية ـ كما ترى ـ تضمنت ذمهم بالجبن والبخل ، وهما داءان خبيثان ، قد يكونان من الكبائر الموجبة للنار ، كما يدل لذلك قوله تعالى : (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ... الآية [(٢)]) وقوله تعالى : (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير [(٣)]).

وقد وصفهم الله عز وجل بالبخل فى مواطن عديدة من كتابه العزيز ، بمثل قوله جل شأنه : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون [(٤)]) الى غير ذلك من الآيات.

---

(١) تفسير الآلوسى ٢١/١٦٥ ـ ١٦٦ بتصرف.
(٢) سورة آل عمران ١٨٠.
(٣) سورة الانفال : ١٦.
(٤) سورة التوبة ٧٥ ، ٧٦.

أما وصفهم بالجبن فقد سبق ذكر بعض الآيات القرآنية المشتملة على ذلك .

ولما أخبر سبحانه عن اتصافهم بهذه الصفات القبيحة ، أعقب ذلك ببيان ما ينطوون عليه من الكفر الحامل لهم على هذا السلوك الشهين ، والأخلاق الذميمة ، فقال : ((أولئك لم يؤمنوا)) ، ولذلك لا يستبعد منهم مثل هذه الأعمال ، فان الكفر يحمل صاحبه على كل ما هو قبيح ، وبالتالى لا ينتظر منهم أى خير للاسلام أو المسلمين فهم أبعد ما يكونون عن التضحية بالنفس ، أو انفاق المال ، أو بذل النصح فى سبيل الله تعالى .

واذا كانوا فى بعض الأحوال يتصنعون ، ويتكلفون — اضطرارا — مزاولة بعض شعائر الدين الظاهرة ، فانما يجعلون ذلك ستارا ليخادعوكم، ورياء كما قال تعالى : (يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا)(1) ، ولذلك لم تنفعهم هذه الأعمال شيئا ، ولم يجعل الله عز وجل لها قيمة فى ميزان الأعمال الصالحة ، لأنها لم تنبع عن ايمان ، فكانت عقوبتهم أن أحبط الله أعمالهم : ((فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا)) : أى أبطلها ، فلم يرتب عليها جزاء ينفعهم ، والتذييل بقوله سبحانه : ((وكان ذلك على الله يسيرا)) — مع أن كل شىء على الله يسير — : للتهديد الضمنى ، وللاشارة الى أن ما يقومون به من مخادعة للمؤمنين ، حقيق بأن يبطله الله عز وجل .

وعلى هذا ، فالاشارة بقوله : ((ذلك)) عائدة على المصدر المفهوم من ((أحبط)) : أى وكان ذلك الاحباط على الله يسيرا .

---

(١) سورة النساء ١٤٢ .

وقول الله عز وجل : ((يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا)) /٢٠

وهذه الآية الكريمة تصور حالة المنافقين ، فى الرعب والفزع ، وهى حالة تدعو الى الضحك والسخرية .فهؤلاء المنافقون — الذين ظلوا بعيدين عن المعسكر ، قائمين بمهمة التثبيط والتعويق لغيرهم ضنينين على المؤمنين بكل خير ونفع ، ولو كان من عند غيرهم — عندما سمعوا بهزيمة الأحزاب واندحارهم ، ورجوع المؤمنين ببشرى النصر والتأييد من عند الله تعالى ، ظلوا فى خوف دائم ، فهم لما فى قلوبهم من النفاق ، لا يصدقون الأخبار الصادقة ، الموحية للأمن والطمأنينة ، لأنهم لا ثقة عندهم بالمؤمنين ولا بأخبارهم ، ولا بأن الله عز وجل سينجز وعده لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالنصر والظفر على الأعداء ، ولأن تصورهم لهول الموقف ، وضخامة جيش الكفار ، مع ولائهم للأحزاب ، ورغبتهم فى أن يظهروا على المسلمين ، كل ذلك يجعلهم يستبعدون هزيمة الأحزاب ، فقلوبهم لا تميل الا الى الأخبار التى تحمل الارجاف والتخويف ، لذلك يظنون أن الأحزاب — بعد انصرافهم — لم ينصرفوا ولم ينهزموا .

وهذا أحد الأوصاف الثلاثة التى وصفهم الله سبحانه بها فى الآية الكريمة .

ثانيها : أنه لو فرض مجيىء الأحزاب مرة ثانية ، فانهم يتمنون ألا يكونوا مع المؤمنين ، بل ولا فى بيوتهم التى لاذوا بها فى هذه المرة ، وتمللوا

بها للفرار من ميدان المعركة ، وانما يرغبون فى الهروب الى البادية ليكونوا مع الأعراب ، يحملهم على ذلك شدة الخوف والفزع الذى منوا به(١) فى هـذه المرة ، فهم يريدون الفرار من القتل وتبربص الدوائر بكم ، ويكتفون حينئذ بالسؤال عن أخباركم ، يسألون من يقدم(٢) عليهم من المدينة ، ماذا جرى لمحمد وأصحابه ؟ وما خبر المدينة ؟

ثالثها : أنهم لو كانوا فيكم فى هذه المرة المفروضة ولم يخرجوا الى البادية ، ما قاتلوا الا قليلا(٣) . ذلك انهم لا يرجون بقتالهم ثوابا ، ولا يحتسبون ما يصيبهم من البلاء عند الله ، فقتالهم انما هو رياء ومخادعة للمؤمنين أنهم معهم ، ولذلك لا يفعلونه ان قاموا به الا قليلا .

وبعد : فهذه هى الآيات التى جاءت مجتمعة فى مكان واحد ، من سورة واحدة ، هى "سورة الأحزاب" تضمنت بعض مكائد المنافقين وخداعهم .

ومع أن أذى المنافقين للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قد بلغ منتهاه ، فانا لم نجد فى سيرته الحميدة ، ما يدل على انه عاملهم معاملته لسائر الكفار ، فحاربهم .

وقد أشرنا فيما سبق الى صنوف الأذى الذى صدر منهم ، والى جملة آيات من القرآن الكريم أوضحت ذلك .

---

(١) يقال : منى ببلية : أى ابتلى بها ... من اللسان ١٥/ ٢٩٣ .
(٢) قدم من سفره يقدم قدوما ومقدما ، بفتح الدال ، فهو قادم : آب . من اللسان ١٢/ ٤٧١ .
(٣) الفتاوى : ابن تيمية ٢٨/ ٤٣٣ . والكشاف : الزمخشرى ٣/ ٢٥٦ مع تصرف فى عبارتيهما .

ومع هذا كله فقد التزم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى حقهم الصبر وسعة الصدر ، فلم يقاتلهم ، يدل لذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعمر — عند قوله من غزوة بنى المصطلق ، وقد استأذنه عمر فى قتل ابن أبى ، لما قال : فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فقال عمر : دعنى يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال صلى الله عليه وآله وسلم — : " دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ... الحديث "[1].

بالاضافة الى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يكن يعلم جميع أفراد المنافقين ، وانما علم ببعضهم ، بدليل قوله تعالى : (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا[2] على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ... الآية)[3] ، وربما كان يستدل على بعضهم من خلال تصرفاتهم ، أو الأمارات الدالة عليهم ، ومن هذه الأمارات ، ما أشار الله تعالى اليها بقوله : (ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن[4] القول والله يعلم أعمالكم)[5] .

---

(١) رواه البخارى : كتاب التفسير ٦/١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٢) مردوا على النفاق : تمهروا فيه ، من مرن فلان عمله ومرد عليه : اذا درب به وضرى (اعتاده) حتى لان عليه ومهر فيه ... من الكشاف : للزمخشرى ٢/٢١١.
(٣) سورة التوبة ١٠١ .
(٤) قال فى اللسان — عن الأزهرى — : اللحن ما تلحن اليه بلسانك : أى تميل اليه بقولك ، ومنه قوله عز وجل : ولتعرفنهم فى لحن القول : أى نحو القول ، دل بهذا أن قول القائل وفعله يدلان على نيته وما فى ضميره. وقيل : فى لحن القول : أى فى فحواه ومعناه ١٣/٣٨١ . وقال فى الكشاف : للزمخشرى "فى لحن القول" : فى نحوه وأسلوبه ٣/٥٣٧ وأراد بالنحو هنا : (القصد) .
(٥) سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ٣٠ .

غير أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤاخذهم ، لامتزاجهم بمجتمع أمي ، ولكثرة الأعداء المتربصين بالاسلام ، والمتحينين الفرصة للصد عنه ، والمتصيدين لأدنى الشبه لتشويه صورته الناصعة المشرقة ، وليدفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم باعراضه عنهم المقالة التي وردت في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المتقدم .

ولكن القرآن الكريم لم يسكت عنهم ، فانه بالاضافة الى كشفه لكثير من أعمالهم وسرائرهم القبيحة ، كان ينزل في حقهم الوعيد الشديد ، بما أعد الله سبحانه لهم من العذاب الآجل ، مثل قوله تعالى : (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) (١) . وقوله سبحانه : (ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ... الآية) (٢) كما هددهم الله عز وجل بالعقوبة العاجلة في الدنيا ، مثل قوله جل شأنه : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) (٣) .

وقوله تعالى : (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا فتربصوا انا معكم متربصون) (٤)

... ...

---

(١) سورة التوبة ٦٨ .
(٢) سورة النساء ١٤٥ .
(٣) سورة الأحزاب ٦٠ .
(٤) سورة التوبة ٥٢ .

البحث التاسع

النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الأسوة العليا لأمتـــــه

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل هول الموقف ، والزلزلة المنيفة ، التى منى بها من كان مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى ظنوا بالله عز وجل الظنون المختلفة ، بيّن سبحانه موقف كل من المنافقين ، ومرضى القلوب ، والمؤمنين ، فذكر المنافقين ومرضى القلوب فى وصف شامل لهما ، ثم أفرد المنافقين فذكر مواقفهم من الجهاد والانفاق ، والآن يبدأ الكلام عن المؤمنين ، فقال تعالى — بادئا بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو القدوة العظمى للمؤمنين — ((لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوالله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ٢١/))

فاذا كان المنافقون قد استحقوا أن يسّجل عليهم القرآن ما يجعلهم فى مكان الذم والمقت ، لقبح فعالهم ، فان المؤمنين يستحقون أن يسجل لهم القرآن الكريم ، ما يجعلهم فى مكان الرضا والمدح والثناء ، والقدوة الحسنة لمن بعدهم .

وبدأ تسجيل موقف المؤمنين بقوله جل شأنه : ((لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)) والخطاب للمؤمنين ، يقول لهم الله عز وجل : لقد كان لكم فى موقف الجهاد الذى وقفتموه ، من الثبات والصبر والاحتساب ، وتحمل الأذى والابتلاء فى سبيل اعلاء كلمة الله تعالى ، وقهر أعدائه ، لقد كان لكم فى كل ذلك قدوة صالحة فى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —

فرسول الله هو المثل الأعلى لكل ذلك ، فقد أوذى فى الله عز وجل فـــى مواقف كثيرة ، فصبرواحتصم بالله وتوكل عليه ، وأيقن بالنصر والظفر . وهــذا الذى ينبغى أن يكون عليه حال من يتأسى به ، فلا يظن من حصل له مثــل هذا الابتلاء أنه نقمة لصاحبه واهانة له ، فلو كان الأمر كذلك ما ابتــلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو خير الخلائق ، بل بمثل هـــذه البلايا تنال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا ، وما دام قــدوة المؤمنين جميعا ، قد أوذى فى الله أشد الأذى ، فما على من أصيب بشىء من البلاء فى سبيل الله ، الا أن يتذكر قدوته الذى به يقتدى ويهتدى .

ومع كون الآية الكريمة تحمل ثناء الله عز وجل لعباده المؤمنين الخــلص على موقفهم ، وثقتهم بالله سبحانه ، وبنصره وصدق وعده الذى لا يتخلف ، فان فيها أيضا عتابا[1] لضعاف الايمان (مرضى القلوب) الذين دخل الفــزع فى قلوبهم ، فلم يثبتوا ثبات غيرهم من المؤمنين ، وظنوا السوء حتى قالــوا مع المنافقين مقالة السوء .

وهذا من أسلوب القرآن الرفيع ، فى تربية النفوس ، وكشف خفاياها ، واعطاء كل فئة ما تستحقه من المقت ، أو التأنيب ، أو الثناء ، حسب موقفها وما عندها من ريب ، أو ضعف أو اخلاص .

وكان موقف المنافقين يقتضى ما تقدم من المقت ، وكشف الزوايا المظلمة فى نفوسهم . وأما ضعاف الايمان لما كانوا أخف ضررا ، وأقل شكا مـــن

---

(١) ذكر ابن جرير فى تفسيره ٢١ / ١٤٣ والزمخشرى أيضا ٣/٢٥٦ : أن الآية فيها عتاب للمتخلفين . هذه عبارة ابن جرير ، وهى مؤدى عبارة الزمخشرى .

المنافقين ، وكان من حقهم — بمقتضى ما عندهم من ايمان — أن لا يقعوا مع المنافقين فى بعض مواقفهم ، فقد استحقوا عتابا لاذعا ، فيه تذكير لهم بخطئهم تارة بطريق مباشر وتارة بطريق غير مباشر ، فيه ثناء على اخوانهم المؤمنين ، الذين كانوا محل رضا من الله عز وجل ، ومن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، على حسن بلائهم ، وصبرهم وثباتهم ، وكمال يقينهم ، وأنه كان على هؤلاء أن يسلكوا سبيل اخوانهم فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما كان ضعاف الايمان لم يبلغوا درجة اخوانهم المؤمنين ، فى قوة الرجاء والرغبة فيما عند الله تعالى من النعيم المدخر للصالحين من عباده ، وقوة الخوف والاشفاق مما أعده للعصاة ، وذكر الله المتواصل الذى لا يعتريه ملل ولا نسيان ولا غفلة ولا انقطاع ، مما يؤهلهم لكمال التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، فان هذه الآية الكريمة ، توجههم الى السبيل التى تسلك بهم منهج اخوانهم ، لعل الله سبحانه يتوب عليهم بذلك ، ويرفع درجاتهم .

ولما كان كمال التأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يتأتى من كل انسان ، بل هو مقصور على من اتصف بصفات معينة ، ذكر سبحانه هؤلاء الذين يتحقق لهم الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال :

((لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)) ، والتأسى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مطلوب فى كل أعماله ، مالم يقم الدليل على أنه من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ، غير أن هذا الموقف الذى

ذكر فيه التأسي به صلى الله عليه وآله وسلم ، يحتاج الى مزيد اهتمام ، لأن فيه التأسي به في ساعات الشدائد ونزول المحنة والبلاء ، وهو من المواقف التي يتجلى فيها ، صدق ايمان العبد من عدمه ، ومقدار ثقتـه بربه ، وتوكله عليه واعتصامه به ، فاذا كان العبد ممن يرجو الله عـز وجل ، ويرجو ما عنده من الفضل والثواب الدائم ، الذي لا ينقطع ، كما يرجو أيضا نصر الله تعالى وتأييده لعباده المؤمنين ، فانه لا يزلزل قدمه ، ولا يغير موقفه شيء ، مهما عظم الخطب ، واشتد الهول والكرب ، بل يزداد من موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قدوته الذي يقتدي بـه ثقة وطمأنينة وأمنا ، وثباتا ورباطة جاش .

اذا فالمؤمنون المقتدون بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، مـن شأنهم أن يكونوا على رجاء قوي فيما عند الله من الفضل والثواب ، وأن يكونوا على خوف منه عز وجل ، فالرجاء والخوف متلازمان لا ينفكان من قلب المؤمن ، ولا يخلو دائما حال المؤمن منهما ، وعلى المؤمنـين أيضا أن يذكروا الله عز وجل كثيرا ، في السراء والضراء ، وفي السـر والعلانية ، ذكرا يزدادون به درجة ورفعة عند الله سبحانه ، ويحملهم على الاكثار من طاعته ، وحينئذ يتم لهم الاقتداء بالرسول صلى اللـه عليه وآله وسلم .

وقد يحمل الذكر على التذكر : أي يكونون دائما متذكرين لأمر اللـه تعالى ونهيه ، ووعده ووعيده ، (١) ومن كان هذا حاله ، تمثل عظمـة

---

(١) ذكر هذا المعنى القاسمي في تفسيره ١٣/٤٨٣٦ — ٤٨٣٧ .

الله تعالى ، وازداد استجابة ومسارعة الى طاعته ، والكف عن محارمه ، وعظم رجاؤه فيما عند الله تعالى من الخير ، وخوفه من عذابه . والأولى حمل الذكر فى الآية على ما يشمل ذكر اللسان والتذكر بالقلب ، اذ لا منافاة بينهما . وبذلك يتم له الاقتداء التام برسول الله صلى الله عليه وآلـــــه وسلم ، ويزداد نورا فى بصيرته ، ويعرف أن مقاتلة العدو — على ما فيـــه من بلاء ومحنة — فيه خير كبير ، لأن فيه تطهير الأرض من الفســـــاد ، واعلاء كلمة الله تعالى ، ونشر الحق والفضيلة .

*** *** ***

البحث العاشر

موقف الصادقين من الأحـــــزاب

المناسبة :

لما ذكر الله سبحانه المنافقين ومرضى القلوب ، وكيف كان حالهم عند شدة البلاء ، وقولهم : ((ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)) ، ذكر هنا المؤمنين المخلص ، الذين ثبتوا واطمأنت نفوسهم ، وأيقنوا بنصر الله تعالى ، وصدق وعده لهم .

يقول الله عز وجل : ((ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) /٢٢))

ذكرهم سبحانه بهذا الثناء الجميل ، وهو بمثابة التفسير لاقتدائهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — في مثل هذه المواطن — الذى أجمله في الآية السابقة ، وهو كذلك بيان لظن المؤمنين بالله عز وجل ، حين ابتلوا وزلزلوا زلزالا شديدا ، وهو الظن الذى لا ينبغى أن يصدر غيره من المؤمنين في الله عز وجل ، وليس ظنا يقف عند حد التجويز الراجح ، بل هو الجزم واليقين ، فالظن كثيرا ما يطلق في القرآن الكريم ، ويراد به اليقين ، كما في قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون) (١) .

. . .

---

(١) سورة البقرة ٤٥ ، ٤٦ .

كانت الأخبار قد وصلت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بما أجمعت عليه قريش وحلفاؤها من غزو المسلمين ، فسارع المسلمون الى حفر الخندق ، فلما جاءت الأحزاب بجموعها الكثيفة ، أيقن المؤمنون بهول الخطب ، وشدة الموقف ، وتذكروا وعد الله عز وجل ، ووعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، فالله عز وجل قد أنزل قبل ذلك فى سورة البقرة قوله : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب) (١، ٢) فأخبرهم سبحانه فى هذه الآية ، أن دخولهم الجنة ، لن يكون حتى يبتلوا بمثل ما ابتلى به من قبلهم من البأساء والضراء .

كما أخبرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بأن الابتلاء والامتحان اذا قوبل بالصبر ، يعقبه النصر والظفر والأمان ، وذلك فيما يرويه خباب ابن الأرت ، قال : شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة — قلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ ، قال (٣) : "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك

---

(١) سورة البقرة ٢١٤ .

(٢) ذكر ابن جرير فى تفسيره عن ابن عباس وقتادة : أن آية سورة البقرة المذكورة هى المشار اليها فى قوله تعالى (هذا ما وعدنا الله ورسوله ...) هـ ٢١/١٤٤ بتصرف .

(٣) وفى رواية أخرى للبخارى أيضا : فقعد وهو محمر وجهه ، فقال ... ٥/٥٦ .

عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه . والله ليتمن[1] هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف الا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "[2].

ففى كل من الآية والحديث ، اخبار من الله سبحانه ومن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، بأنه لابد من البلاء للمؤمنين ، لما فيه من كمال الاختبار والتمحيص ، وفى ذلك أيضا يقول جل شأنه : (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)[3].

ومن وعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم لهم بالنصر والفتح ، ما بشرهم به فى الغزوة نفسها ، لما ضرب الصخرة بالمعول ثلاث ضربات ، فبرق من كل منها برقة ، أراه الله سبحانه منها مواقع النصر التى سيفتحها على يد أمته ، فبشرهم بذلك[4] . وعلى هذا فقد وعد المؤمنون النصر والفتح مع الشدة والبلاء ، اذا قوبلا بالصبر والثبات .

---

(١) وفى الرواية الأخرى : وليتمن الله هذا الأمر ... " ٥٧/٥ .

(٢) صحيح البخارى : كتاب المناقب ٢٤٤/٤.

(٣) سورة العنكبوت ١ — ٣ .

(٤) أنظر سيرة ابن هشام ٢ / ٢١٩ وامتاع الأسماع ١ / ٢٢٣ وتاريخ الطبرى ٥٦٩/٢ .

ولما طلعت عليهم الأحزاب ، فى عددهم وعددهم ((قالوا هـــذا ما وعدنا الله ورسوله)) ، وأيقنوا أن ذلك مما وعدهم الله سبحانه بـه من البلاء ، الذى يحمل معه بشارة الفرج والنصر ، ولذلك قالـوا : ((وصدق الله ورسوله)) : أى ظهر الصدق بتحقق الوعد ، ((وما زادهم الا ايمانا وتسليما)) : أى وما ازدادوا بذلك الا ايمانا باللـه عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبصدق الوعد ، وصبرا عـلى البلاء ، وتسليما لقضاء الله سبحانه وقدره ، وانقيادا وطاعة وخضوعا .

وأين هذا من قول المنافقين ومرضى القلوب ، الذى حكاه اللـه سبحانه عنهم بقوله : ((ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا)) ؟ ولكـــن لا غرابة فأولئك هم المنافقون ومن سار على دربهم ، وهؤلاء هـــم المؤمنون .

* * *

<u>المناسبة :</u>

ولما أثنى الله عز وجل على المؤمنين ، بما أظهروه ساعة الشـــدة من كمال الايمان والتسليم ، أردف ذلك بالثناء عليهم بصدق العهد ، ليكون فى كل ذلك تدليل على أنهم أهل لنصر الله عز وجل وتأييـده ، فقال تعالى : ((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا/٢٣)) وهذا الثنـــاء الحاصل للمؤمنين فى هذه الآية بصدق العهد ، يجئ فى مقابـــل ذم المنافقين بنقض العهد ، الذى كانوا أعطوه على أنفسهم أن لا يولـوا

الأدبار : ((ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار)) .

والمراد بالصدق هنا : القيام بما يجب وكما يجب ، وذلك أن الصدق والكذب كما يستعملان في الأقوال ، كذلك " يستعملان في أفعال الجوارح ، فيقال : صدق في القتال ، اذا وفى حقه وفعل ما يجب وكما يجب . وكذب في القتال ، اذا كان بخلاف ذلك ، قال : ((رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)) : أي حققوا العهد بما أظهروه من فعالهم[1]" .

وهؤلاء المؤمنون قد صدقوا في القتال ، بثباتهم في وجه العدو ، وفعلوا ما يجب عليهم لله سبحانه ، وأيقنوا بنصره وصدق وعده . وعلى هذا يكون معنى العهد : مايلزمهم — بمقتضى ايمانهم — القيام به واعتقاده . وهؤلاء المؤمنون قد قاموا بما ألزمهم الله به ، مما يقتضيه موقف الجهاد وغيره .

ومن الحق الواجب عليهم الذى ألزمهم الله تعالى به ، ما تضمنه قوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار[2]) وقوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون[3]) وأيقنوا بنصر الله الذى وعدهم به في مثل قوله

---

(١) ~~مفردات الراغب ٢٧٧~~ .
(٢) سورة الأنفال ١٥ .
(٣) نفس السورة ٤٥ .
(٤) سورة الروم ٤٧ .

سبحانه : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين)[١] ، وقوله عز وجل : (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا)[٢] ، وقوله جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)[٣] .

فلما لزمت المؤمنين هذه الأمور ، بمقتضى ايمانهم ، كانت بمنزلة العهد فى أعناقهم ، يجب عليهم الوفاء بها تمام الوفاء ، والقيام بها خير قيام .

" وعهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا ، وتارة يكون بما أمرنا به - بالكتاب وبالسنة - رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع ، كالنذور وما يجرى مجراها "[٤] .

والمؤمنون قد قاموا فى هذه الغزوة ، بتنفيذ ما لزمهم من الثبات وعدم الفرار ، والثقة بالله عز وجل ، وعدم الخوف من عدوه خوفا يدعو الى التراجع عن القتال ، أو النكوص عن المعركة ، كما أيقنوا بصدق وعد الله سبحانه لهم ، ووفوا حق هذه الأمور فى ساعة حرجة ، وفعلوا ما يجب كما يجب . ولا مانع من حمل العهد فى الآية على العهد الحقيقى ، ويراد به ما أعطاه الأنصار للرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الميثاق فى بيعة العقبة ، وكان هذا من سمات المهاجرين التى لا تتطلب تجديد عهد وميثاق .

---

(١) سورة الروم ٤٧ .
(٢) سورة النساء ١٤١ .
(٣) سورة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ٧ .
(٤) مفردات الراغب ٣٥٠ .

وأما عبارات المفسرين ، فلم تلتق عند معنى معين فى تفسير العهد ، وأقربها التئاما وانسجاما مع السياق ، عبارة ابن جرير ، اذ يقول — فى قوله تعالى : ((صدقوا ما عاهدوا الله عليه)) : " أوفوا بما عاهدوا عليه من الصبر على البأساء والضراء وحين البأس "[1] ، وهى أيضا أقرب العبارات عهدا بأقوال التابعين والصحابة — رضوان الله عليهم — وفيهم من عاصر أحداث هذه الغزوة .

واذا صح فى سبب نزولها ، أنها نزلت فى شخص أو أشخاص بسبب وفائهم بعهد معين ، عاهدوا الله عز وجل عليه ، فانه لا يلزم من ذلك ، أن تكون الآية قاصرة فى معناها ومدلولها على ذلك .

والأسباب التى دعت الى أن نرجح تعميم معناها حسب السياق، دون قصرها على حادثة معينة ، سأذكرها ان شاء الله بعد ذكر الرواية التى يذكر فيها سبب النزول .

روى البخارى عن أنس بن مالك ، قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن الله أشهدنى قتال المشركين ، ليرين الله ما أصنع . فلما كان يوم " أحد " ، وانكشف المسلمون ، قال : اللهم انى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء — يعنى أصحابه — ، وأبرأ اليك مما صنع هؤلاء — يعنى المشركين — ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : ياسعد بن معاذ الجنة،

---

(١) تفسير ابن جرير ٢١/١٤٥ .

ورب النضر ، انى أجد ريحها من دون " أحد " . قال سعد : فما استطعت يارسول الله ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين : ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد الا اخته ببنانه ، قال أنس : كنا نرى أو نظن ، أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه : ((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)) ... الحديث "[1] .

أما الأسباب التى تجعلنا نحمل العهد على ما هو أعم من قصرها على حادثة معينة — وهو المعنى الذى أشار اليه ابن جرير فى عبارته المتقدمة — ، فهى ما يأتى :

١ — قول أنس بن مالك رضى الله عنه : كنا نرى أو نظن . وهذه العبارة لا تدل على الجزم ، بأنها نزلت فيه دون غيره ، فيكون المعنى : أنهم كانوا يرونه أحق من تنطبق عليه الآية المذكورة .

٢ — قول أنس أيضا : نزلت فيه وفى أشباهه . فقوله : وفى أشباهه ، يعنى كل من أبلى بلاء حسنا[2] فى سبيل الله تعالى ، وقد أثنى الله عز وجل على المؤمنين أنهم كانوا كذلك فى " الأحزاب " بقوله : ((ولما رأى المؤمنون الأحزاب ... الآية)) .

---

(١) البخارى : كتاب الجهاد ٢٣/٤ ، واللفظ له. ومسلم : كتاب الامارة ١٥١٢/٣ .

(٢) يقال : أبلاه الله يبليه ابلاء حسنا : اذا صنع صنعا جميلا . من اللسان ٨٤/١٤ وجاء فى مسند أحمد ٣٣٢/٥ من رواية سهل بن سعد قال : كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل فى بعض مغازيه ، فأبلى بلاء حسنا ... الحديث .

٣ ـ أن الله عز وجل ذكر هذه الآية : ((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... الآية)) في سورة " الأحزاب " ، مع أن قصة أنس بن النضر كانت في "أحد" ، وقصة "أحد" جاءت في سورة " آل عمران " .

وقد جاءت هذه الآية أيضا بعد ثناء الله تعالى على المؤمنين ، بسبب ايمانهم وثباتهم ، وتسليمهم لحكم الله تعالى ، عندما رأوا جموع " الأحزاب " مما يدل دلالة واضحة على أن المراد بها الثناء على موقف المؤمنين هنا ، وأنهم بموقفهم هذا صاروا أشباه أنس ابن النضر ، في صدق العهد والوفاء ، فشملهم جميعا هذا الثناء من الله عز وجل .

٤ ـ ما روي : أنه لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم " أحد " مر على مصعب بن عمير مقتولا على طريقه ، فقرأ : ((من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... الآية))(١) " .

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٣/٢٠٠ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح .

(*) الحاكم ٣٢١ ـ ٤٠٥ هو محمد بن عبدالله بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري ، الشهير بالحاكم ، ويعرف بابن البيع ، أبو عبدالله : من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه . مولده ووفاته في نيسابور . من تصانيفه ، " المستدرك على الصحيحين " و " الاكليل " و " المدخل " و " معرفة علوم الحديث " .

(*) الذهبي : ٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، شمس الدين ، أبو عبدالله : حافظ ، مؤرخ ، علامة محقق . تركماني الأصل ، من أهل ميافارقين . مولده ووفاته في دمشق . من تصانيفه : " سير النبلاء " و " تذكرة الحفاظ " و " طبقات القراء " ، و " ميزان الاعتدال في نقد الرجال " .

وهذا أيضا دليل على أن قوله : " كنا نرى أنها نزلت فيه وفى أشباهه " ، لا يقصد به الا أن أنس بن النضر ، مثل لمن يستحق الثناء بمدلول هذه الآية ، وأنها صادقة فى أمثاله وأشباهه ، من كل من صدق الله عز وجل ، ووفى بما عليه لله ، كالذين نزلت فيهم يوم " الأحزاب " وكانوا خير مثال للصبر والثبات والوفاء ، عند الشدة والبلاء .

والآية التى تلى هذه ، تؤكد أيضا أن المؤمنين الذين ثبتوا يوم " الأحزاب " يشملهم الوصف بقوله تعالى - فى هذه الآية - ((صدقوا ما عاهدوا الله عليه)) ، لأن الآية التالية ذكرتهم أيضا بصفة الصدق ، كما ذكرت فى مقابلهم المنافقين الذين لم يثبتوا ، وسيأتى الكلام عنها ان شاء الله تعالى .

ووصف المؤمنين بالصدق ، ورد فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى ، مثل قوله جل شأنه : (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)(١) .

وكثيرا ما يأتى وصف المؤمنين بالصدق ، بعد ذكر الحالات التى يتعرضون لها من الشدة والبلاء ، وهى حالات البأساء والضراء ، وساعات الجهاد والهجرة ، ونحو ذلك .

من ذلك آية سورة البقرة السابقة ، وأولها : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ... الى

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

قوله : والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)[1] •

وقوله تعالى : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون)[2] •

• • •

وقوله تعالى : ((فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)) تنويع للصادقين فى عهدهم : صنف منهم أشار تعالى اليهم بقوله : ((فمنهم من قضى نحبه)) : والقضاء فى اللغة يطلق على عدة معان ، ترجع كلها الى انقطاع الشئ وتمامه[3] وقضاء النحب معناه : قضاء ما وجب عليه من الصبر وتحمل البلاء فى الجهاد • لأن الله عز وجل قد وصفهم جميعا بالصدق ، سواء الذى قضى نحبه ، أو الذى ينتظر •

فالكل اذا قد صدق الله عز وجل ، بتحقيق القول بالعمل ، غير أن صنفا منهم فرغ مما ألزم به نفسه وأتمه ، ولو كان حيا ، أمثال أنس بن النضر ، ومصعب بن عمير ، وطلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنهم ، فخرج بذلك من العهدة[4] •

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ •
(٢) سورة الحجرات ١٥ •
(٣) قال الأزهرى : القضاء فى اللغة على وجوه ، مرجعها الى انقطاع الشئ وتمامه ••• من اللسان : ١٥/١٨٦ •
(٤) هذا خلاصة رأى ابن جرير ٢١/١٤٥ •

ومنهم — وهم الصنف الثاني — من لايزال حافظا للعهد ، قائمـا برعايته ، حتى يلحق بمن مضى .

ونكون بذلك قد أوضحنا معنى قوله تعالى : ((ومنهم من ينتظـر)) وهم الصنف الثاني من الصادقين في العهد ، وهم الذين ينتظرون الاتمام والفراغ من العهد ، فلا يزالون قائمين بحق العهد ، حافظين لـه ، حتى يلحقوا بمن مضى على الوفاء بالعهد لله تعالى .(١)

وقوله سبحانه : ((وما بدلوا تبديلا)) فيه مدح للمؤمنين بكمال الوفاء وعدم التبديل والتغيير . والعطف في قوله : ((وما بدلوا)) على قولـه : ((صدقوا)) — وفيه تأكيد للوصف بالصدق وهو المعطوف عليه ، لأن المعطوف ، وهو ((وما بدلوا)) يتضمن معنى صدقوا — فهو شامـل للقسمين جميعا : الذين قضوا ، والذين ينتظرون ، أما الذين قضـوا نحبهم فظاهر في حقهم عدم التبديل ، وأما الذين ينتظرون فلعلم اللـه سبحانه ، أنه لن يجئ منهم فيما يستقبلون تغيير ولا تبديل ، وأنهـم سيظلون على الوفاء ، حتى يلقوا ربهم .

بل قد ورد في طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، أنه ممن قضى نحبه ، روى الترمذي عن موسى بن طلحة ، قال : دخلت على معاوية ، فقـال : ألا أبشرك ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : "طلحة

---

(١) ذهب الى هذا المعنى ابن جرير ، وعزاه الى قتادة ومجاهد ٢١/١٤٦ .

من قضى نحبه[1] " ومعلوم أنه عاش الى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قال المناوى — تعليقاً على حديث : " طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض"[2] — ما لفظه : " أى حكمه حكم من ذاق الموت فى سبيل الله ، لأنه جعل نفسه يوم أحد ، وقاية للنبى صلى الله عليه وآله وسلم من الكفار وطابت نفسه لكونه فداء ، وقد رأى الأمر عياناً ، وأصيب يومئذ ببضع وثمانين طعنه وضربة

---

(١) رواه الترمذى : كتاب المناقب ٥/٦٤٤ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث معاوية الا من هذا الوجه . وفى سنده اسحق بن يحيى بن طلحة . قال عنه ابن حجر فى التقريب : ضعيف ١/٥١٥ . وابن ماجه ١/٤٦ وعزاه السيوطى فى الجامع الصغير الى ابن عساكر وجزم بصحته ٢/٦٨ .
وروى الواحدى فى أسباب النزول ، عن على رضى الله عنه ، لما قالوا له : أخبرنا عن طلحة . قال : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى : ((فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر)) طلحة ممن قضى نحبه ، لاحساب عليه فيما يستقبل . وروى أيضا عن عيسى بن طلحة ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم مر عليه طلحة ، فقال : " هذا ممن قضى نحبه " ٢٠٢ — ٢٠٣ .
(*) ابن عساكر ٤٩٩ — ٥٧١ هـ هو على بن الحسن بن هبة الله ، أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقى : المؤرخ الحافظ الرحالة مولده ووفاته فى دمشق ، من مصنفاته " الاشراف على معرفة الأطراف" و " كشف المغطى فى فضل الموطأ " و " معجم الصحابة " .
(*) السيوطى ٨٤٩ — ٩١١ هـ هو عبدالرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيرى السيوطى ، جلال الدين : امام حافظ مؤرخ أديب نشأ فى القاهرة يتيما . من مصنفاته : " الاتقان فى علوم القرآن " و " الأشباه والنظائر " فى العربية و " الأشباه والنظائر " فى فروع الشافعية ... " الجامع الصغير " و " الدر المنثور فى التفسير بالمأثور " .
(٢) وهو من رواية ابن ماجه ١/٤٦ وفيه الصلت الأزدى . قال عنه ابن حجر فى التقريب : متروك ، وناصبى ١/٣٦٩ .
(*) المناوى ٩٥٢ — ١٠٣١ هـ هو محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن على بن زين العابدين ، الحدادى ثم المناوى القاهرى ، زين الدين ، من كبار العلماء بالدين والفنون . عاش فى القاهرة وتوفى فيها . من كتبه " فيض القدير " شرح الجامع الصغير و " شرح الشمائل للترمذى " و " اليواقيت والدرر فى الحديث " .

وعقر فى سائر جسده حتى فى ذكره ... "[1].

وهذه الشهادة له من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، بأنه قد وفى بما عليه لله سبحانه ، لما سبق فى علم الله سبحانه أنه لن يجرى من أمثاله تغيير ولا تبديل فيما يستقبل من حياته . ذلك أن من حباه الله سبحانه وأولاه من عظيم نعمه ، وكان مقدرا لهذه النعم حق قدرها ، كان من أشد الناس ورعا وتقوى ، وأكثرهم عبادة وشكرا لله تعالى ، على ما أولاه من نعمه.

ومن أجل ذلك أجاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عائشة رضى الله عنها — لما رأته يقوم الليل حتى تفطرت قدماه ، فقالت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ — بقوله : " أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا "[2] ؟

ويأتى نفى التبديل عنهم مطلقا ، غير مقيد بأمر معين ، للدلالة على عدم التبديل والتغيير فى أمر الدين كله : أى لم يحصل منهم شك ولا تبديل ولا تغيير فى شئ من أمر الدين ، ولم يستبدلوا به ولا بشئ منه غيره ، بل استمروا على الاستمساك به . ويؤيد هذا تأكيد الفعل بالمصدر.

. . .

---

(١) فيض القدير ٤/٢٧٠ .

(٢) رواه البخارى : كتاب التفسير ٦/١٦٩ .

المناسبة :

ولما كان الغرض من هذا البلاء العظيم ، هو الاختبار والامتحان ، الذى به يتميز الصادق من غيره ، تميزا يرتب الله سبحانه عليه الجزاء ، حسب ما يقتضيه موقف كل من الصادق وغير الصادق ، قال الله عز وجل – مبينا ذلك – : ((ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما/٢٤)) ، فاللام فى قوله تعالى : ((ليجزى)) لام التعليل ، وهى متعلقة بمحذوف ، كأنه قيل : وقع ما وقع ليجزى الله الصادقين ...(١) وفى هذا اشعار بكمال الحكمة الالهية ، وان ما جرى للمؤمنين من المحنة ، لم يكن عبثا خاليا من الحكمة ، بل لـه غاية جليلة ، هى الكشف عن حقيقة المؤمنين الصادقين ، والمنافقين الماكرين ، والمرتابين المترددين ، لأنه لابد للمجتمع المسلم من التمحيص بالبلاء ، ليتميز فيه الذهب الخالص من الغثاء ، حتى تقوم قواعده على أسس سليمة .

والجزاء الموعود به من الله عز وجل ، متحقق الوقوع ، ولذا نرى ، أن الحق جل وعلا ، كثيرا ما يعبر عن أحوال القيامة بالماضى ، ولعل السر فى التعبير بالمضارع هنا ، لاستحضار صورته ، حتى كأنه – لتحقيق وقوعه – مشاهد .

والتصريح بقوله تعالى : ((بصدقهم)) مع أنه يقتضيه تعليق الحكم

---

(١) تفسير أبى السعود ٤١٢/٤ .

بالمشتق ، اعتناء بأمر الصدق[1] ، وللدلالة على أن الصدق فى مثل هـذا الموقف — موقف البلاء والمحنة ، وموقف الوفاء الذى مدحهم الله به — هو جماع الفضائل ، ولذلك لما حصر الله تعالى الايمان فيمن آمن دون ريب وجاهد فى سبيله بقوله : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) ختم الآية بقصر الصدق عليهم ، فقال : (أولئك هم الصادقون)[2] .

وأما فى قوله : ((ويعذب المنافقين)) فاكتفى بالتعليق ، ولم يقل : بنفاقهم ، للاشارة الى أن النفاق هو الأصل فى استحقاقهم العذاب[3] ولا داعى الى خلافه ، وكفى به اثما . كما أن فيه الاشارة الى تغليب جانب الرحمة على جانب العذاب .

وأما تعليق ذلك بمشيئته تعالى ، فى قوله : ((ان شاء)) فللاشارة الى أن الأمر كله مفوض اليه تعالى ، وأن مشيئته تعالى مطلقة غير مقيدة بشىء ، فهو الذى يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل .

---

(١) تفسير الآلوسى ٢١/١٧٢ بتصرف .
(٢) سورة الحجرات ١٥ .
(٣) تفسير الآلوسى ٢١/١٧٢ بتصرف .

(*) الآلوسى ١٢١٧ — ١٢٧٠ هـ هو محمود بن عبد الله الحسينى الآلوسى ، شهاب الدين ، أبو الثنا : مفسر ، محدث ، أديب ، من المجددين ، من أهل بغداد ، مولده ووفاته فيها ، كان سلفى الاعتقاد ، مجتهداً .

من كتبه : " روح المعانى " فى التفسير ، و " دقائق التفسير " .

وعلق العذاب على المشيئة دون الرحمة ، اشعارا بأن الرحمة مقصودة لذاتها ، بخلاف العذاب.(١) وفى التذييل بقوله : ((ان الله كان غفورا رحيما)) بعث على التوبة ،(٢) وأنه لا ينبغى أن ييأس من رحمة الله أحد ، وأن المنافقين لو تابوا ورجعوا الى ربهم لشملتهم رحمة الله ومغفرته ، وللاشارة الى أن رحمته الغالبة ، وأنها سبقت غضبه سبحانه .

... ...

---

(١) تفسير الآلوسى ١٧٢/٢١ بتصرف .
(٢) تفسير أبى السعود ٤١٢/٤ .

البحث الحادى عشر

ثمرة موقف كل من الفريقين

المناسبة :

ولما ذكر الله سبحانه استحقاق الصادقين لحسن الجزاء ، واستحقاق المنافقين للعذاب ، أردف ذلك بذكر ما نال المؤمنين من الجزاء العاجل ، وهو النصر الذى جاءهم من عند الله تعالى ، فالمؤمنون لما صدقوا فى صبرهم وثباتهم ، ووفائهم بما عليهم لله تعالى ، استحقوا منه النصر فى العاجلة ، والتمكين فى الأرض ، وحسن المثوبة فى الآجلة ، وهذا النصر الذى امتن الله به على المؤمنين ، هو كذلك عذاب عاجل للمنافقين فى الدنيا ، فإن المنافقين كانوا يتربصون الدوائر بالمؤمنين ، وكانوا يودون انتصار اخوانهم الكافرين ، فالمساءة التى أصابت الكافرين ، يشاركهم فيها المنافقون . فقال عز وجل : ((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا /٢٥)) .

فالعطف فى قوله سبحانه : ((ورد الله)) على قوله : ((ليجزى)) وانما ساغ عطف الماضى على المضارع ، لأن المضارع فى قوله : ((يجزى)) ماض فى المعنى ، من حيث أن وعد الله متحقق الوقوع ، فكأنه عطف ماض على ماض . وهذا الربط بين الآيتين أنسب من غيره ، نظرا لما يقتضيه السياق .

وهذا الذى ذكره الله عز وجل فى ختام الحديث عن "الأحزاب" نعمة عظيمة ، يمتن الله سبحانه بها على المؤمنين الصادقين ، فقد جاءت

باليسر بعد العسر ، والفرج بعد الشدة ، واندحرت الجموع الهائلة ، دون أن تنال أى خير فى زعمها ، ولم يحوج الله سبحانه عباده المؤمنين الى مقاتلة تلك الجموع ، وان كان قد حصل فى الجملة قتال ومبارزة ومراماة ، غير أنه يسير لا يذكر بجانب ذلك الجمع الهائل ، فالقتال الذى كفى الله المؤمنين اياه ، هو القتال على مستوى "الأحزاب" ، وكثرتها وكثافتها .

وقوله تعالى : ((ورد الله الذين كفروا)) : يعنى "الأحزاب" ، وهو شامل لمن جاء من خارج المدينة ، كقريش وغطفان وحلفائهما ، ولقريظة التى كانت تشكل خطرا على المؤمنين من الداخل ، ولا يقال : هذا خاص بمن عدا قريظة ، لأن قريظة لم تنهزم الا بعد الحصار والاستسلام . بل الواقع أن اندحار "الأحزاب" كان بداية الهزيمة لقريظة ، فقد كانت قريظة تعلم أنها اذا نقضت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العهد ، فانه يوم يهزم الأحزاب ، سوف تكون تلك نهايتها على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، الذين لا قدرة لها بالوقوف فى وجوههم ، يوم تصبح وحدها فى الميدان .

وقوله تعالى : ((بغيظهم)) الباء للملابسة ، وهو فى موضع الحال : والمعنى أن الله تعالى ردهم متلبسين بغيظهم ، كأن الغيظ لشدته شملهم واختلط بكل ذرة فى أجسامهم ، وبعبارة أخرى : انهم بتجمعهم ، وتحزبهم ، وتكتلهم على المؤمنين ، لم يزيلوا غيظهم ، ولم يذهبوا حنقهم ، بل ردهم الله بما هم عليه من الغيظ والحنق ، بدليل قوله سبحانه بعد : ((لم ينالوا خيرا)) فانهم لو نالوا من المؤمنين شيئا ، لشفت قلوبهم من الغيظ ، وعلى هذا يكون قوله : ((لم ينالوا خيرا)) حالا من التى قبلها ،

من باب التداخل ، وهى تفيد التأكيد ، فاذهاب الغيظ ، كنايــة عن النيل من العدو ، حتى يصيبه الذل والهوان . والكفار هنا لـم يذهب شيء من غيظهم ، بل رجعوا به ، لأنهم لم ينالوا من عدوهم شيئا .

والمراد بالخير هنا : الخير فى زعم "الأحزاب" ، وهو النيـل من المؤمنين .

ومكان النعمة التى يدرك المؤمنون أثرها ، يذكره الله عز وجـل فى قوله : ((وكفى الله المؤمنين القتال)) وهم بذلك يتصورون جسامة الموقف ، لو أن الله سبحانه أحوجهم الى قتال تلك الجموع الهائلة ، وبالتالى يتصورون عظم النعمة ، نعمة النصر لهم ، والهزيمة للأعداء ، دون قتال ، بل بريح وجنود أرسلهما الله سبحانه على الكافريــن ، ردتهم على أعقابهم مدحورين ، ولا غرابة فان ذلك حاصل بقوة اللـه التى لا تغلب ، وعزته التى لا تقهر ، ((وكان الله قويا عزيزا)) لمـا كان النصر والغلبة — الحاصلين بمحض فضل الله سبحانه — من مظاهر العزة والقوة ، ختم الله سبحانه هذه الآية — التى ذكر فيها نصـره للمؤمنين ، ودحره للكافرين — بقوله : ((وكان الله قويا عزيزا)) والقـوة فى حقه تعالى ، تقتضى القدرة (١) على فعل ما يشاء ، فلا يحول شـيء دون ما يريد فعله . والعزة تقتضى الغلبة والقهر ، وشدة الانتقـام ،

---

(١) ذكر الراغب — من المعانى التى تستعمل فيها القوة — القـدرة الالهية ، واستشهد بالآية المذكورة ، ص ٤١٩ .

وكل هذه المعانى ، واردة فى هذا السياق . وهذا تذكير للمؤمنين بما يجب أن يكونوا عليه لتقوى عزائمهم وتشتد سواعدهم فى الجهاد فى سبيل الله .

. . .

وقد كانت هذه الغزوة آخر الغزوات ، التى غزا فيها المشركون المؤمنين ، ووقف فيها المؤمنون فيها موقف الدفاع عن أنفسهم . وكان المشركون يظنون أن الحرب ستظل بينهم وبين المؤمنين هكذا سجالا (١) : ينتصرون تارة ويغلبون أخرى ، حتى جمعوا آخر الأمر جمعا ، ظنوا أنهم به لن يغلبوا ، وأنهم سيخوضون بهذا الجمع آخر معركة تستأصل المؤمنين ، وتأتى على دعوة المسلمين من أساسها ، ليعود السلطان من جديد للشرك والطغيان ، غير أن الله عز وجل — القوى الذى لا يعجز ، والعزيز الذى لا يغلب ، مهما بلغ مكر الماكرين ، وكيد الكائدين — يبدد ذلك الكيد الذى عزم عليه "الأحزاب" : (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وان كان مكرهم لتزول منه الجبال)(٢).

ذلك أن الله سبحانه ، قد شاء أن ينتهى سلطان الشرك والخرافة والطغيان ، وأن يبدد ظلام الجاهلية ، وأن يعز دينه ويعلى كلمته ، ويمكن للمؤمنين فى الأرض ، وفى ذلك يقول جل شأنه : (يريدون ليطفئوا

---

(١) فى اللسان : وفى حديث أبى سفيان : أن هرقل سأله عن الحرب بينه وبين النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال له : الحرب بيننا سجال ، معناه : انا ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى .. . جـ١١/ ٣٢٥ .

(٢) سورة ابراهيم ٤٦ .

نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)[1] ويقول سبحانه : (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)[2] •

فخاب كل أمل للمشركين بعد ذلك ، ولم يبق لهم طمع فى المؤمنين ، فلم يجرؤوا بعدها أن يغزوا المؤمنين فى عقر دارهم ، وعلم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذه النفسية اليائسة المنهزمة ، التى رجع بها المشركون ، فقال لأصحابه — بعد هزيمة "الأحزاب" — : "الآن نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم"[3] ، وكان الأمر كذلك ، فان قريشا بعدها لم تغز المسلمين ، بل غزاهم المسلمون • وأول ما حدث بعد غزوة "الأحزاب" ، أن غزا المسلمون "بنى قريظة" فى عقر دارها ثم خيبر فى فترة صلح الحديبية ، التى كانت فتحا من الله تعالى للمؤمنين ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشا فى عقر دارها ، حين أذن الله سبحانه بفتح مكة على أيدى عباده المؤمنين ، بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية ، الذى عقدوه بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم •

ولجسامة هذه النعمة ، نعمة رجوع المؤمنين بالنصر ، ورجوع المشركين بالهزيمة دون قتال ، شرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) سورة الصف ٨
(٢) سورة الحج ٤٠ ، ٤١
(٣) تقدم فى ص ٥ •

ذكرا ، يقوله المؤمن كلما رجع من سفر ، يذكره هذه النعمة الجليلة ، ويذكره بالله عز وجل ، ويثبت في نفسه عقيدة التوحيد ، ويعلمه أن نعمة النصر هذه كانت بمحض فضل الله سبحانه ، وبهذا تكون من أجل النعم المستوجبة للشكر ، ذلك الذكر هو ما ثبت : "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كان اذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول : "لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم "الأحزاب" وحده"(١) ، ولهذه المناسبة ذكر الامام البخاري هذا الحديث في آخر "غزوة الأحزاب"(٢) .

... ...

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الدعوات ١٠٢/٨ ، وصحيح مسلم : كتاب الحج ٩٨٠/٢ . وقد رجح الحافظ ابن حجر في الفتح أن المراد بالأحزاب : الذين تجمعوا في غزوة الخندق ، وأنه لا يطابق من الغزوات ، لذلك الا "غزوة الأحزاب" ، لظاهر قوله تعالى : ((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال)) وقوله : ((اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها)) . انتهى ٤٤٥/١٣ بتصرف .

(*) ابن حجر العسقلاني ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل ، شهاب الدين ، ابن حجر . من أئمة العلم والتاريخ ، أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده ووفاته بالقاهرة . كان حافظ الاسلام في عصره ، قال عنه السخاوي : (انتشرت مصنفاته في حياته ، وتهادتها الملوك ، وكتبها الأكابر) .

من مصنفاته : "الاصابة في تمييز أسماء الصحابة" و "تهذيب التهذيب" و "تقريب التهذيب" و "تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة" و "لسان الميزان" .

(٢) جـ ٥ / ١٤٢ .

البحث الثاني عشر

قصة بني قريظة وهزيمتهم

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل نهاية " الأحزاب " أردف ذلك بذكر ما كان من بني قريظة (١) ، الذين ناصروا " الأحزاب " من الداخل ، ونقضوا ما كان بينهم

---

(١) قال ياقوت - في معجم البلدان - في شأن تحديد مكان " بني قريظة " والنضير :

النضير ... : اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وكانوا هم وقريظة ، نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم ، وغزوة " بني النضير " لم أر أحدا من أهل السير ، ذكر أسماء منازلهم ، وهو مما يحتاج اليه الناظر في هذا الكتاب . فبحثت فوجدت منازلهم التي غزاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، تسمى : "وادي بطحان " ... وموضع يقال له : " البويرة " .. جـ٥/٢٩٠ .

ويقول عن بطحان : " بطحان " ... : واد بالمدينة ، وهو أحد أوديتها الثلاثة ، وهي : العقيق ، وبطحان ، وقناة . قال غير واحد من أهل السير : لما قدم اليهود المدينة نزلوا السافلة ، فاستوخموها فأتوا العالية ، فنزل "بنو النضير" بطحان ، ونزل " بنو قريظة "مهزورا ، وهما واديان يهبطان من حرة هناك ، تنصب منها مياه عذبة ، فاتخذ بها " بنو النضير " الحدائق والآطام ، وأقاموا بها الى أن غزاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأخرجهم منها .. جـ١/٤٤٦ .

وقال عن " البويرة " : البويرة : ... موضع منازل " بني النضير " اليهود الذين غزاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد غزوة أحد بستة أشهر .. جـ١/٥١٢ ، ونسب القول بهذه المدة الى الزهري في ٥/٢٩١ .

قال ابن منظور في اللسان : " وبنو قريظة حي من يهود ، وهم والنضير قبيلتان من يهود خيبر ، وقد دخلوا في العرب على نسبهم الى هارون أخي موسى ، عليهما السلام ، منهم محمد بن كعب القرظي . وبنو قريظة اخوة النضير ، وهما حيان من اليهود الذين كانوا بالمدينة فأما قريظة فانهم أبيروا لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أمر بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم ، واستفاء أموالهم ، وأما بنو النضير فانهم أجلوا الى الشام ، وفيهم نزلت سورة الحشر . انتهى ٧/٤٥٦ .

(=)

وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من عهد ، فقال جل شأنه :

((وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا / ٢٦، ٢٧))

أما تفاصيل قصة بني قريظة ، فقد عنيت بها كتب السيرة ، وليس المقام مقام الحديث عن التفاصيل ، ولكنا نكتفي بالوقوف عند اشارات القرآن الكريم ، نستشف منها بعض المعاني المتعلقة بالسياق ، ونحيل تفاصيل الغزوة على مظانها .

فيهود قريظة — بعد انهزام الأحزاب — تحصنوا بحصونهم الشاهقة ، التي حسبوها مانعتهم ، وحائلة بينهم وبين المؤمنين ، ولكن الله سبحانه — القادر على كل شيء — ألقى في قلوبهم الرعب والفزع ، ثم أنزلهم من قصورهم الحصينة ، يسلمون أنفسهم لحكم من ارتضوه حكما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

يوضح ربنا عز وجل كل هذا بقوله : ((وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب) : أي عاونوا الأحزاب وناصروهم ، على حرب رسول الله صلى الله

(=)

(*) ياقوت ٥٧٤ — ٦٢٦ هـ هو ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي ، أبو عبد الله ، شهاب الدين : مؤرخ ثقة ، من أئمة الجغرافيين ، ومن العلماء باللغة والأدب . أصله من الروم ، كانت آخر رحلاته الى حلب وأقام في خان بظاهرها الى أن توفي . من كتبه : "معجم البلدان" و "ارشاد الأريب" .

عليه وآله وسلم ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من العهد ، وأشار سبحانه الى بنى قريظة هؤلاء بقوله : ((من أهل الكتاب)) ومن هنا بيانيه ، وأما ((من)) فى قوله تعالى : ((من صياصيهم)) فهى لابتداء الغاية[1] والصياصى : الحصون جمع صيصة ، "وكل ما يتحصن به يقال له : صيصة ، وبهذا النظر قيل لقرن البقر صيصة ، وللشوكة التى يقاتل بها الديك صيصة"[2] .

ويذكر الله عز وجل — بعد ذلك — سبب نزولهم واستسلامهم بقوله : ((وقذف فى قلوبهم الرعب))[3] أى ألقى فى قلوبهم الخوف من المؤمنين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قد حاصرهم ، فلما اشتد حصرهم قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) أى ابتداء الغاية المكانية ، كما فى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام) سورة الاسراء / ١ .

(٢) مفردات الراغب ٢٩١ . وانظر أيضا " مجاز القرآن " لأبى عبيدة ١٣٦/٢ .

(*) أبو عبيدة ١١٠ — ٢٠٩ هـ هو معمر بن المثنى التيمى بالولاء ، البصرى ، أبو عبيدة النحوى ، من أئمة العلم بالأدب واللغة . مولده ووفاته فى البصرة ، من مؤلفاته " مجاز القرآن " .. و " معانى القرآن " و " اعراب القرآن " .

(٣) قال الرضى : وهذه استعارة . والمراد بها : أنه تعالى ألقى الرعب فى قلوبهم من أثقل جهاته ، وعلى أقطع بغتاته . تشبيها بقذفة الحجر اذا صكت الانسان على غفلة منه . فان ذلك يكون أملأ لقلبه ، وأشد لروعه . تلخيص البيان فى مجازات القرآن : الشريف الرضى ٢٦٤ .

(*) الشريف الرضى ٣٥٩ — ٤٠٦ هـ هو محمد بن الحسين بن موسى ، أبو الحسن ، الرضى العلوى الحسينى الموسوى : أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين فيهم . مولده ووفاته ببغداد ، له : " ديوان شعر " و " المجازات النبوية " و " مجاز القرآن " ، وغير ذلك .

فاستشاروا أبالبابة بن عبد المنذر ، فأشار اليهم : انه الذبح . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ[١] .

وفي الصحيحين أنهم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فرد الحكم الى سعد[٢] .

وقدم ذكر الانزال وهو متأخر الوقوع ، على القاء الرعب ، وهو متقدم وسبب في الانزال ، ولعل النكتة في ذلك — والله أعلم — أن السرور بانزالهم أكثر ، والاخبار به أهم[٣] . ولا مانع أن يكون حصول الرعب في قلوبهم بعد الانزال من صياصيهم لما رأوا قوة المؤمنين وسطوتهم .

ثم ذكر الله عز وجل نهاية بني قريظة بقوله : ((فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)) ، وذلك تطبيق للحكم الذي أجراه الله سبحانه على لسان سعد بن معاذ — بعد أن ارتضى حكما — وهو أن تقتل المقاتلة ، وتسبى النساء والصبيان ، وتقسم الأموال ، وهو الحكم الذي انشرح له صدر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى قال فيه : " قضيت بحكم الله "[٤] .

---

(١) رواه أحمد ، عن عائشة ٦/١٤١ — ١٤٢ من حديث طويل . قال عنه الهيثمي — في مجمع الزوائد ٦/١٣٧ — ١٣٨ ، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة ، وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات .
(٢) البخاري : كتاب المغازي ٥/١٤٢ . ومسلم : كتاب الجهاد ٣/١٣٨٩ ومسند أحمد ٦/٥٦ .
(٣) تفسير الآلوسي ٢١/١٧٥ بتصرف .
(٤) البخاري : المرجع السابق . ولفظ مسلم : " لقد حكمت فيهم بحكم الله عز وجل " . المرجع السابق .

وفى قوله تعالى : ((فريقا تقتلون وتأسرون فريقا)) تقديم المفعول فى الجملة الأولى ، والفعل فى الجملة الثانية ، وفائدة ذلك – والله أعلم – أن القتل وقع على الرجال ، وكانوا مشهورين وكان الاعتناء بحالهم أهم ، لأنهم مصدر القوة والخطر ، ولم يكن هذا الاعتناء بالمفعول فى الجملة الثانية ، بل كان الاعتناء بما هو هناك أهم وهو الأسر (١) .

ولأنه لو قيل : وفريقا تأسرون ، لربما ظن بعد سماع " فريقا " أنه سيقال : تهزمون أو نحوه ، فبادر بذكر الأسر ، لافادة أنهم لم يخرجوا عن هذين الحالين : القتل والأسر (٢) .

ويذكر الله عز وجل تمام هذه النعمة بقوله : ((وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا)) / ٢٧

فقوله سبحانه : ((أورثكم)) : أى ملككم ، والأرض المراد بها : المزارع والمغارس ، وبدأ تعالى بذكرها ، لأنها أهم مصادر ثروتهم ، والمراد بالديار : المساكن ، وقدمها بالذكر على سائر أموالهم ، لأنها كانت – الى جانب كونها منازل – حصونا تحميهم من العدو ، وفيها أموالهم المدخرة ، ثم قال : ((وأموالهم)) وهو شامل لسائر أموالهم ، من الماشية والنقود ونحوهما .

وقوله عز وجل : ((وأرضا لم تطؤها)) : أى وأورثكم أرضا لم تطأها أقدامكم حتى الآن .

---

(١) تفسير الامام الرازى ٢٥/١٠٤ ، والآلوسى ، والعبارة مأخوذة منه بتصرف ٢١/١٧٥ – ١٧٦ .

(٢) الآلوسى : المرجع السابق ، وذكر أقوالا أخرى فى فائدة هذا التركيب فراجعه .

والمراد بالأرض التى لم يطؤها : كل أرض فتحها الله للمسلمين بعد ذلك الى يوم القيامة (١) ، وهو المعنى الذى يقتضيه اطلاق الآيـة . أما تفسير ذلك بأرض معينة ، فغير متعين ، وأيضا فالمقام مقام امتنان ، وهو يقتضى الشمول . وفى ذلك تبشير للمؤمنين بما سيملكهم الله عز وجـل من الفتح . وفيه أيضا اخبار بالغيب فيكون من معجزات الرسول صلى اللـه عليه وآله وسلم .

ثم جاء تذييل الآية بقوله جل شأنه : ((وكان الله على كل شىء قديرا)) أى أن الله سبحانه الذى أمكنكم من يهود قريظة على ما كانوا عليه من قوة وثروة وسلطان فى جاهليتهم . وملككم كل ما تركوا وراءهم ، هو القادر على أن يملككـم ما يشاء من أرضه الواسعة ، فلا يتعذر عليه شىء أراده ، ولا يمتنع عليـه فعل ما يشاء .

والقدير : صفة مبالغة من القادر ، ومعناه : الفعال حسب مـا تقتضيه الحكمة ، فقدرته تعالى مطلقة ، دون قدرة غيره ، أما الغير فقـد يكون قادرا من وجه عاجزا من وجوه .

وفى ختام هاتين الآيتين ، نشير الى مواقف عرضت فى غزوة "بـنى قريظة" :

---

(١) وهو المروى عن عكرمة وعروة ، من روح المعانى : للآلوسى ٢١/١٨٠ .

١ ــ يرى المتأمل في الحكمة البالغة من مبادرة غزوة "بني قريظة" في اللحظة التي لم يكد المسلمون أن يستريحوا فيها من عنت الحصار ، ووطأة الخوف والجوع ، ومكابدة المرابطة ، مع فراق الأهل والولد ، وفي اللحظة التي شعروا فيها بأنه قد أطلق لهم العنان ، ليأخذوا حظًا من الراحة والاستجمام ، اذا بمنادي الجهاد (جبريل عليه السلام) يأتي الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويستحثه للخروج والمبادرة الى العدو ، الى الذين شكلوا خطرا على المؤمنين من الداخل (١) .

ذلك العدو الذي راعه انهزام الأحزاب ، التي رجعت من الميدان مدحورة خائبة خاسرة ، وتركته وحده في الميدان ، ليلقى مصيره الأخير ، بعد كيد طويل ، ومكر متوال .

ولو أن المسلمين مالوا الى الدعة والراحة ، فان "بني قريظة" ــ وهي تحس بخطر فعلتها وغدرها ــ سوف لا تتوانى في مضاعفة التأهب والاستعداد للحرب ، وفي أن تمد عدتها وتحشد أنصارها لمواجهة المسلمين ، وحينئذ تشتد شوكتها ، وتقوى شكيمتها (٢) ، فلا

---

(١) لما رجع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخندق واغتسل ، جاءه جبريل عليه السلام ، فقال : قد وضعت السلاح ؟ والله ما وضعناه فاخرج اليهم . قال : فالى أين ؟ قال : ههنا . وأشار الى بني قريظة فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اليهم . البخاري ٥ / ١٤٢ ، ومسلم : المرجع السابق .

(٢) يقال : فلان شديد الشكيمة : اذا كان ذا عارضة وجد . من اللسان ١٢ / ٣٢٤ وقوله اذا كان ذا عارضة . قال في اللسان أيضا : وانه لذو عارضة وعارض : أي ذو جلد وصرامة ، وقدرة على الكلام مفوه ٧ / ١٨١ .

يقدر المسلمون ـ بعد ذلك ـ على التخلص منهم ، الا بثمن باهظ ،[1] وتضحيات كبيرة ، ولذلك نرى أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، لا يكتفى بمجرد الأمر لأصحابه بالخروج الى " بنى قريظة " بل يأمرهم بالمبادرة والمسارعة وتقديم ذلك على أى واجب آخر ، حتى على أداء الصلاة فى وقتها ، اذا ما عرض وقتها قبل الوصول الى " بنى قريظة " فيقول صلى الله عليه وآله وسلم : " لا يصلين أحد العصر الا فى بنى قريظة "[2] .

وسارع المؤمنون ـ كما هى عادتهم ـ الى امتثال أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، واجابة ندائه ، لينتهزوا الفرصة القائمة فرصة انهزام الأحزاب ، والرعب الذى أصاب قريظة ، من جراء ذلك .

٢ ـ أدرك بعض الصحابة رضى الله عنهم العصر ، قبل أن يصلوا الى بنى قريظة ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتى قريظة . وقال بعضهم : بل نصلى . لم يرد منا ذلك . فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يعنف أحدا منهم[3] .

ومن هذه القصة نرى ، مدى ما وصل اليه حرص الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، على التزام طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم . تعارض عليهم واجبان : واجب المبادرة الى بنى قريظة ، وواجب صلاة العصر . فاجتهدوا فى سلوك الطريق التى

---

(١) قال فى اللسان : وأمر باهظ : أى شاق ٧/٤٣٦ .
(٢) البخارى : المرجع السابق .

(٣) أنظر صحيح البخارى : كتاب المغازى ٥/١٤٣ . ومسلم : كتاب الجهاد ، بلفظ " الظهر " مكان " العصر " ٣/١٣٩١ ، والذى أثبته مأخوذ من لفظ البخارى .

يعتقدونها المرضية لله تعالى ، فمنهم من حمل الأمر على ظاهره ، فأخر صلاة العصر حتى وصل قريظة ، وصلاها بعد خروج وقتها[1] ، ومنهم من حمله على ارادة المبادرة فصلى العصر حينما أدركته الفريضة ثم واصل سيره الى "بنى قريظة" ، وكان الجميع ـ بفضل الله وكرمه ـ محل رضا عند الله تعالى وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن هنا نرى أن في هذه القصة حجة قوية ، على جواز الاجتهاد في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى حياته ، وحيث لم يكن معهم .

٣ ـ حصل لسعد بن معاذ رضى الله تعالى عنه ، بعض مزايا فى هذه الغزوة ، تجدر الاشارة اليها ، لما فيها من الفائدة والموعظة والعبرة :

أ ـ رماه رجل من قريش ، يقال له : ابن العرقة ، فأصابه فى الأكحل فكان ينزف منه الدم ، فلما رأى ذلك قال : "اللهم لا تخرج نفسى حتى تقر عينى من "بنى قريظة" . فاستمسك عرقه ، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ[2] ..." .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : أخرج الطبرانى والبيهقى فى الدلائل باسناد صحيح الى الزهرى ، عن عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه عبيد الله بن كعب (وذكر حديث الأمر بالمسير الى قريظة وفيه) : "فلم يأتوا قريظة حتى غربت الشمس ..." فتح البارى ٨/٤١٢ .

(٢) أصل الحديث فى الصحيحين ، أنظر البخارى : ٥/١٤٣ ـ ١٤٤ ، ومسلم ٣/١٣٨٩ . وورد الدعاء المذكور فى سنن الدارمى : كتاب السير ٢/٢٣٨ . وأنظر الترمذى : كتاب السير ٤/١٤٤ .

(*) الدارمى ١٨١ ـ ٢٥٥ هـ هو عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمى الدارمى السمرقندى ، أبو محمد : من حفاظ الحديث وكان عاقلا فاضلا مفسرا فقيها أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند . له "المسند" فى الحديث وكتاب "التفسير" و "الجامع الصحيح" .

وحين بدأ جرحه فى الالتئام ، وكاد يبرأ ، قال : " اللهم انك تعلم أن ليس أحد أحب الى أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك صلى الله عليه وآله وسلم وأخرجوه. اللهم فان كان بقى من حرب قريش شيء فأبقنى أجاهدهم فيك . اللهم فانى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فان كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، واجعل موتى فيها ، فانفجرت من لبته (١) ، فلم يرعهم (وفى المسجد معه خيمة من غفار) الا والدم يسيل اليهم . فقالوا : يا أهل الخيمة ما هذا الذى يأتينا من قبلكم ، فاذا سعد جرحه يغذ (٢) دما ، فمات منها (٣) ".

فنحن نرى هذه المكرمة العظيمة ، لهذا الرجل العظيم : أقر الله عينه فى " بنى قريظة " وأجرى على لسانه ما يريده من الحكم فيهم كما استجاب سبحانه دعوته أيضا حين قبضه اليه ، ليتم له نيل درجة الشهادة ، حين يكون موته بسبب تلك الرمية التى أصابت أكحله ، وهو مرابط فى سبيل الله . ونلمس من دعوات سعد رضى الله عنه ، أنه لم يدع الله عز وجل أن يبقيه ، ليضاعف من متعة هذه الحياة الدانية ، أو ليسلم من الموت : الأجل المحتوم ، وانما يريد الحياة ليصرفها فى مرضاة ربه سبحانه ، من أجل أن يقر عينه فى " بنى

---

(١) فى اللسان : اللبة : وسط الصدر والمنحر ، والجمع لبات ولباب ١ / ٧٣ .

(٢) فى اللسان : غذ العرق يغذ غذا وأغذ : سال . وغذ الجرح يغذ غذا : ورم ... قال الأزهرى ... غذ الجرح : اذا سال ما فيه من قيح وصديد ٣ / ٥٠١ .

(٣) صحيح البخارى : ٥ / ١٤٤ وصحيح مسلم : ٣ / ١٣٩٠ .

قريظة " ، وقد كانوا حلفاءه . وليشارك الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في قتال المشركين ان كان بقي من حربهم شيء ، لأنهم حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخرجوه من مكة .

ب ــ لما أصبح سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه حكما في " بني قريظة " سمع شفاعة قومه من الأوس لهم ، ورجاءهم في أن يرفق بهم ، وذكروه ما بينهم وبينه من العهد ، لعله يرفق بهم ، قال : " لقد أنى[1] لي أن لا أبالي في الله لومة لائم[2] " .

وقد كان سعد رضي الله عنه ، على علم بمواقف اليهود السيئة ، وأن بقاءهم يعرض المسلمين لمخاطر أخرى ، وأنه ــ بعد التجارب المريرة معهم ــ لا أمانة ولا ذمة لليهود ، فقد جبلوا على اخفار[3] عهودهم ، ونكث ميثاقهم دون مبالاة ، لذلك لم تهزه العاطفة ، أو تستميله العلاقة السابقة ، بينه وبين يهود ، حتى يكونوا محل رحمة وعطف ، وانما حكم فيهم بما يراهم أهلا له ، وبما يراه أيضا أقرب الى مرضاة الله ، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

... ...

---

(١) قال في اللسان : أني الشيء يأني أنيا واني وأنى ، وهو أني : حان وأدرك ١٤/٤٨ .

(٢) مسند أحمد ٦/١٤٣ ومجمع الزوائد : الهيثمي ٦/١٣٨ ، قال عنه الهيثمي : فيه محمد بن عمرو بن علقمة حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) في اللسان : أخفره : نقض عهده وخاس به وغدره . وأخفر الذمة : لم يف بها ٤/٢٥٣ .

(*) الهيثمي ٧٣٥ـ٨٠٧ هـ هو علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي ، أبو الحسن ، نور الدين ، المصري ، القاهري : حافظ . له كتب وتخاريج في الحديث ، منها " مجمع الزوائد ومنبع الفوائد " و"ترتيب الثقات لابن حبان " .

البحث الثالث عشر

دروس فى التربية لأمهات المؤمنين ونساء المسلمين

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل نهاية "بنى قريظة" ، وهى من الغزوات التى أفاء الله عز وجل فيها على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أموالا كثيرة ، ناسب أن يذكر الحق تبارك وتعالى قصة أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم معه ، وقد استشرفت نفوسهن الى شىء من ذلك المال ، وطالبنه بالنفقة رغبة فى التزيد من الدنيا ، والحصول على حظ منها للتمتع به ، بعد أن رأين الأموال تساق الى المسلمين ، ويدرك نساؤهم حظا منها ، فقال جل شأنه : ((يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ٢٨/٢٩)).

ومما ورد فى السنة الصحيحة ، فى سبب النزول ، حديث جابر رضى الله عنه عند مسلم ، قال : " دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فوجد الناس جلوسا ببابه ، لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبى بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبى صلى الله عليه وآله وسلم جالسا حوله نساؤه ، واجما ساكتا (١) ، قال : فقال : لأقولن شيئا أضحك النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : يارسول الله لو رأيت بنت خارجة (٢) سألتنى النفقة ، فقمت اليها فوجأت عنقها . فضحك

---

(١) الوجوم : السكوت على غيظ ... والواجم : الذى اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . من اللسان ١٢/٦٣٠ .

(٢) لعل المراد بها عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، واشتبه اسم خارجة على بعض الرواة ببنت خارجة بن زيد زوجة أبى بكر .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال : " هن حولى — كما ترى — يسألننى النفقة " . فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، شيئا أبدا ليس عنده . ثم اعتزلهن شهرا ، أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية :((يا أيها النبى قل لأزواجك — حتى بلغ — للمحسنات منكن أجرا عظيما)) قال : فبدأ بعائشة فقال : يا عائشة انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك " قالت : وما هو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية : قالت : أفيك يارسول الله استشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت . قال : " لا تسألنى امرأة منهن الا أخبرتها . ان الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا (١) ، ولكن بعثنى معلما ميسرا " (٢) .

فهذا الذى صدر من أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ، كان منبعه الطبيعة البشرية ، التى قد تملكهن أحيانا ، كما تملك سائر النساء ، غير أنهن يتميزن على سائر النساء ، فى أن هذه الطبيعة ، اذا ما قوبلت بالتهذيب والتقويم من جانب رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) قال فى اللسان : قال ابن الانبارى : أصل التعنت : التشديد . فاذا قالت العرب : فلان يتعنت فلانا ويعنته ، فمرادهم يشدد عليه ، ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه ، قال : ثم نقلت الى معنى الهلاك ، والأصل ما وصفنا ٢/٦١ .
(٢) صحيح مسلم : كتاب الطلاق ٢/١١٠٤ — ١١٠٥ .

وسلم سرعان[1] ما تهذب وتقوم ، لتصبح دائما فى المستوى الرفيع الذى يليق بهن ، باعتبارهن زوجات خير خلق الله تعالى ، وأمهات المؤمنين .

ولما سألن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما سألن من أمر الدنيا وقف صلى الله عليه وآله وسلم من طلبهن الموقف الذى تقتضيه التربية اللازمة لمثلهن ، وهو الموقف الذى صورته الآيتان المذكورتان ، وفصله حديث جابر رضى الله عنه المتقدم .

ومهما يكن من شىء ، فان أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ، قد وصلن — بفضل الله سبحانه ثم بصفاء التربية التى تلقينها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — مكانة رفيعة ، فى السلوك الحسن ، والسيرة الحميدة ، وضربن أروع الأمثلة فيما ينبغى أن يكن عليه من الخلق ، الذى تقتضيه مكانتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد استمر القرآن الكريم يهذب ويربى نفوس المؤمنين ثلاثة وعشرين عاما ، حتى سما بها الى مكانة رفيعة ، وأصبحوا حجة على من بعدهم ممن الذين تستولى عليهم شهواتهم وأهواؤهم ، ويعجزون عن الترفع عن دنايا الأمور وسفاسفها[2] . ولم يكن هؤلاء المؤمنون من نوع آخر غير البشر ، بل كانوا بشرا لهم من الغرائز والدوافع الفطرية ما لسائر البشر ، ولم يكن هناك

---

(١) قال فى اللسان : وسرع ما فعلت ذاك وسرع وسرع وسرعان ما يكون ذاك ... وتقول أيضا سرعان وسرعان كله اسم للفعل كشتان ١٥٢/٨ .
(٢) والسفساف : الردىء من كل شىء ، والأمر الحقير ، وكل عمل دون الاحكام سفساف . من اللسان ١٥٥/٩ .

فارق سوى قوة الايمان التي كانت بمحض الاستجابة والخضوع الكامل لأحكام الشرع ، والسعى وراء معالى الأمور ، وتهذيب الغرائز والدوافع طبقا لأحكام الشرع وآدابه ، والثقة بما عند الله تعالى ، وايثاره على ما في هذه الحياة الدنيا الفانية ، من متاع زائل ، واذا كان هذا حال الصحابة رضى الله عنهم عموما ، فكيف بأمهات المؤمنين ، وهن ألصق الناس بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد ينشأ هنا سؤال ، وهو :

■ هل كان الجمع بين ما أحل الله سبحانه من زينة هذه الحياة ، وبين الآخرة ، من الأمور المتناقضة في نظر الشرع ، وانه يستحيل على العبد التمتع بما أحل الله مع العمل للآخرة ، حتى تخير أمهات المؤمنين بين الدنيا وبين الآخرة . ؟

والجواب :

■ انه لا تناقض ولا استحالة في ذلك . بيد أن التخيير بين الدنيا وبين الآخرة ، ليس منطلقا من هذا المفهوم ، بل من مفهوم آخر ، هو أعلى وأسمى من ذلك :

ان هؤلاء الأزواج ، صرن أزواجا لخير خلق الله ، وخاتم أنبيائه ورسله ، وهو الذى خير بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله تعالى[1] ، اعراضا عما في هذه الحياة من زينة ومتاع .

---

(١) روى البخارى عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، خطب فقال : " ان الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله " ... فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، هو العبد : كتاب الصلاة ١٢٦/١ . ورواه أيضا مسلم : كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤/٤ .

وهذا الاعراض من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، عن الدنيا ومتاعها ، لا يعنى أن كل ما فيها حرام لا يحل التمتع به ، ولكنها الرغبة فى التجرد الكامل ، عن شوائب هذه الحياة ، ليتجه القلب بعد ذلك اتجاها واحدا الى الله عز وجل والى ما عنده ، والا فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يكن عاجزا عن الحياة فى رغد العيش وسعتها ومتاعها ، وقد فتحت له الأرض ، وسيقت اليه أصناف المال .

واذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، قد اختار لنفسه حياة من نوع خاص ، فانه يرغب فى أن يعيش تلك الحياة ، كل من يحيط به من أزواجه وخاصته ، حتى لا يجرهم الميل الى الدنيا ولو شيئا يسيرا ، الى الانشغال والاهتمام بها عما هو أهم وأولى ، وحتى لا تصبح النفس أسيرة لشيء من هذا المتاع الزائل ، ولهذا كان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ربه سبحانه قائلا : " اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا "(1) وفى رواية : " كفافا " .

وهناك لطائف وأسرار ، تكمن وراء هاتين الآيتين ، منها :

١ — تبدأ الآيتان بنداء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، دون نداء أزواجه — كما فى الآية التى بعد هاتين الآيتين — ذلك أن توجيه النداء لهن ، فيه تكريم لهن ، فكأن صرف النداء عنهن الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اشعار لهن بعدم الرضا عن تصرفهن ، ولهذا لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، وجه الله سبحانه

---

(١) رواه البخارى : كتاب الرقاق : ١٢٢/٨ ومسلم : كتاب الزهد ٢٢٨١/٤ .

اليهن الخطاب بقوله : ((يانساء النبى ...)) .

ويحتمل أن يكون صرف النداء عنهن ، الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رحمة بهن ، وأنه لو وجه النداء اليهن فى هـذه الحال ، لكان العتاب فى حقهن أشد وقعا .

٢ ـ أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يعرض على أزواجه رضوان الله عليهن ، اختيار أحد أمرين :

أ ـ اما الرغبة فى الدنيا ومتاعها وزينتها . وهذا الأمر ان تـم فسيكلفهن ثمنا باهظا ، ويفقدهن من الخير ما تشرئب اليـه أعناق نساء المؤمنين . فحسبهن من الخير أنهن صرن أزواجا لسيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمهات للمؤمنـين بنص القرآن الكريم ، وكل هذا سيفقدنه باختيارهن الدنيا ، فان أول نتائج هذا الاختيار هو : مفارقة رسول الله صـلى الله عليه وآله وسلم لهن بأمر الله عز وجل . والله أعلم بما سيؤول اليه حالهن بعد ذلك ان خرجن من بيت النبوة رغبة فى شيىء من متاع هذه الحياة وزينتها ، وحرمن مجالسة رسول الـله صلى الله عليه وآله وسلم ، وتربيته لهن تربية مباشرة ، والعيش معه فى ظل عبادة الله سبحانه الدائمة ، وآخر نتائج هـذا الاختيار حرمان الزوجية فى الدار الآخرة . وأى حياة تطيب ، بل ما قيمة الحياة وزينتها ، بجانب تلك الخسارة الفادحـة ، انها لخسارة فى الدنيا قبل الآخرة .

ب — الصبر على ضيق العيش ، وشظف الحياة ، نزولا عند رغبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، الذى اختار هذا التبسط من الحياة ، والذى لم يجد وقتا فى حياته ، ليهتم أى اهتمام بأى مقدار من هذه الحياة الدنيا ، بل لم يرغب فى ذلك إطلاقا ، فحياته صلى الله عليه وآله وسلم كانت مزدحمة بواجبات كبيرة : واجبات الجهاد فى سبيل الله تعالى ، والقيام بمصالح الناس ، وقضاء حوائجهم المتعلقة به — وما أكثرها — ، والتوجيه الدائم للأمة فى كل شأن يصلح به أمر دينهم ودنياهم ، وتفريغ جزء كبير من وقته لمناجاة ربه ، والانقطاع لعبادته .

وقلب كهذا القلب الكبير ، تشغله هذه الأمور العظام ، كيف يمكنه الحياة مع نساء يشغلن أنفسهن ، ويشغلنه — ولو شيئا يسيرا — بالدنيا ، وهن نساؤه اللاتى يطمعن أن يكن معه فى الآخرة ، مع أجر مضاعف ، ودرجات عظيمة .

٣ — أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، فى قوله سبحانه : ((قل لأزواجك)) واجب عليه ، قولا لأنه من باب التبليغ ، ولأن الأمر يتعلق بالتربية الخاصة بهن ، باعتبارهن زوجات له صلى الله عليه وآله وسلم ، ومعنى لأنه للوجوب ولا صارف عنه .(١)

٤ — قدم فى التخيير ذكر اختيار الدنيا على الآخرة لأمور منها ما يأتى :

---

(١) تفسير الامام الرازى ٢٠٦/٢٥ بتصرف .

أ ــ لأن ذلك واقعهن حال نزول الآيتين .

ب ــ ولأنه يوحي بانكار الله عز وجل عليهن .

جـ ــ ولأن ذلك كان سبب نزول هاتين الآيتين .

د ــ وللاشارة الى أنه صلى الله عليه وآله وسلم غير ملتفت اليهن غاية الالتفات ، لاشتغاله بواجبات الرسالة (١) ، فكأنه قال : لا تشغلنني عن واجبات رسالتي ، وعبادة ربي بأمر هذه الدنيا فان كانت رغبتكن فيها ، فانصرفن اليها ، وسأفارقكن ليتم لكن ما تردن .

٥ ــ صور الله عز وجل مطالبتهن بالنفقة ، بأنه اختيار للحياة الدنيا وزينتها ، اشعارا بأن ذلك ليس محل رضاه عز وجل ، ولذلك جعله موجبا لفراق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهن ، مما يدل على عدم رضاه عنهن ، ومما قد يعرضهن لسخط الله عز وجل عليهن . ففي التعبير القرآني ، ما يشعر بأن المطالبة بالنفقة ، أمر لم يراع فيه الدار الآخرة ، كما لم يراع فيه نيل مرضاة الله سبحانه ، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

٦ ــ التعبير في الآية الأولى منهما بان ــ ((ان كنتن تردن الحياة الدنيا)) ــ التي تفيد الشك ، لحملهن على ما ينبغي أن يكون حالهن عليه ، وهو عدم الجزم في الرغبة ، في هذه الحياة . وأما التعبير بان أيضا في الآية الثانية ــ ((وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة))

---

(١) تفسير الامام الرازي ٢٠٦/٢٥ بتصرف .

— ففيه تأكيد لما أفادته الآية الأولى ، من أن المطالبة بالنفقة ليس محل رضا الله سبحانه ، ذلك أنه لما اقترنت مطالبتهن بالرغبة في الدنيا ، فكأن رغبتهن في الآخرة مشكوك فيه .

٧ — أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بتخيير نسائه ، لم يكن لعجزه صلى الله عليه وآله وسلم عن النفقة لما يأتي :

أ — صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه "كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم"(١) .

ب — اختيار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعيش في اعراض تام عن هذه الحياة ، ولذلك لما دخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه — في قصته صلى الله عليه وآله وسلم مع أزواجه التي نحن بصددها ، كما جاء في بعض روايات الصحيح — رأى الحصير قد أثر في جنبه صلى الله عليه وآله وسلم ، فبكى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : "ما يبكيك" يابن الخطاب ؟ قال : يانبي الله ومالي لا أبكي ؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك ، وهذه خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله وصفوته ، وهذه خزانتك . فقال صلى الله عليه وآله وسلم : "يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا"(٢) .

---

(١) رواه البخاري : كتاب النفقات ٧/ ٨١ ومسلم : كتاب الجهاد والسير ٣/١٣٧٨ — ١٣٧٩ .

(٢) هذا لفظ مسلم ٢/ ١١٠٥ — ١١٠٨ وفي لفظ للبخاري : "فجلس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان متكئا فقال : أو في هذا أنت يا ابن الخطاب ان أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا" ٧/ ٣٦ — ٣٨ .

٨ — قوله تعالى : ((ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها)) ، العطف في قوله ((وزينتها)) من عطف الخاص على العام . وافراد الزينة بالذكر لأنها محل الفتنة ، ولأن ما يتزين به في الدنيا ، من المال والجاه ونحوهما ، قريب الزوال ، ففي ذلك تحقير لهذا الأمر ، وترغيب عنه . " والزينة الحقيقية : ما لا يشين الانسان في شيء من أحواله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . فأما ما يزينه في حال دون حال ، فهو من وجه شين" (١) .

واضافة الزينة الى الدنيا ، دليل على عدم كمالها ، وأنها قد تنقلب شينا على صاحبها كما هو حال الدنيا .

٩ — قوله تعالى : ((ان كنتن تردن)) أي ان كنتن تردن التوسع في الحياة الدنيا مع ما انتن عليه من المنزلة ((فتعالين)) .

والارادة بقدر ما تصرف الى الدنيا ، تصرف عن الآخرة . والله عز وجل انما يريد لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ، علو الدرجة عنده ، وعظم المثوبة ، فهن لسن كغيرهن من نساء المؤمنين ، والدرجات اللائقة بهن في الآخرة ، تستوجب منهن من العمل في الدنيا ، ما لا تؤديه غيرهن من المؤمنات ، وذلك يحتم عليهن أن يصرفن كل ارادتهن للدار الآخرة ، ولذلك وعدهن الله عز وجل — اذا قمن بذلك — بقوله : ((فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما)) .

---

(١) مفردات الراغب ٢١٨ .

وأنت تدرك معى سر التعبير بالاحسان ((للمحسنات)) دون غيره ، فالاحسان أعلى مراتب العبادة ، وقد حدده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : " أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك " (١) .

١٠- وقوله عز وجل : ((فتعالين)) . أصل " تعال " أن يقوله من في المكان المرتفع ، لمن في المكان المستوطئ ، ثم كثر استعماله ، حتى استوت في استعماله الأمكنة " ومعنى ((تعالين)) : أقبلن بارادتكن واختياركن لأحد أمرين ، ولم يرد نهوضهن اليه بأنفسهن ... " (٢) .

غير أن التعبير يشعر بخطورة الأمر وأهميته ، وأنه يتطلب منهن استجماع الفكر ، وكمال الاصغاء حتى لا يتسرعن فى الأمر الذى يقدمن عليه دون روية .

١١- اقتصرت الآية الأولى على ذكر المتعة والطلاق ، وبدأت بذكر المتعة لأنه المناسب لمقامهن ، وهو المطالبة بالسعة فى النفقة ، ولئلا يبقى لهن بعد السراح أى مطلب عليه ، وقد خلت هذه الآية من الوعيد اذا ما اخترن الحياة الدنيا ، مبالغة فى تحقيق معنى التخيير ، وللاحتراز عن شائبة الاكراه لهن ، ولذلك أيضا قدم ذكر التمتيع ، ووصف التسريح بالجميل (٣) . ومع كل هذا فان

---

(١) البخارى : كتاب الايمان ١/١٩ - ٢٠ . ومسلم : كتاب الايمان ١/٣٧ .
(٢) الكشاف : للزمخشرى ٣/٢٥٨ .
(٣) روح المعانى ، للآلوسى ٢١/١٨٣ بتصرف .

فى المقابلة بما ورد فى الآية الثانية من الوعد بالأجر العظيم ، اشارة الى الأفضل لهن والأشرف ، وهو اختيار الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والدار الآخرة .

١٢ـ قوله جل شأنه : ((وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة)) : أى ان كنتن ترغبن فى مرضاته تعالى ، ومرضاة رسوله صلى اللـــه عليه وآله وسلم ، وحسن المثوبة فى الدار الآخرة . وجواب الشرط محذوف ، دل عليه المذكور ، والتقدير — والله أعلم — فالزمـــن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى هذا فالفاء فى قولـــه : ((فان الله أعد للمحسنات ...)) للتعليل .

١٣ـ فى الآية الثانية ترغيب لهن فى اختيار رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم ، لما يترتب عليه من المصلحة العظيمة لهن فى الدنيا والآخرة .

١٤ـ "من" فى قوله تعالى : ((أعد للمحسنات منكن)) بيانية ، ولا يجوز حملها على التبعيض لأنهن كلهن محسنات . وقد تحمل عـلى التبعيض اذا قصد احتمال اختيار البعض منهن الدنيا ، ففيها عـلى هذا تهديد ضمنى ، بحرمان الأجر العظيم للتى قد تختار الدنيا ، كما أن فى قوله : ((للمحسنات)) اشارة الى أن ما ينلنه من الأجر ، انما هو باحسانهن ، ففيه حمل لهن على الاجتهاد فى الطاعـــة ، وعدم الركون الى مجرد كونهن أزواج رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم .

١٥ـ الأجر العظيم : هو الكبير فى الذات ، الحسن فى الصفات ، الباقى فى الأوقات ، ولا يستجمع هذه الصفات الا أجر الآخرة . أما أجر الدنيا فهو قليل ، ولا يخلو عن قبح ، لما فى مأكوله من الضرر والثقل ، وكذا فى مشروبه وسائر لذاته ، وهو أيضا غير دائم ، بخلاف أجر الآخرة ، فهو مع كثرته خال عن القبح ، دائم (١) .

١٦ـ فى نوع الحياة التى اختارها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، دعوة لكل من يحمل معالم هذه الرسالة من بعده ، أن يسلكوا السبيل الذى اختاره ، وأن الذين يشتغلون بحمل الدعوة الى الله تعالى ، ينبغى لهم أن يتجردوا من حب الدنيا بقلوبهم والانصراف اليهما بجهودهم حتى لا يشغلوا أنفسهم بالميل الى عرض هذه الحياة ، عن أقدس واجب يقومون به ، وحتى تتمثل فيهم القدوة الصالحة ، وأن على من سلك هذا السبيل أن يعرف بأن أمر الدعوة ما هو الا جهاد ، يصحبه بلاء يوجب الصبر والاحتساب ، وأن الصبر على الدنيا وسعتها ليس بأقل من الصبر عنها ، وأن الأمر ليس أمر غنيمة ومكسب ، وأن من ألوان البلاء الذى قد يختبروا به ، أن تساق اليهم الدنيا ، فهل يطيقون حينئذ على الاعراض بقلوبهم عن متاعها الزائل ، لا يلوون على شئ سوى الغاية التى حددها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ، ووضع معالمها لمن يسلك سبيله من بعده .

---

(١) تفسير الامام الرازى ٢٥/٢٠٦ بتصرف .

وفى الختام أقول : ان فيما حصل منهن رضوان الله عليهن ، وما قابل ذلك من التربية لهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، هو كذلك تربية للأمة بعده صلى الله عليه وآله وسلم ، فان أمهات المؤمنين فى محل القدوة ، تبعا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولمنزلتهن منه ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المشرع والمربى ، لذلك لا ينبغى لمؤمن رأى من أهله عوجا فى الخلق ، أن يكون ذلك محل استنكار وغرابة ، بحيث يؤدى ذلك الى الغلظة عليهم أو القطيعة ، فيخرج بذلك عن هدى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فى التربية ، فالعوج من طبيعة المرأة وسجيتها ، وانما عليه أن يقابل ذلك بالمعالجة ، المصحوبة بالحكمة والصبر ، وقد حصل شيء من ذلك من أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن ، مع أكرم خلق الله وخيرهم صلى الله عليه وآله وسلم ، فعلى المؤمن أن يعالج ما يراه من عوج فى أهله باللطف ، وأن يكون بهم رحيما ، وأن يتجنب العنف والشدة ، ويعلم أنه لا ينفع فى حق المرأة سوى الصبر والرفق تحقيقا لقوله تعالى : (وعاشروهن بالمعروف)(1) ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : " وخياركم خياركم لنسائهم خلقا "(2) ، مع التذكير بالله عز وجل ، والتخويف بعذابه ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وآله

---

(١) سورة النساء ١٩ .

(٢) رواه الترمذى : كتاب الرضاع ٣/٤٦٦ وقال: حديث أبى هريرة هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه ، كتاب النكاح ١/٦٣٦ .

(*) ابن ماجه ٢٠٩ – ٢٧٣ هـ هو محمد بن يزيد الربعى القزوينى ، أبو عبد الله ابن ماجه : أحد الأئمة فى علم الحديث . من أهل قزوين . من مصنفاته : " سنن ابن ماجه " ، وله " تفسير القرآن " وكتاب فى " تاريخ قزوين " .

وسلم أنه قال : " استوصوا بالنساء ، فان المرأة خلقت من ضلع ، وان اعوج شيء في الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء "(١) .

وفي لفظ لأحمد : " لا تستقيم لك المرأة على خليقة واحدة ، وانما هي كالضلع ، ان تقمها تكسرها ، وان تتركها تستمتع بها وفيها عوج "(٢) .

كما ينبغي للمؤمنة أيضا ، أن تعرض عن كل أمر من أمور الدنيا ، التي تجر الى نقص في خلقها ودينها وآخرتها ، وأن تؤثر الآخرة على الدنيا ، ومرضاة الله تعالى ، ومرضاة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، على اشباع شهواتها ، وارضاء غرائزها ولا سيما اللائي هن قدوة في المجتمع متأسية في ذلك بأمهات المؤمنين اللاتي آثرن ما عند الله تعالى ، على متاع الدنيا الزائل ، حتى رضي الله تعالى عنهن ووعدهن بالأجر العظيم .

وعلى الرجل أن يبادر الى تربية أهله ، وابعادهم عن كل ما يرى فيه ضررا على نفسه وأهله ، وأن لا يستجيب لأهله في كل مطالبهم ، فان المرأة قد لا تدرك مكان الضرر مما تهواه وتطلبه ، والرجل اذا ما استجاب لزوجه في كل شيء ، ألحق بنفسه وأهله الضرر ، وفقد حق القوامة التي جعلها الله سبحانه بيده ، وحينئذ ، تصبح المرأة قائمة عليه ، تملك أمره وتتصرف كما تشاء ، وتعبث بكل ما تحت يدها من منزل وأسرة وغيرهما ، وحينئذ تفقد الأسرة الفلاح في حياتها ، فالمرأة عليها واجبات

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الأنبياء ٤/١٦١ ، ومسلم ، كتاب الرضاع ٢/١٠٩٠ .

(٢) رواه الامام أحمد ٢/٤٤٩ قال في اللسان : الضلع والضلع لغتان : محنية الجنب ، مؤنثة ، والجمع أضلع وأضالع وأضلاع وضلوع ٨/٢٢٥ .

مقدسة داخل البيت يشير اليها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بقولـــه :
" والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها "(١).

. . .

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل ، ما ينبغى لأمهات المؤمنين رضوان اللـــه عليهن ، أن يسلكنه مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، من الاستمرار بالرضا ، بما هو عليه ، من شظف العيش ، وهو الحال التى آثرهـا ، ولم يرغب فيما سواها ، مهما كثرت الأموال ، وعظمت الفتوحـات ، لأن الأمر أمر دعوة وتبليغ للرسالة ، لا غنيمة وكسب لحطام الدنيا ، جاء ت هاتان الآيتان بهذا الأسلوب فى شدته ، ليقطع جذور رغبتهن فـــى الدنيا ، وليمضين على ما هن عليه مع رسول الله صلى الله عليه وآلـــه وسلم ، لأن الجرى وراء الدنيا ، والرغبة فيها بالنسبة لأمهات المؤمنين ، فعل متجاوز حد التربية اللائقة بهن ، والتى أرادها الله عز وجـــل لهن ، كما أن التعلق بشيء من حطام الدنيا قد يوقع فيما لا يحمـد ، فجاء ت الآية التالية ، تبين خطر الوقوع فيما يخالف نهج رسول اللـــه صلى الله عليه وآله وسلم ، وتجاوز حدود الشرع ، بما يقبح من الأقـــوال والأفعال ، وأنه لو حصل منهن شيء من ذلك فان منزلتهن ليست كسائر النساء ، ولذلك يضاعف العذاب فى حق من فعل منهن شيئا من ذلـك فقال عز وجل :

---

(١) رواه البخارى :كتاب الجمعة ٦/٢ ومسلم : كتاب الامارة ١٤٥٩/٣ .

((يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا / ٣٠)) .

وجه الله عز وجل النداء في قوله : ((يانساء النبي)) الى أمهات المؤمنين ، بخلاف النداء في الآية السابقة ، فقد وجه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أما توجيهه الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية السابقة ، فلأنه كلف أن يبلغ عن الله سبحانه تخيير أزواجه .

ومجيء النداء ، الذي فيه الاشارة الى التهيؤ والاستعداد لتلقي ما يأتي بعده ، ثم اختيار صفة النبوة ، — أي أنه الذي يقوم بالتبليغ بوصفه نبيا — يدل على خطر الأمر وعظم شأنه .

أما هنا فقد جاءت التربية المرادة لهن ، تخاطبهن خطابا مباشرا ، والنداء من الله سبحانه ، فيه تكريم في هذا الموضع ، ولعل هذا التكريم جاء مقصودا بعد أن اخترن الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما تشير اليه اضافتهن الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ويلاحظ أنه جاء فيما سبق بوصف الزوجية ((قل لأزواجك)) . وجاء هنا بوصف كونهن نساء ، ولعل ذلك يعود الى اختلاف المكلف به في الموضعين : ففيما سبق أريد بالتكليف نوع خاص من التربية لأمهات المؤمنين ، قد لا يطيقها كثير من النساء ، كما لم يطق نوع الحياة التي اختارها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه غيره من الرجال : وهي الاعراض المطلق عن زينة الدنيا ومتاعها ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم ، أن يبلغهن التخيير باعتبارهن أزواجه . بخلاف ما هنا

فالمراد تعظيم مخالفة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكونهن قدوة لغيرهن من نساء المؤمنين فى لزوم نهج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، جاء التعبير بلفظ النساء ((يانساء النبى)) ليشمل سائر المؤمنات .

وقوله تعالى : ((من يأت منكن بفاحشة مبينة)) المراد بالفاحشة هنا ، مخالفة نهج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فى معيشته ومتطلبات حياته ، من الزهد والورع ، والتجافى عن الركون الى الدنيا وزخارفها .

ولا وجه هنا لارادة معنى من المعانى ، التى حمل عليها لفظ الفاحشة الوارد فى القرآن الكريم ، مثل الزنا ونحوه .

وأطلق على هذه المخالفة " فاحشة " لأن المعصية منهن ، وكونها فى حق النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، تجاوز لحد التربية ، التى أراد الله عز وجل أن يكن عليها ، ولأنهن فى مكان الأسوة لغيرهن من النساء ، كما أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قدوة للأمة جميعا .

وهذا المعنى هو الأنسب بمقام أمهات المؤمنين ، وهو الذى يأخذ السياق بحجزته ، ولأن كل شئ جاوز قدره وحده فهو فاحش والمخالفة منهن لنهج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فى نوع الحياة التى اختارها لنفسه تجاوز للحد " وعلى أى تقدير حمل الكلام ، فالكلام معلق على شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع ، كقوله تعالى : (قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين)[(١)] "[(٢)] .

---

(١) سورة الزخرف ٨١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤٨١ - ٤٨٢ بتصرف .

وفائدة هذا الأسلوب ، الاشارة الى أن من يتجاوز حدود الشرع ، بارتكاب معصية ، تناله العقوبة من الله عز وجل ، وان كان من أقرب الناس الى خير خلقه .

وقوله تعالى : ((مبينة))(1) . بصيغة اسم الفاعل ، من بين بمعنى تبين ، أى ظاهرة القبح .

وقوله تعالى : ((يضاعف لها العذاب ضعفين)) قال فى اللسان : " وفى التنزيل ((يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين)) وقرأ أبو عمرو يضعف . قال أبو عبيد : معناه يجعل الواحد ثلاثة أعذبة . وقال : كان عليها أن تعذب مرة ، فاذا ضوعف ضعفين ، صار العذاب ثلاثة أعذبة .

قال الأزهرى : هذا الذى قاله أبو عبيد ، هو ما تستعمله الناس فى مجاز كلامهم ، وما يتعارفونه فى خطابهم ..... فأما قوله تعالى : ((يضاعف لها العذاب ضعفين)) فان سياق الآية والآية التى بعدها دل على أن المراد من قوله : ((ضعفين)) مرتان ألا تراه يقول - بعد ذكر العذاب - : ((ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين)) . فاذا جعل الله تعالى لأمهات المؤمنين من الأجر مثلى ما لغيرهن تفضيلا لهن على سائر نساء الأمة ، فكذلك اذا أتت احداهن بفاحشة عذبت مثلى ما يعذب غيرها ، ولا يجوز أن تعطى

---

(1) قال الشريف الرضى : وهذه استعارة على قراءة من قرأ : ((مبينة)) بكسر الياء . فكأنه تعالى جعل الفاحشة تبين حال صاحبها ، وتشير الى ما يستحقه من العقاب عليها . وهذا من أحسن الأعراض، وأنفس جواهر الكلام . انتهى من تلخيص البيان فى مجازات القرآن ٢٦٤ .

على الطاعة أجرين ، وتعذب على المعصية ثلاثة أعذبة[1] ... الخ .

ووجه تضعيف العذاب لهن " أنه لما كانت نعم الله عليهن أكثر منها على غيرهن بكونهن أزواجا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ونزول الوحى فى بيوتهن ، وتكريمهن بجعلهن أمهات المؤمنين ونحو ذلك ، كان كفران النعمة منهن أعظم ، وأجدر بعظم العقاب ، لأن النعمة كلما عظمت ، كان كفرانها أعظم فيما يستحق به من العقاب[2] " " فزيادة قبح المعصية ، تتبع زيادة الفضل والمرتبة ، وزيادة النعمة على العاصى من المعصى ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا على أحد منهن مثل ما لله عليهن من النعمة ، والجزاء يتبع الفعل ، وكون الجزاء عقابا ، يتبع كون الفعل قبيحا ، فمتى ازداد قبحا ازداد عقابه شدة ، ولذلك كان ذم العقلاء للعاصى العالم ، أشد منه للعاصى الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح[3] " ولذلك جعل الله جزاء من يرتكب منهن ذنبا مثلى ما تستحقه غيرهن .

---

(١) لسان العرب ٢٠٥/٩ - ٢٠٦ .
(٢) الجصاص : أحكام القرآن ٤٤٢/٣ بتصرف .
(*) الجصاص ٣٠٥ - ٣٧٠ هـ هو أحمد بن على الرازى ، أبو بكر الجصاص : فاضل من أهل الرى ، سكن بغداد ومات فيها ، انتهت اليه رئاسة الحنفية ، وخوطب فى أن يلى القضاء فامتنع ، وألف كتاب " أحكام القرآن " وكتابا فى " أصول الفقه " .

(٣) الكشاف : ٢٥٩/٣ .

فقوله سبحانه : ((يضاعف لها العذاب)) أى العذاب الـذى تستحقه غيرها ، لا العذاب الذى تستحقه هى ، والا لزم أن يكـون أكثر من مثلين ، ويلزم منه أن تجازى الواحدة منهن أكثر مما تستحـق ، وقد علم من الأدلة الأخرى ، أن السيئة تجزى بمثلها ، والمثل فـى حقهن يقتضى أن يكون مثلى ما تستحقه غيرهن ، والزائد جور .... فالنسبة بينها على فرض عدم كونها زوجة للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وبينها كائنة زوجة له ، وكذا فى جانب الأجر (١) .

وقوله تعالى : ((وكان ذلك على الله يسيرا)) أى أنه تعالى — وهو ذو الجلال والكبرياء والعظمة — لا يعسر عليه شيء " وفيه الاشارة الـى أن كونهن نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ليس يغنى عنهن شيئا ، وكيف يغنى عنهن ، وهو سبب مضاعفة العذاب ، فكان داعيا الى تشديد الأمر عليهن غير صارف عنه (٢) " .

وهذا النوع من التربية ، فيه اشعار لكل من يمت بصلة الى كل عظيم فى العلم والدين بأن قربه منه يحتم عليه المبالغة فى البعد عن كـــل

---

(١) المقبلى : صالح بن مهدى ، الاتحاف لطلبة الكشاف (مخطوط) بتصرف .
(*) المقبلى ١٠٤٧ — ١١٠٨ هـ هو صالح بن مهدى بن على المقبلى : مجتهد ، من أعيان الفقهاء ، ولد فى قرية مقبل باليمن وكان على مذهب الامام زيد ، فنبذ التقليد من كتبه " العلم الشامخ فى ايثار الحق على الآباء والمشايخ " ، و " الأبحاث المسددة فى مسائل متعـــددة " و " الاتحاف لطلبة الكشاف " .
(٢) الكشاف : المرجع السابق .

ما يسخط الله عز وجل ، وأن ذلك القرب لا يعفيه من الالتزام الكامل بحقوق الشرع ، ولا يسقط عنه — لو ارتكب معصية — ما توعد الله به العاصي من العقوبة ، وقد ضرب الله سبحانه مثلا — فى آخر سورة التحريم — امرأة نوح وامرأة لوط ، وقال — فى عدم اغناء قربهما من نوح ولوط عليهما السلام عنهما شيئا — (فلم يغنيا عنهما من الله شيئا)(١) وهى السورة التى ذكر الله تعالى فيها مظاهرة بعض نسائه صلى الله عليه وآله وسلم ، وعاتبهما من أجل ذلك ، وتوعدهما ان لم يتوبا .

وثبت فى الصحيح أنه لما نزل قوله الله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين)(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " يامعشر قريش أو كلمة نحوها ، اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يابنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئا ، وياطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا "(٣) .

---

(١) سورة التحريم ١٠ .
(٢) سورة الشعراء ٢١٤ .
(٣) رواه البخارى : كتاب الوصايا ٤/٧ — ٨ وكتاب التفسير ، سورة الشعراء ١٤٠/٦ ، والدارمى : كتاب الرقاق ٢/ ٣٠٥ ، والنسائى : كتاب الوصايا ٢٤٨/٦ — ٢٤٩ .
(*) النسائى ٢١٥ — ٣٠٣ هـ هو أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن بحر بن دينار ، أبو عبد الرحمن النسائى : صاحب السنن ، القاضى الحافظ ، أصله من نسا (بخراسان) ، مات بالرملة (بفلسطين) ودفن ببيت المقدس ، وقيل : خرج حاجا فمات بمكة . من كتبه : " السنن الكبرى " و " المجتبى وهو السنن الصغرى " و " الضعفاء والمتروكون " .

ولما أشفق نوح عليه السلام على ابنه من الغرق ، سأل الله عز وجل أن ينجيه لأنه من أهله ، والله عز وجل قد وعده بأن ينجيه وأهله . فقال عليه السلام : (رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق ... الآية)[1] فرد الله عز وجل عليه بقوله : (انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ... الآية)[2] وأثنى الله سبحانه على ابراهيم عليه السلام لما تبرأ من أبيه بعد أن كان قد استغفر له بقوله عز وجل : (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم)[3] .

. . .

<u>المناسبة :</u>

ولما جاءت هذه الآية الكريمة في شدتها ، وقد سيقت لغرض تربية أمهات المؤمنين ، أراد الله عز وجل أن يفتح لهن باب القرب منه ، فذكر ما لهن من مزية عنده ، ليسرى عنهن ما يجدنه من لذع في الخطاب السابق ، ويدفعهن الى الاكثار من الطاعة ، فقال تعالى : ((ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما / ٣١))

"يرد القنوت بمعان متعددة : كالطاعة ، والخشوع ، والصلاة والدعاء ، والعبادة ، والقيام ، وطول القيام ، والسكوت ، فيصرف في كل واحدة من هذه المعاني الى ما يحتمله السياق الوارد فيه "[4] .

---

(١) سورة هود : ٤٥ .
(٢) نفس السورة : ٤٦ .
(٣) سورة التوبة : ١١٤ .
(٤) اللسان ٢/ ٧٣ .

أما المعنى الذى يحمل عليه لفظ " القنوت " هنا حسب ما يقتضيه السياق الذى نحن بصدده ، فأولاها به : الاستسلام والخضوع (1) ، لمنهج رسول الله وانما آثرت هذا المعنى ، لذكر العمل الصالح بعد القنوت. والعمل الصالح ، غالبا ما يطلق ويراد به أعمال الجوارح ، بخلاف الخضوع ، فان مصدره القلب .

فأمرن أولا بتطويع قلوبهن لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو تطويع يقتضى كمال الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحسن معاشرته ، وجميل مخالقته ، والانقياد التام لأوامره ، وأن يلتمسن رضاه فيما يأتين ويذرن ، ثم جاء ذكر العمل الصالح ، الشامل لكل ما يلزمهن القيام به من حقوق الشرع ، وفضائل الأعمال ، ونوافل القربات ، ليصبحن أهلا لنيل ما وعدهن الله تعالى به .

ويلاحظ فى الآية ورود " يقنت " بياء الغيبة المشعر بالتذكير ، مراعاة للفظ " من " فى التذكير و " تعمل " مراعاة لمعناها فى التأنيث ، ولعل السر فى ذلك - والله أعلم - أنه لما كان القنوت

---

(1) قال الراغب : القنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع، وفسر بكل واحد منهما ص٤١٣ . وراجع أيضا فى معنى القنوت : كتاب " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة ص ٣٥٠ .

(*) ابن قتيبة ٢١٣ - ٢٧٦ هـ هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، أبو محمد : من أئمة الأدب ، ومن المصنفين المكثرين . ولد ببغداد وسكن الكوفة . وتوفى ببغداد . من كتبه " تأويل مختلف الحديث " و "أدب الكاتب " و " المعارف " و " مشكل القرآن " .

من أعمال القلب ، وأعمال القلب قد يستوى فيها الذكر والأنثى ، آثر صيغة المذكر مع كون الخطاب لهن ، فكأنه سواهن فى ذلك بالرجال. ولما كان العمل - وهو من أعمال الجوارح - شاقا والرجل على تحمل المشاق أقدر من المرأة التى قد لا تستطيع أن تبلغ ما يبلغه الرجل فى هذا الميدان ، آثر صيغة المؤنث .

أما على قراءة من قرأهما معا بالياء التحتية - وهو حمزة - ، فالمراد - والله أعلم - حملهن على بذل أقصى ما يقدرن عليه من الجهد وتحمل المشاق ، كى يصلن الى ما يصل اليه الرجال من المنازل .

ولما ذكر الله عز وجل - فى الآية السابقة - (الفاحشة) ، والحال أنها لا تصدر الا عن قلب غليظ ، غافل عن ذكر الله تعالى ، قابل ذلك - فى هذه الآية - بذكر (القنوت) الذى يدل على كمال الخضوع والاستسلام ، والانقياد لله عز وجل ، الذى يجعل القلب فى انشغال بطاعة الله عز وجل عن الوقوع فى أى معصية ، ومن باب أولى ، الوقوع فيما يفحش من المعاصى .

وقوله سبحانه : ((نؤتها أجرها مرتين)) : أى أن الله سبحانه جعل الحسنة من احداهن بمنزلة حسنتين من غيرهن . والمعنى : نؤتها أجرها حال كونها زوجة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلى ما تستحقه لو لم تكن زوجة له ، والمضاعفة الزائدة فى الأجر ، لمكانتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذا أضافهن اليه عند النداء ((يانساء النبى)) لأن هذه الاضافة ، هى التى يدور عليها ما يرد عليهن من

أحكام ، اضافة الى ما خصهن الله تعالى به من الانعام والفضل والاكرام والمنزلة الشريفة ، وكلها ثمرة لكونهن أزواجا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولما أتسمن به من التقوى والعبادة والاستسلام .

ومن لطائف التعبير القرآني " أنه عند ايتاء الأجر ، ذكر المؤتي وهو الله تعالى ، وعند العذاب لم يصرح بالمعذب ، فقال : ((يضاعف)) اشارة الى كمال الرحمة والكرم "[1] .

قال الآلوسي — مشيرا الى قوله تعالى : ((يضاعف لها العذاب ضعفين)) ، وقوله : ((نؤتها أجرها مرتين)) — ما لفظه : " ومن تأمل في الجملتين ، ظهر له تغليب جانب الرحمة على جانب الغضب وكفى بالتصريح بفاعل ايتاء الأجر ، وجعله ضمير العظمة ، والتعبير عما يؤتون من النعيم بالأجر ، مع اضافته الى ضميرهن ، مع خلو جملة تضعيف العذاب ~~على~~ عن مثل ذلك شهداء على ما ذكر "[2] .

وقول الآلوسي : " والتعبير عما يؤتون من النعيم بالأجر " : أي أن ذكر الأجر فيه اعزاز وتكريم بأن ما يأخذنه انما كان في مقابل ما قمن به من الطاعة ، وأنهن صرن مستحقات لهذا الأجر ، ~~ويحتمل التعبير ((نؤتها))~~ الاشارة الى أن ايتاء الأجر من باب الفضل والاحسان من الله سبحانه وقال هناك ((يضاعف لها العذاب)) لأن الجزاء على السيئات استحقاق للعبد على ما فعل .

---

(١) مفاتيح الغيب للامام الرازي ٢٥/ ٢٠٧ — ٢٠٨ .
(٢) روح المعاني ٢٢/ ٢ .

وقوله تعالى : ((مرتين)) جاء هذا التعبير ((مرتين)) فى مقابل مضاعفة العذاب ، وهذا للاشعار بمكانتهن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحالين . وفيه أن الله سبحانه من كرمه يعطى الأجر الجزيل المضاعف مرة ، ثم يستأنف العطاء فيعطى مثله أخرى ، وهذا من تكريم الله سبحانه لهن بالاحسان المكرر .

وقوله تعالى : ((وأعتدنا لها رزقا كريما)) أى أعد وهيأ سبحانه لهن رزقا كريما ، وهذا زيادة فى تفضيل الله سبحانه واحسانه عليهن جبرا لما عسى أن يكن قد تحملنه من شدة الخطاب فى الآية السابقة . وقد أبهم سبحانه نوع هذا الرزق ، غير أن وصفه بالكرم ، كاف فى الدلالة على عظم هذا الرزق ، قال الراغب : " وكل شيء شرف فى بابه فانه يوصف بالكرم " (1) . وفى هذا اشعار لهن بالعناية الربانية بهن .

وهاتان الآيتان ، قد سلكتا مسلكا معينا فى أسلوب التربية ، فلقد اتسمت أولاهما ، وهى قوله تعالى : ((يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة ...)) الآية ، بالشدة ، وتزاحمت فيها الكلمات الشديدة والمخيفة من كلمة : فاحشة ، وما لها من وقع تكز له النفس ، الى كلمة عذاب ، وما تنبيء عنه من ألم وايجاع وتنكيل ، وكون ذلك العذاب يضاعف ، وما تدل عليه المضاعفة من القسوة فى لون العذاب وغلظه ، وكان كل ذلك مما تقتضيه التربية المطلوبة لهن . والقسوة حين تقتضيها التربية ، رحمة من المربى بالمربى . وقدمت هذه الآية على التى تليها ، لأنه الأنسب

---

(1) مفردات الراغب ٤٢٩ .

بالمقام ، باعتبار ما حصل منهن رضى الله عنهن نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما كانت هذه الشدة الظاهرة ، التى حملتها هذه الآية الكريمة ، قد تترك أثرا فى نفوس أمهات المؤمنين ، بما قد يتصورنه من دنو منزلتهن عند الله تعالى ، أو هوانهن عليه ، قابل سبحانه ذلك بما جاء فى الآية التى تليها ، وهى قوله تعالى : ((ومن يقنت منكن لله ورسوله ...)) الآية . من كلمات رقيقة مليئة بالحنان والرحمة والاكرام ، مما تقذف فى النفس السكينة والطمأنينة ، فمنها ما يدعوهن الى القرب من الله تعالى ، بعبارة القنوت التى تحمل معنى الخضوع والاستسلام لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما تدعوهن الى القيام ببرهان ذلك الخضوع من العمل الصالح ، وتزف اليهن بشرى الأجر على ذلك وكونه مرتين ، مقابل تضعيف العذاب ، ثم تذييل هذا الوعد بقوله عز وجل : ((واعتدنا لها رزقا كريما)) ، دون تحديد ذلك الرزق بعبارة معينة ، فهو رزق كريم ، لا يعلم مقداره الا الله سبحانه ، مقابل قوله سبحانه فى الآية السابقة — فى ختام الوعيد — : ((وكان ذلك على الله يسيرا)) .

وبهذا جاءت التربية ، وجاء الاكرام ، على المستوى اللائق بهن . وأشعر ذلك أن مستواهن فوق مستوى سائر النساء ، الأمر الذى يلزمهن بكمال التقوى ، تعبيرا عن شكرهن لنعمة الله تعالى عليهن ، وجاءت الآية التى تليهما مصرحة بتلك المكانة التى لا يدانيها أحد من النساء ، وأن تلك المكانة وما تقتضيها من التقوى ، تفرض عليهن أن يسلكن فى حياتهن مع الناس داخل بيوتهن وخارجها مسلكا معينا ، حتى لا يتركن

ثغرة ينفذ منها قالة السوء وأهل النفاق ، ولأنهن في ذلك قدوة لغيرهن من نساء المؤمنين ، فقال عز وجل :

((يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا/٣٢)) .

قوله تعالى : ((يانساء النبي)) فى اضافتهن اليه صلى الله عليه وآله وسلم تشريف لهن ، كما أن فيها اشعارا بعلية الحكم الوارد بعدها ، وقوله سبحانه : ((لستن كأحد من النساء)) : أى أنكن بمكانتكن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقربكن منه ، وما منحكن الله تعالى بجعلكن أمهات المؤمنين ، وغير ذلك[1] ، لا تماثلن فى الفضل والشرف أحدا من النساء " وشرف المنزلة لا يحتمل العثرات ، فان من يقتدى به ، وترفع منزلته على المنازل جدير بأن يرفع نعله على الأعمال ، ويربو حاله على الأحوال"[2].

ولفظ " أحد " نكرة فى سياق النفى ، يفيد العموم . قال الراغب : " أحد يستعمل على ضربين : أحدهما فى النفى فقط ، والثانى فى الاثبات . فأما المختص بالنفى ، فلاستغراق جنس الناطقين ، ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق ، نحو : ما فى الدار أحد : أى واحد ولا اثنان فصاعدا ، لا مجتمعين ولا مفترقين ، ولهذا المعنى لم يصح استعماله فى الاثبات ، لأن نفى المتضادين يصح ، ولايصح اثباتهما ... "[3] .

---

(١) اشارة الى قوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن ... الآية) ، سورة الأحزاب ٣٤ .

(٢) ابن العربى : أحكام القرآن ٣/١٥٣٥ .

(٣) مفردات الراغب ١٢ .

وإذا كان ما ذكره الراغب في معنى "أحد" ، هو القاعدة الأساسية فيما يدل عليه أحد اذا وقع في سياق النفي ، فانا نجد العلامة جار الله الزمخشري ، يسلك في الآية التي معنا مسلكا آخر ، لايخرج "أحد" عن دلالتها على العموم ، غير أنه عموم في جانب الجماعات ، لافي جانب الأفراد ، فيقول : "لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء : أي اذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة (١) " .

وقد يرد عليه : أن التفضيل باعتبار الجماعة ، لا باعتبار الأفراد ، وعلى ذلك لا يلزم منه تفضيل كل واحدة منهن على كل واحدة من آحاد النساء ، وأنه لو حمل على ارادة : ليس شخص واحدة منكن كشخص واحدة من سائر النساء ، لكان أولى ، وأبلغ في افادة المقصود من تفضيلهن على سائر النساء أفرادا وجماعات ، على ما ذهب اليه الراغب ، وكلمة "النساء" تشمل جميع النساء ، من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وممن سبقها من الأمم ، وحملها على ارادة نساء عصرهن ، أو نساء أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فحسب ، مما يحتاج الى دليل ، لأنه خروج باللفظ عن ظاهره .

وقوله تعالى : ((ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول)) أي ان كنتن على سننكن في القيام بمقتضى التشريف من التمسك بكمال التقوى باتباع منهج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا تخضعن : أي فالزمن الآداب

---

(١) الكشاف ٣/٢٥٩ .

الشرعية التى يوجهكن الله تعالى اليها فعلا وتركا ، وعلى هذا فجواب الشرط قوله سبحانه : ((فلا تخضعن بالقول)) ، وهو يتضمن أمر الله تعالى لهن "بأن يكون قولهن جزلا ، وكلامهن فصلا ، ولا يكون على وجه يحدث فى القلب علاقة ، بما يظهر عليه من اللين المطمع للسامع "(١).

والمراد بالمرض — فى قوله تعالى : ((فيطمع الذى فى قلبه مرض)) — : النفاق(٢)، وقد تقدم أنه باستقراء عبارة "مرض القلب" الواردة فى القرآن الكريم ، وجدنا أن مرض القلب اذا أفرد كان المراد به النفاق ، واذا قرن بالنفاق ، فالمراد به ضعف الايمان .

ونرى أن الله عز وجل ، خص هذا الصنف من الناس بالطمع ، فقال: ((فيطمع الذى فى قلبه مرض)) ذلك أن مكانة أمهات المؤمنين ، والمهابة والاجلال الذين يتميزن بهما ، كل ذلك يقطع كل مطمع فيهن ، فلاتستشرف اليهن نفس ، الا اذا كانت من صنف الذين سيطر النفاق على قلوبهم .

وتوجيه النهى اليهن ، لا يقتضى وقوع المنهى عنه منهن ، ولكنه الأسلوب القرآنى الذى يقصد الى التأكيد فى التربية الفاضلة والاستمساك بها فى جميع الأحوال ، ويحتمل أن يكون جواب الشرط محذوفا دل عليه ما قبله ، والتقدير — والله أعلم — ان اتقيتن فلستن كأحد من النساء ، وفيه الاشارة الى أن السبب الأعظم فى تفضيلهن على سائر النساء هو

---

(١) ابن العربى : أحكام القرآن ٣/١٥٣٤ — ١٥٣٥ .
(٢) عزاه ابن جرير الى قتادة ٢٢/٢ وعزاه الآلوسى الى قتادة والسدى ٢٢/٣ .

التقوى ، وفيه دفع لهن الى الترقي في درجات التقوى .

وقوله سبحانه : ((وقلن قولا معروفا)) : أى قولا " يعود الى الشرع بما أمرن فيه من التبليغ ، أو بالحاجة التى لابد للبشر منها "(١).
وقد كان عندهن رضوان الله عليهن من أمر الشرع ما ليس عند غيرهن ، وما يجب عليهن تبليغه للناس ، فهن المعاشرات للرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وبمعاشرتهن له ، تعلمن منه أحكاما لا يعلمها غيرهن من الناس ، فكان المسلمون فى حاجة الى التعلم والأخذ منهن ، كما أنه لابد أن تدعوهن الحاجة الى مخاطبة الغير فى حوائجهن التى لا غناء لهن عنها ، ولا مانع فى كل هذه الأحوال من مخاطبة الآخرين ، غير أن القرآن الكريم ، قد رسم لهن المنهج الذى ينبغى أن يكون عليه كلامهن ، فنهى عن الخضوع فى القول ، وأمر بقول المعروف . فهو بالنهى يعالج طريقة الكلام ، وبالأمر يعالج موضوعه . وعدم الخضوع لا يعنى الايذاء ، ولا الغلظة فى القول ، بل المراد أن يكون القول فى حدود المعروف الذى سبق بيانه .

وهذا اللون من التربية ، يحقق المحافظة ، على أخلاق الأمة ، ويضع سياجا متينا حولها حتى لا يتسرب اليها أدنى خلل . وذلك من الأمور الهامة التى يجب أن تؤخذ بكل حيطة .

وفى هذا النداء الموجه الى أمهات المؤمنين ، اشارة الى أن كل مؤمنة يلزمها أن تأخذ نفسها بآداب الشرع ، وأن لا تخدع بمكانتها

---

(١) ابن العربى : أحكام القرآن ٣/ ١٥٣٤ — ١٥٣٥ .

العلمية ، أو بما حظيت به من شرف أو نحوه ، حتى تظن أن ذلك يعفيها من التزام هذا الأدب ، فانها باعتبارها أنثى ، لا يليق بها أن تخضع أو تلين بالقول ، فان ذلك مدعاة لميل وطمع أصناف من الرجال ، ولذلك عبر القرآن الكريم بفاء السببية ((فيطمع)) للدلالة على أن ذلك النوع من الكلام ، من شأنه أن يطمع بعض الرجال فيهن .

واذا كان الله عز وجل ، قد ندب أمهات المؤمنين – على مكانتهن وفضلهن وشرفهن ، وفى وسط يعيش فيه أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – الى هذا الأدب الكريم صونا لهن ، فمن باب أولى غيرهن من النساء ، وخصوصا فى الأعصر المتأخرة التى طغى فيها الفساد ، وكثر فيها الفجور ، وندرت فيها العفة والغيرة ، اضافة الى أن أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن ، قدوة لسائر نساء المؤمنين .

وهكذا تستمر الآيات القرآنية ، فى بيان معالم المنهج الذى اختاره الله عز وجل لأمهات المؤمنين ومن يقتدى بهن من المؤمنات منهج سلوك فى هذه الحياة . وقد احتوى هذا المنهج على :

١ – الزجر عن اتيان الفاحشة .

٢ – الترغيب فى الخضوع لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفى العمل الصالح .

٣ – بيان المنهج الذى ينبغى أن يسلكنه عند مخاطبة الآخرين ، لابعادهن عن السوء .

ثم ذكر الله سبحانه آدابا أخرى ، هى أشد ضمانا لصونهن وعفتهن ، وأليق بمكانتهن باعتبارهن قدوة لسائر المؤمنات ، فقال سبحانه :

((وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا /٣٣)) .

٤ – وفى هذه الآية الكريمة آداب أخرى من آداب هذا المنهج ، وهى ما يشير اليها قوله تعالى : ((وقرن فى بيوتكن..)) الآية . وفى ((وقرن)) وردت قراءتان ، قراءة حفص بفتح القاف ، وبها قرأ عامة قراء المدينة ، وبعض الكوفيين [1] ، من قر بالمكان يقر ، فأصله : أقررن كقولك : أظللن ، حذفت الراء الأولى وألقيت فتحتها على ما قبلها ، فصارت ((قرن)) واستغنى عن همزة الوصل كقولك : ظلن [2] . وفيه الأمر بلزوم البيت والقرار فيه .

والقراءة الثانية ، بكسر القاف " وقرن " وعليها عامة قراء الكوفة والبصرة [3] . وهى من وقر يقر وقارا ... وأصله : أوقرن ، ففعل به ما فعل بعدن من وعد [4] . والوقار – كما قال الراغب – : السكون والحلم [5] . وقال صاحب اللسان : الحلم والرزانة [6] . أو من قر يقر ،

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢/٣ .
(٢) تفسير أبى السعود ٤/٤١٦ .
(٣) تفسير ابن جرير ٢٢/٣ .
(٤) تفسير أبى السعود ٤/٤١٦ .
(٥) مفردات الراغب ٥٢٩ .
(٦) ٥/٢٩٠ .

حذفت احدى راءى اقررن ، ونقلت كسرتها الى القاف ، كما تقول : ظلن[1] . قال الراغب : قر بالمكان يقر قرارا اذا ثبت[2] .

وعند التأمل فى مدلول هذه القراءات ، نجدها تتضافر علــى أداء المعنى المقصود فى توجيه المرأة وارشادها ، الى العمل الذى لا ينبغى لها العدول عنه الى ما سواه .

فالقراءات لا تخرج فى مدلولها عن الزام المرأة بلزوم البيت ، وبالحلم والسكون والرزانة ، وكلا المعنيين متلازمان بل متلاحمان فيما يطلب مـــن المرأة .

أما القراءة التى فيها أمر المرأة بلزوم البيت ، فان الغرض منــــه ، أن تقوم المرأة فى هذه الحال بالمهمة المناطة بها ، اذ لا ينبغى تجاهل أنها زوجة ، وأنها أم ، وأن عليها بمقتضى كونها زوجة واجبات وحقوقا نحو زوجها ، وبمقتضى أمومتها واجبات أخرى .

وكل ذلك لا يتم الا مع الحلم والرزانة ، اذ ليس الغرض من لــــزوم المرأة البيت حبسها فيه دون أن يكون هناك حكمة من ورائه ، ولم يكـن أمرا تعبديا غير معقول المعنى ، بل هناك حكمة بالغة ومشرقة ، فالشارع الحكيم ، قد أناط بالمرأة مهمة مقدسة ، وأسند اليها وظيفة داخــــل البيت ، لاتقل أهمية عن مهمة ووظيفة الرجل خارجه .

---

(١) تفسير أبى السعود ٤/٤١٦ .
(٢) مفردات الراغب ٣٩٧ .

واخراج المرأة من بيتها ، لا يعنى سوى تحطيم أقدس عمل يمكن أن تقوم به داخل البيت ، ولن تكون المرأة أقدر على العمل من الرجل خارج البيت ، فما من عمل يقوم به الرجل فى مجال الاختراع والابداع لأى فن أو عمل أو صناعة أو ادارة أو غير ذلك ، الا وكان صاحب القدح المعلى (١) . وليس هناك ما هو أضمن لنجاح المرأة فى عملها وصون عفتها ، من بقائها فى بيتها ، لتؤدى مهمتها التى لا تصلح لغيرها ، فهى الملائمة لعاطفتها الرقيقة ، وتركيبها العضوى ، كما أن الأعمال خارج البيت ، تتسم بالرتب (٢) والصعوبة ، بحث لا يقدر على تحملها واتقانها سوى الرجل ، لما حباه الله سبحانه من قوة الجسم ، وسلامة تكوينه العضوى من التعطيل الذى تصاب به المرأة أثناء عادتها الشهرية وحملها ورضاعتها ، فلا معنى – بعد كل هذا – الا أن تعطل طاقة المرأة ، وتعطل مملكتها داخل البيت ، ويفقد البيت أهم خصائصه من الحنان والطمأنينة والسكينة ، ويفقد بالتالى رب البيت الراحة التى يتطلبها عند عودته من الكدح وعناء الأعمال خارج البيت ، فيظل لذلك كئيبا : يعانى خارج البيت مشقة العمل ، كما يفقد داخله الأنس والراحة النفسية ، وحينئذ لا يجد هو ولا زوجه ولا أولاده ذلك البيت الذى توفرف عليه السعادة ، وصدق الله القائل : (ومن آياته

---

(١) المعلى : هو القدح السابع فى الميسر ، وهو أفضلها ، اذا فاز حاز سهمة إنصباء من الجزور . اللسان ٩١/١٥ ويضرب به المثل لمن فاق غيره فى أى أمر .

(٢) قال فى اللسان : ومافى هذا الأمر رتب ولا عتب : أى عناء ولا شدة ٤١١/١ .

أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (١) ، فسكون كل من الزوجين الى الآخر ، والطمأنينة التى يحس بها كل منهما ، هو علاج ذلك القلق والاضطراب الذى يصاب به من لا زوج له ، أو له زوج لا يرعى حقا من الحقوق الزوجية ، فلا يوجد لذلك الزواج أثر من المودة والرحمة ، اللتين تضفيان (٢) على البيت سعادة وجمالا .

وأما قراءة الكسر ((وقِرن)) التى يستفاد منها الأمر بالوقار : الحلم والرزانة والسكون ، وهى المتضمنة للتوجيه الى العمل فى البيت من أجل رب الأسرة . ففيها أيضا الاشارة الى أنه لا يكفى من المرأة مجرد بقائها فى بيتها ، دون ملاحظة للسلوك الذى ينبغى أن تكون عليه المرأة داخل بيتها ، من التحلى بهذه الصفات الكريمة ، لأن سلوكها داخل البيت ، سيكون محل قدوة لمن ينمو ويتربى بين يديها وفى حضنها ، فالأمهات المدرسة الأولى للأجيال الناشئة ، وما المرأة لأولادها ، الا بمنزلة المرآة ، يرون فيها صورتهم . ولأن عشرتها مع زوجها ينبغى أن تكون مترفعة عن الطيش والخفة .

فالمرأة التى يغلب حلمها جهلها ، ورزانتها طيشها ، تنعكس أخلاقها على طابع البيت ومن ينشأ فيه ، وتكون ثمار تلك الأخلاق مثلها كريمة وطيبة .

---

(١) سورة الروم ٢١ .
(٢) فى اللسان : الضفو : السبوغ ١٤/٤٨٥ .

أما المرأة التي لا تحكم التصرف مع من حولها ، فسيكون نتيجة بقائها في بيتها ، متنافيا مع مقاصد الشرع ، ويصبح هذا النوع من النساء مشلولا لا فائدة فيه ، عالة على الأسرة والمجتمع ، أينما توجهه لا يأت بخير. وهذا ما يوجب تعليم المرأة تعليما شرعيا لتقوم عليه تربيتها لنفسها ولأولادها وأداء واجبها مع زوجها .

وفي اضافة البيوت اليهن لطيفة ، وهي : حفزهن على بذل أكبر جهد ممكن في اقامة واصلاح هذه البيوت . فالبيوت بيوتهن ، وهن المسئولات عنها ، وكل ما ينشأ في جو هذه البيوت أو يخرج منها فانه ينسب اليهن خيرا كان أو شرا ، لأنهن صواحباتها والمسئولات عنها ، وقد ورد في السنة المطهرة الترغيب في لزوم المرأة بيتها . ولا يعني كل هذا أن الخروج من حيث هو محظور على المرأة ، بل لها الحق في الخروج حين تدعو الحاجة الى خروجها ، فقد أذن لها الشارع بالخروج الى المسجد للصلاة ، وأن تشهد صلاة العيد ، وكذا أن تخرج لزيارة المريض ، وللمشاركة في الغزو مع المجاهدين ، ونحو ذلك ، كما أباحت لها التصرف في مالها .

أما الخروج للصلاة في المسجد ، فصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : " اذا استأذنت أحدكم امرأته الى المسجد فلا يمنعها"(١)

---

(١) البخاري ، كتاب الآذان ١/٢١٨ — ٢١٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ١/٣٢٧ . كلاهما عن ابن عمر رضي الله عنهما .

وأما الخروج لشهود صلاة العيد ، فلحديث أم عطية رضى الله عنها ، عند الشيخين ، قالت : " أمرنا (تعنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم) أن نخرج فى العيدين ، العواتق[1] وذوات الخدور[2] ، وأمر الحيض أن يعتزلن مصلى المسلمين[3] " وفى لفظ : " فأما الحيض فيعتزلن الصلاة ، ويشهدن الخير ودعوة المسلمين[4] " .

وأما الخروج لزيارة المريض ، فلحديث عائشة رضى الله عنها عند البخارى ، قالت : " لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وعك أبو بكر وبلال رضى الله عنهما ، قالت : فدخلت عليهما ، قلت : يا أبت كيف تجدك ؟ ويا بلال كيف تجدك ؟ ... وفيه ، قالت عائشة : فجئت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته ... الحديث[5] " .

وأما الخروج للغزو مع المجاهدين ، فصح فى ذلك روايات ، منها : حديث الربيع بنت معوذ عند البخارى ، قالت : " كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فنسقى القوم ونخدمهم ، ونرد الجرحى والقتلى الى

---

(١) العواتق : جمع عاتق ، وهى الجارية التى قد أدركت وبلغت ، فخدرت فى بيت أهلها ولم تتزوج . اللسان ١٠/٢٣٥ .
(٢) الخدور : جمع خدر ، وهو ستر يمد للجارية فى ناحية البيت ، ثم صار كل ما واراك من بيت ونحوه خدرا . اللسان ٤/٢٣٠ .
(٣) البخارى ، باب فى العيدين ٢/٢٨ ، ومسلم ، كتاب صلاة العيدين ٢/٦٠٥ — ٦٠٦ .
(٤) المرجعان السابقان .
(٥) البخارى كتاب الطب ٧/١٥١ .

المدينة "[1]، وحديث أم عطية الأنصارية عند مسلم ، قالت : "غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى"[2].

واما الخروج للكسب فيكفي فيه قوله تعالى: (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ... الآية) سورة النساء ٣٢

وقد يقال : لعل هذه الأمور كانت مباحة للمرأة قبل نزول الحجاب ، أما بعده فلا .

والجواب: أنه لا منافاة بين أن تقوم المرأة بما وجب عليها من الحجاب الشرعي ، مع مزاولة هذه الأمور خارج البيت عند الحاجة ، وبعد مؤاذنة الزوج ، وعند عدم الفتنة من ذلك ، ويدل لذلك حديث عائشة رضي الله عنها عند مسلم ، قالت : "خرجت سودة بعد ماضرب عليها الحجاب لتقضي حاجتها ، وكانت امرأة جسيمة[3] ، تفرع[4] النساء جسماء لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب ، فقال : يا سودة والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت: فانكفأت راجعة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي ، وانه ليتعشى ، وفي يده عرق[5] ، فدخلت فقالت[6] : يارسول الله اني خرجت فقال لي عمر :

---

(١) البخاري ، كتاب فضل الجهاد والسير ٤/ ٤١ .
(٢) مسلم ، كتاب الجهاد والسير ٣/ ١٤٤٧ .
(٣) جسيمة : أي عظيمة الجسم .
(٤) في اللسان : وكل عال طويل : مفرع ... ومنه حديث سودة : كانت تفرع الناس (كذا) طولا ٨/ ٢٤٧ .
(٥) العراق : العظم بغير لحم ، فإن كان عليه لحم فهو عرق . اللسان ١٠/ ٢٤٤ .
(٦) صحيح مسلم ، كتاب السلام ٤/ ١٧٠٩ .

كذا وكذا . قالت : فأوحى اليه ، ثم رفع عنه ، وان العرق فى يده ماوضعه .
فقال : " انه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن "[1] .

ولا يقال : ان هذا الخروج فيه تعطيل لحق الزوج .

لأن الذى يأذن لها بالخروج ، هو الزوج ، والزوج يعرف متى تكون المصلحة فى خروجها ، وهل هى غنية عن هذا الخروج أو محتاجه اليه ؟ وهل خروجها سيؤدى الى ضرر أو فتنة أو لا ؟

فاذا وجد المقتضى للخروج ، وانتفى المانع ، جاز لها الخروج والا فلا .

وأما الخروج للغزو ، الذى قد يقتضى أن تقضى المرأة فى الغزاة أياما ، فانه - الى جانب أن الخروج لن يكون الا باذن الزوج - لابد لها فى هذه الحال من أن يكون معها زوجها أو ذو محرم ، وأن تكون المهمة التى تقوم بها فى خدمة لجيش لا تتعدى الحدود التى أجازها الشرع لها ، وأن تكون فى جو مأمون الفتنة ، اما مع رقابة مؤمنة أو بدونها .

ولما كان لابد لهن من الخروج الذى تضطرهن اليه الحاجة ، بين الله عز وجل لهن الأدب الذى يجب عليهن لزومه اذا ما خرجن فقال سبحانه : ((ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)) أما التبرج : فمأخوذ اما من البرج بمعنى الظهور والارتفاع " وكل ظاهر مرتفع فقد برج . وانما

---

(١) صحيح مسلم : كتاب السلام ٤/١٧٠٩ .

قيل للبروج : بروج ، لظهورها وبيانها وارتفاعها[1] " لأن المرأة تظهر ما حقه الستر . أو من " البرج بمعنى بجل العين ، وهو سعتها "[2] ، وهى صفة تدل على الحسن والجمال ، لأن المرأة بتبرجها تظهر مفاتنها ومحاسنها . قال فى اللسان : " والتبرج اظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال . وتبرجت المرأة أظهرت وجهها . واذا أبدت المرأة محاسن جيدها ووجهها ، قيل : تبرجت ، وترى مع ذلك فى عينيها حسن نظر ... "[3] .

وحينئذ يقال فى معنى التبرج : هو أن لا تظهر المرأة على حال تؤدى الى الاغراء والفتنة .

أما ((الجاهلية الأولى)) فذكر المفسرون فى معناها أقوالا ، لا يستند شىء منها على دليل يمكن الترجيح به والاعتماد عليه .

والظاهر — والله أعلم — أنه لم يقصد بكلمة ((أولى)) تحديد جاهلية فى زمن معين ، كزمن ما بين عيسى ومحمد ، أو آدم ونوح أو نوح وادريس — عليهم الصلاة والسلام — على ما قيل .

وانما المراد مطلق الجاهلية الغابرة ، والقيد بالأولى ، لا يعنى أن هناك أولى وأخرى ، وانما هو من باب قوله تعالى : (وأنه أهلك عادا الأولى)[4] ، وهو المعنى ، هو الذى ذهب اليه — فى الجملة —

---

(١) اللسان ٢/ ٢١١ بتصرف .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النجم ٥٠ .

ابن جرير[١] ، والرازى[٢] ، ونقله القرطبى[٣] عن المبرد* ، ونقل ابن العربى[٤] عن القاضى عياض قوله : " الذى عندى أنها جاهلية واحدة ، وهى قبل الاسلام ، وانما وصفت بالأولى ، لأنها صفتها التى ليس لها نحت غيرها ، وهذا كقوله : (قال رب احكم بالحق[٥]) وهذه حقيقته ، لأنه ليس يحكم الا بالحق "* . ولا مانع من حمل القيد بالأولى على ارادة جاهلية الأمم التى سبقت العرب وغرقت فى مظاهر الترف والفجور كالاغريقيين والفراعنة والفينيقيين ، فهى أيضا جاهلية لم تستضئ بهدى ولا نور ، وانما كانت أقرب الى الحيوانية منها الى الانسانية ، وفى هذه الجملة من هذه الآية الكريمة ، اشارة الى أنه ليس المراد من الأمر بلزوم المرأة بيتها أن لا تخرج فى أى حال ، لأن الحاجة قد تحملها على الخروج من البيت ، وقد سبق ذكر حالات أجاز الشارع للمرأة الخروج فيها ، غير أنه يجب على المرأة عند خروجها ، أن تلتزم بهذا الأدب ، المذكور فى قوله تعالى : ((ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)) .

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢/٤ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٥/٢٠٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧٩ .

(٤) أحكام القرآن ٣/١٥٣٧ .

(*) المبرد : ٢١٠ - ٢٨٦ هـ هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدى ، أبو العباس ، المعروف بالمبرد : امام العربية ببغداد فى زمنه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار ، مولده بالبصرة ووفاته ببغداد ، من كتبه : "الكامل" و "المذكر والمؤنث" و "المقتضب" .

(٥) سورة الأنبياء ١١٢ .

(*) القاضى عياض ٤٧٦ - ٥٤٤ هـ هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن اليحصبى السبتى ، أبو الفضل ، عالم المغرب ، وامام أهل الحديث فى عصره ، كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ، ولد فى سبتة ، وتوفى بمراكش ، من مصنفاته : "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و "شرح صحيح مسلم" و "الالماع الى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع" .

وبالجملة : فالآية فيها الأمر بلزوم المرأة البيت ، فان دعت الحاجة لخروجها ، فلتكن على تبذل[1] وتستر تام .

وقد عابت عائشة رضى الله تعالى عنها ، ما أحدثه النساء بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند خروجهن الى المساجد ، ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أحدث النساء لمنعهن كما منعت نساء بنى اسرائيل[2] " وليس معنى هذا أن كلام عائشة رضى الله تعالى عنها يعارض النص ، ولكنها فهمت من النص ، أن اباحة الخروج لهن مقيد بأن لايحدثن ما يخالف آداب الشرع ، وانه يجب تعليمهن ، والزامهن التمسك بآداب الشرع ، وأنه عند عدم الالتزام يمنعن من الخروج .

وقيد التبرج بتبرج الجاهلية الأولى ، للاشارة الى أن التبرج من أمر الجاهلية ، وأن من فعلته من النساء ، فقد أحدثت جاهلية فى الاسلام ، وفى هذا التعبير أيضا دفع لهن الى المبادرة الى النفور عن التبرج لأنهن بحكم اسلامهن صرن يكرهن كل شيء من أمر الجاهلية .

وليس المراد من الحجاب ، مجرد تغطية الجسم ولفه بقطعة من ~~القماش~~ الثياب ، رهبة من سلطان ، أو فرارا من عار يلحقها ، أو حفاظا على عادة ، دون أن يكون ذلك مقصودا به اتباع الشرع ، تقوم به المرأة عن طواعية من نفسها ، رغبة منها فى تنفيذ أحكام الشرع وآدابه فى نفسها .

---

(١) التبذل : ترك التصاون . والبذل والمبذلة : الثوب الخلق . والمتبذل : لابسه . اللسان ١١/٥٠ .

(٢) صحيح البخارى ، باب بدء الآذان ١/٢١٩-٢٢٠ . ومسلم ، كتاب الصلاة ١/٣٢٩ .

فالشارع الحكيم ، لم يفرض هذا الحجاب عليها عبثا ، وانما أراد به أن يكون وسيلة الى صونها وطهارتها الظاهرة والباطنة ، فهو مثلا اذا حجاب يغطى العفائف من المحصنات الغافلات المؤمنات ، لا أن يغطى جيفا وقاذورات ومستقمات ، فان المرأة حين تنحرف بالحجاب عن مقاصده الشريفة الى أهداف رذيلة ، يكون ذلك تشويها لحقيقة الحجاب وأهدافه السامية •

وبعد هذا التوجيه الالهى ، الى هذه الآداب الكريمة ، التى يراد بها ابعادهن عن هذا السوء وتطهيرهن من هذا الخلق الشين ، وجههن الله عز وجل ، الى جماع الخير كله حيث أمر باقامة بعض الشعائر التعبدية ، فقال سبحانه : ((وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله)) خص الله عز وجل بالذكر الصلاة والزكاة ، من بين فرائض الاسلام • ولعل السر فى ذلك ، ما قاله الزمخشرى : " لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية ، هما أصل سائر الطاعات من اعتنى بهما حق اعتنائه جرتاه الى ما وراءهما " (1) وفيه رسم للطريق الذى يجب أن تكون عليه المرأة فى بيتها من اقامة الصلاة فى أوقاتها ومواساة الفقير من ايتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فى القيام بما عليها نحو أولادها من التربية ونحو زوجها من حسن العشرة •

وفى تخصيص الصلاة والزكاة بالذكر أيضا ، كونهما أقرب أركان الاسلام - بعد الشهادتين - الى التوحيد ، والنظر فى المصالح العامة للمسلمين •

---

(١) الكشاف ٢٦٠/٣ •

أما الصلاة فمحض تعبد ، وتطبيق عملى لتوحيد الله عز وجل ، وافراده بكمال الخضوع والتذلل .

وأما الزكاة ، فهى الركن الاجتماعى الذى يحمل على الشفقة والرأفة بعباد الله تعالى ، كما يحمل النفس على البذل والسخاء فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته ، والادخار ليوم المعاد ، الى جانب ما فيه من مصالح اجتماعية جليلة ، فهو يثمر الحب والألفة ، ويقوى رابطة الأخوة بين المسلمين ، ويطهر النفوس من البغضاء والحقد والحسد ، التى قد يكون الباعث عليها حاجة الفقير وبخل الغنى ، ولا مانع من حمل ايتاء الزكاة هنا على مطلق البذل لمستحقيه ، لأن المراد بذل ما يطهر النفس من رذيلة الشح ، وهذا الأمر بالانفاق منهن ، يأتى فى الوقت الذى يطالبن فيه بالانفاق عليهن ، تنبيها لهن ، الى السبيل الأقوم فى حقهن وهو أن ينفقن لا أن يطالبن بالانفاق عليهن .

والأمر بعدهما بطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أمر شامل لكل ما يمكن أن تصنعه المرأة فى بيتها من خير وهدى واصلاح .

وعند التأمل فى التعبير القرآنى ، نجد الأمر بالصلاة ، يأتى مقرونا دائما باقامتها ، لا بمجرد أدائها ، بخلاف الزكاة ، فانه يكتفى فى جانبها بالأمر بالأداء ، ذلك أن الزكاة اذا ما أديت الى صنف من الأصناف الذين حددهم الله عز وجل فى كتابه ، تؤتى ثمارها ، وتقبل من

صاحبها اذا ما صاحبها الاخلاص — وهو شرط فى جميع العبادات ، لا تختص به عبادة دون أخرى — أما الصلاة ، فلا يكفى فيها مجرد الأداء ، وانما يلزم أن يكون هناك مع الأداء اقامة لها .

وللاقامة أربعة معان ذكرها الزمخشرى فى تفسيره ، وهى :

الأول : تعديل أركانها ، وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وسننها وآدابها ، من أقام العود اذا قومه .

الثانى : الدوام عليها والمحافظة ، كما قال تعالى : (الذين هم على صلاتهم دائمون)(١) (والذين هم على صلاتهم يحافظون)(٢) ...

الثالث : التجلد والتشمر لأدائها ، وأن لا يكون فى مؤديها فتور همها ولا توان ، من قولهم : قام بالأمر ، وقامت الحرب على ساقها ...

الرابع : أداؤها . فعبر عن الأداء بالاقامة ، لأن القيام بعض أركانها ، كما عبر عنه بالقنوت ، والقنوت القيام(٣) ... " .

فهذه المعانى الأربعة ، التى ذكر الزمخشرى امكان حمل الاقامة على واحد منها ، نجد أنه — عند النظر فيها — ، لا مانع من حمل الاقامة هنا على جميعها ، اذ لا تنافى بينها ، بل كلها متلازمة ومطلوبة فى أداء الصلاة .

والتعبير بقوله : لأن القيام ... الى آخره ، تعليل عليل ، فتأمله .

---

(١) سورة المعارج ٢٣
(٢) نفس السورة ٣٤
(٣) الكشاف ١/ ١٢٩ — ١٣٠ بتصرف .

قال الراغب : " واقامة الشيء توفية حقه ، وقال : (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل)[1] أى توفون حقوقهما بالعلم والعمل ، وكذلك قوله : (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل)[2] ولم يأمر تعالى بالصلاة حيثما أمر ، ولا مدح به حيثما مدح الا بلفظ الاقامة ، تنبيها أن المقصود منها توفية شرائطها ، لا الاتيان بهيئاتها ، نحو : (أقيموا الصلاة) فى غير موضع[3] ، (والمقيمين الصلاة)[4] "[5].

وكأن الأمر بالصلاة والزكاة ، عقب هذه الآداب التى وجه الله عز وجل اليها أمهات المؤمنين فيه ارشاد الى الطريق الأمثل ، التى يحصل بها للعبد الطهر الكامل ، والنقاء المطلق ، الظاهر والباطن ، وذلك من شأن العبادات التى يتجه بها العبد الى الله عز وجل اتجاها صادقا ، يعبر بها عن كمال خضوعه وانقياده لله سبحانه ، واستعداده لتلقى كل ما يأتى من عند الله سبحانه بنفس راضية مطمئنة .

وقد ذكر الله عز وجل بعض ثمار الصلاة فى مثل قوله : (وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ...)[6] الآية .

---

(١) سورة المائدة ٦٨ .
(٢) نفس السورة ٦٦ .
(٣) من هذه المواضع آية ٧٢ سورة الأنعام .
(٤) سورة النساء ١٦٢ .
(٥) مفردات الراغب ٤١٨ .
(٦) سورة العنكبوت ٤٥ .

فهى الى جانب كونها تعصم المقيم لها من المعاصى — تنهى عن الفحشاء والمنكر — هى أيضا ذكر لله تعالى ، وذكر الله أكبر .

وهناك أمر آخر ملحوظ ، وهو أن الله عز وجل لما أرشد الى الأمور التى تصون المجتمع من الفاحشة ، أعقب ذلك بالأمر باقامة الصلاة التى هى أحد أركان الاسلام ، والتى لا يتم اسلام المرء بدونها ، للاشارة الى أن الآداب التى أمر الله سبحانه بالتزامها صيانة للمجتمع ، أركان فى اقامة المجتمع الصالح المثالى ، وتطهيره من كل رذيلة تدنسه ، لا يقوم ذلك بدونها .

وفى ختام هذا المنهج الربانى ، يأتى الأمر الشامل لكل خير ، فيقول جل وعلا : ((وأطعن الله ورسوله)) وطاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، تعنى الانقياد التام لكل ماجاء عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فعلا وتركا واعتقادا ، وهو أمر شامل لما تقدم وغيره من أحكام الشرع وآدابه ، وفيه اشارة الى ما تقدم مما حصل منهن رضوان الله عليهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما أغضبه وضيق صدره ، فأعاد الله سبحانه الاشارة الى هذا ليكن دائما على ذكر من مقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يجب له من حق عليهن .

وأمهات المؤمنين اللاتى وجه اليهن هذا الخطاب ، كونهن أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن أهل بيته ، وألصق الناس به ، والمعاشرات له ، والعارفات بعبادته وما يشرعه الله

تعالى على لسانه ، أجدر أن يوجه اليهن الأمر بطاعة الله عز وجل ، وطاعة رسولــه صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنهن فى منزلة القدوة لغيرهــــن ، فكل عمل يقمن به ، هو مثل أعلى فى الامتثال والطاعة ، يعتبره النــــاس من الأمور المشروعة ، فلذلك كان وقوفهن عند حدود الله تعالــــى ، بطاعة الله سبحانه وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم الطاعة الكاملــــة من الأمور الهامة فى الاسلام .

ثم ان هذا الأسلوب ، يتضمن أمرا آخر ، وهو بيان الاهتمام بأزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم حيث وجه سبحانه الأمر اليهن بذلك مرتين ، فخصهن بهذا التكرار فى الأمر لمنزلتهن من رسول الله صلى الله عليه وآلــه وسلم . فكأنه قيل — بعد ذلك — : لم خصهن تعالى بهذا التأكيــد المشدد عليهن دون غيرهن ؟

فقال : ((انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركـــم تطهيرا)) .

وهذه الجملة من الآية الكريمة ، واقعة موقع التعليل لما سبقها مـــن التخصيص بأمر أمهات المؤمنين ، باقامة وأداء أمور من آداب الاســـــلام وأركانه هى واجبة على غيرهن كوجوبها عليهن .

وعلى هذا بنى الزمخشرى حيث قال : "ثم بين أنه انما نهاهـــــن وأمرهن ووعظهن ، لئلا يقارف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآلــه وسلم المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوى"(1) .

---

(1) الكشاف ٣/٢٦٠ .

ويقول الآلوسى : " ان المعنى (أى حسب ما ينساق اليه الذهن ، ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهى والأمر) : نهاكم الله وأمركم ، لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم اذهاب الرجس عنكم ، وفى ذلك غاية المصلحة لكم ، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود اليكم ... "(1).

وفى هذا التعبير القرآنى " لطيفة ، وهى أن الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل ، فقوله تعالى : ((ليذهب عنكم الرجس)) أى يزيل عنكم الذنوب ((ويطهركم)) أى يلبسكم خلع(2) الكرامة "(3)

أما الرجس : فمعناه فى أصل اللغة : القذر(4) ، أو الشيء القذر(5).

وقد ذكر فى القرآن الكريم عشر مرات ، فى تسع آيات ، فى سبع سور(6).

قال الراغب : " والرجس يكون على أربعة أوجه : اما من حيث الطبع ، واما من جهة العقل ، واما من جهة الشرع ، واما من كل ذلك كالميتة ، فان الميتة تعاف طبعا وعقلا وشرعا ... "(7).

وعند التأمل فى الآيات الكريمة ، التى ورد فيها ذكر الرجس ، نجد

---

(١) روح المعانى ١٩/٢٢.
(٢) الخلعة من الثياب : ما خلعته فطرحته على آخر أو لم تطرحه . اللسان ٧٦/٨ .
(٣) تفسير مفاتيح الغيب ، للرازى ٢٠٩/٢٥.
(٤) مفردات الراغب ١٨٨ ، واللسان ٩٤/٦.
(٥) المرجعان السابقان.
(٦) وهى كما يلى : فى سورة المائدة ٩٠ وفى سورة الأنعام ١٢٥، ١٤٥ وفى سورة الأعراف ٧١ ، وفى سورة التوبة ٩٥، ١٢٥ (مرتين)وفى سورة يونس ١٠٠ وفى سورة الحج ٣٠ وفى سورة الأحزاب ٣٣.
(٧) مفردات الراغب ١٨٨.

أن معناه لا يخرج عن خمسة معان ، وهي التي ذكرها صاحب اللسان بقوله: " الرجس القذر ، وقد يعبر به عن الحرام ، والفعل القبيح ، والعذاب ، واللعنة ، والكفر "(1) .

وأقرب ما يحمل عليه في الآية التي معنا ، المعنى الثاني وهو الفعل القبيح ، وان اختلفت عبارات المفسرين فيه . فقيل : السوء والفحشاء(2) ، وقيل : الذنوب(3) .. الى غير ذلك.

وهذا المعنى (الفعل القبيح) هو المناسب للسياق . وأل في (الرجس) هنا ، للعهد .

والمراد الاشارة الى ما سبق ، وهو المعبر عنه بالفاحشة في الآية السابقة ، والمراد به مخالفة منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، واعناته في المطالبة بالتوسعة في النفقة وأمور الدنيا .

واختيار عبارة الرجس هنا ، لما يدل عليه من القذارة المعنوية ، المدنسة لمرتكب الذنب ، وفي ذلك يقول الزمخشري : " استعار للذنوب الرجس ، وللتقوى الطهر ... وفي هذه الاستعارة ، ما ينفر أولي الألباب ، عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه ، ويرغبهم فيما رضيه لهم وأمرهم به "(4) .

... ...

---

(1) اللسان ٦/ ٩٥.
(2) قاله ابن جرير ، ونسبه الى قتادة ٢٢/ ٤.
(3) الزمخشري ٣/ ٢٦٠.
(4) المرجع السابق .

أما من هم أهل البيت المعنيون في هذه الآية ؟

فالظاهر من السياق ، أن المراد بهم أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن خاصة ، اذ الخطاب معهن ابتداء من قوله تعالى ((يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة ... الآية ٣٠/)) الى آخر قوله تعالى ((واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا)) آية ٣٤ وهي الآية التي تلي التي نحن بصددها .

واما ما ورد في بعض الأحاديث ، من أن المراد بأهل البيت أهل الكساء ، وهم علي والحسن والحسين وفاطمة رضوان الله عليهم ، من ذلك ما رواه الترمذي عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ((انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)) في بيت أم سلمة ، فدعا فاطمة وحسنا وحسينا ، فجللهم بكساء ، وعلي خلف ظهره فجلله بكساء ، ثم قال : اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . قالت أم سلمة : وانا معهم يا نبي الله ؟ قال : أنت على مكانك وأنت على خير " قال : هذا حديث غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة (١).

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ٥/٣٥١ - ٣٥٢ والحديث في سنده محمد بن سليمان الأصبهاني ، قال عنه ابن حجر في التقريب صدوق يخطئ ، ٢/١٦٦ ، وفيه أيضا يحيى بن عبيد ، لم يجزم ابن حجر بمعرفته بل أورد احتمال كونه يحيى بن عبيد المكي ، والا فهو مجهول. تقريب التهذيب ٢/٣٥٣ .

وقوله في الحديث : " أنت على مكانك وانت على خير " : أي مازلت على المكان الذي وضعك الله تعالى فيه ، من كونك من أهل بيتي ، ولا ينقص من مكانك عدم الدخول في الكساء ، فأنت على جانب عظيم من الخير .

فالجواب عن هذا أن هذه الأحاديث لم ترد فى الصحيحين ولا فى أحدهما ، وعلى فرض صحة بعض طرقها فلا حجة فيها أيضا على شمول الآية لهم والا فلا وجه لدعاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لهم كما فى الحديث المذكور آنفا بقوله : " اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس ... الحديث " بعد أن أخبر الله عز وجل بأنه يريد اذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم .

بل يحتمل أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لما رأى انعام الله سبحانه وتفضله على أزواجه - بعد العتاب الشديد لهن على مخالفتهن منهجه صلى الله عليه وآله وسلم - أراد أن يدخل أهل بيته الذين جللهم بالكساء فى هذه المنة الكبرى ، طلبا لمزيد فضل الله وانعامه عليهم .

ولا ينقص هذا من شأن أهل الكساء ، بل فيه رفع لمكانتهم ، اذ أن تكريم أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن كان بعد العتاب لهن ، بخلاف الدعاء لأهل الكساء فقد جاء فى مقام التكريم المحض .

وأما ما احتج به القائلون بعموم النص ، على شموله للزوجات وغيرهن ، أو ان المراد به خصوص غير الزوجات لمجيئ الخطاب فى الآية بضمير الجمع المذكر ((عنكم ... ويطهركم)) فغير مسلم ، لأن من أساليب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، أن زوجة الرجل يطلق عليها اسم الأهل ، وباعتبار لفظ الأهل تخاطب مخاطبة الجمع المذكر ، ومنه قوله تعالى : (اذ قال موسى لأهله انى آنست نارا سآتيكم منها بخبر

أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون[(1)]) والمخاطب امرأته .

هذا ما اقتضاه المقام حسب السياق .

ثم يستمر السياق فى ذكر الحفاوة والتكريم لأمهات المؤمنين ،
فيستأنف الأمر لهن بما يشعر بالتكريم والامتنان عليهن بنعمة عظيمة ،
فيقول عز وجل :

((واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان
لطيفا خبيرا /٣٤))

والواو هنا عاطفة على ما سبق من الأوامر ، اذ المأمور به هنا
واحد من التكاليف التى أمرت أمهات المؤمنين بالقيام بها .

والذكر هنا يحتمل معان :

منها : أن يراد به أن يكن على ذكر دائم وتفكر ، واستحضار غير
منقطع لهذه النعمة الجليلة التى اختصهن الله تعالى بها دون سائر
النساء ، ليكون ذلك باعثا لهن على مزيد شكره تعالى وحمده ،[(2)] وهذا
كثير الورود فى القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى - فى الآية السابقة -

---

(1) سورة النمل ٧ .
ومعنى آنست : أبصرت . والشهاب : الشعلة الساطعة من النار
الموقدة . والقبس : المتناول من الشعلة . راجع مفردات الراغب .
وتصطلون : تستدفئون . وفى اللسان : اصطلى بها : استدفأ . جـ ١٤
٤٦٨ .

(٢) وهذا المعنى فى الجملة ، هو الذى ذهب اليه ابن جرير ٩/٢٢ ،
والزمخشرى ٣/٢٦٠ ، وذكر القرطبى وجوها يحتملها الذكر هنا ،
منها هذا جـ ١٤/١٨٤ وذكره الشوكانى ٤/٢٨١ .

((يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم)) وقوله سبحانه : (يابني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين[1]) وغيرهما .

ومنها : أن يراد به أن يعملن بذلك :

أي اذكرن الله تعالى بما يتلى في بيوتكن ، فكأنه سبحانه أمرهن أن يقمن بكل ما يشتمل عليه المتلو في بيوتهن من أحكام الشرع[2] ، الواردة في كتابه سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ومنها : ما ذكره ابن العربي بقوله : " أمر الله أزواج رسوله بأن يخبرن بما أنزل الله من القرآن في بيوتهن ، وما يرين من أفعال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقواله فيهن ، حتى يبلغ ذلك الى الناس فيعملوا بما فيه ويقتدوا به[3] " .

والمعنى على هذا : بلغن عن رسول الله ما يتلى في بيوتكن من نصوص الأحكام الشرعية .

ومن هنا تظهر احدى الحكم العظيمة في تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنهن مبلغات لما يأخذنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أحكام وآداب وسلوك وتربية ، وفي ذلك الكثير

---

(١) سورة البقرة آية ٤٧ .
(٢) وذهب اليه ابن كثير ، وعزاه الى قتادة ٤٨٦/٣ ، وهو أحد المعاني التي ذكرها القرطبي ١٨٤/١٤ .
(٣) أحكام القرآن ١٥٣٨/٣ ، وذكره القرطبي ١٨٤/١٤ ، وأبو السعود ٤١٧/٤ .

مما لا يستطيع غيرهن الاطلاع عليه ، وهو شامل لأحكام النساء فى الاسلام ، غير ما يسألن عنه من قبل الصحابة مما غاب عنهم من التشريعات العامة .

وقال الامام البيضاوى : " وهو تذكير بما أنعم الله عليهن من حيث جعلهن أهل بيت النبوة ، ومهبط الوحى ، وما شاهدن من برحاء الوحى[1] ، مما يوجب قوة الايمان والحرص على الطاعة ، حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفن به[2] " .

وقد يقال : لماذا اختار " يتلى " على أنزل ، مع أن الانزال أنسب لكون بيوتهن مهبط الوحى ، ولأنه أدخل فى الموعظة لنساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه يعنى المشاهدة الحية لرؤية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يعانى تلقى الوحى ، وذلك فيه غاية الموعظة ؟

والجواب : انه اختار التلاوة " لعمومها لجميع الآيات ، ووقوعها فى كل البيوت ، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير ، بخلاف النزول . وعدم تعيين التالى لتعم تلاوة جبريل ، وتلاوة النبى عليهما الصلاة والسلام ، وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما[3] " .

وفى هذا اشارة الى أن بيوتهن كانت عامرة بتلاوة آيات الله ، مما يجعلهن على ذكر دائم بها واستعداد متواصل للعمل بها .

---

(١) والبرحاء : الشدة والمشقة . اللسان ٢/٤١٠ .
(٢) تفسير البيضاوى ٥٥٦ .
(٣) تفسير أبى السعود ٤/٤١٧ ــ ٤١٨ .

وهنا شيء آخر ، وهو أن أهمية ذكر الانزال فى الوعظ وتهذيب السلوك ، خاص بأمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن ، بخلاف التلاوة ، فان الارشاد بها يتمداهن الى سائر المؤمنات ، بل الى كل المسلمين فى كل عصر ومصر .

و " من " فى قوله تعالى : ((من آيات الله والحكمة)) بيانية .

وقد جرى أكثر المفسرين(١) على تأويل آيات الله : بالقرآن . والحكمة : بالسنة ، حتى قال القرطبي : " قال أهل العلم بالتأويل : " آيات الله " القرآن " والحكمة " السنة .

ويرى البعض الآخر من المفسرين تأويل آيات الله والحكمة : بالقرآن .

منهم الزمخشرى ، قال : " ثم ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحى . وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب ، الجامع بين أمرين : هو آيات بينات تدل على صدق النبوة لأنه معجزة بنظمه ، وهو حكمة وعلوم وشرائع "(٢) .

ولا يبعد أن يكون هذا الاحتمال هو الأقرب ، فان الحكمة قد أطلقت فى القرآن الكريم ، على ما فيه من أحكام وآداب ، كما فى قوله تعالى : (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة)(٣) اشارة الى الوصايا المتقدمة على هذه الآية

---

(١) منهم ابن جرير ٢٢/٩ وعزاه الى قتادة ، والرازى ٢٥/٢١٠ ، والقرطبى ١٤/١٨٤ ، وابن كثير ٣/٤٨٦ ، والآلوسى ٢٢/٢٠ .
(٢) الكشاف ٣/٢٦٠ - ٢٦١ ، واليه ذهب البيضاوى ٥٥٦ ، وأبوالسعود ٤/٤١٧ .
(٣) سورة الاسراء آية ٣٩ .

والمبدوءة بقوله تعالى : (لا تجعل مع الله الهـا آخر فتقعد مذموما مخذولا) [1] ، فان ما تضمنته من الأوامر والنواهي قائمة على غاية الاحكام .

وقوله تعالى : ((ان الله كان لطيفا خبيرا)) ذيلت هذه الآية ـ وهي الآية الأخيرة من الآيات الواردة في شأن أمهات المؤمنين ـ بقول الله سبحانه : ((ان الله كان لطيفا خبيرا)) للاشارة الى لطف الله سبحانه بأمهات المؤمنين ، بعدما سبق من التأديب لهن ، وفيه دلالة على أن ما سبق من تأديبهن انما كان الغرض منه التلطف بهن .

ومن لطف الله عز وجل بعباده ، أن أنزل عليهم هذا المتلو ، الذي به تصلح شئونهم الخاصة والعامة ، ويستقيم مجتمعهم على أزكى الأخلاق وأرفعها ، بل يصلح به أمر دينهم ودنياهم ، فالله عز وجل هو الخبير بما يصلح لعباده .

وفي قوله سبحانه : ((خبيرا)) تحريض لهن على التزام السلوك الذي وجههن اليه ، لأنه سبحانه خبير بما يصير اليه حالهن من الالتزام بذلك ، فلا يخفى عليه من أمرهن شيء .

... ...

---

(١) سورة الاسراء ٢٢ .

البحث الرابع عشر

صفات الصفوة فى المجتمـع الاســـــلامى

المناسبة :

لما ذكر الله عز وجل ما لأمهات المؤمنين رضوان الله عليهن عنده من مكانة رفيعة ، وخصائص جليلة اختصهن بها دون سائر نساء المؤمنين ، كأن قائلا يقول : اذا كانت هذه مكانة أمهات المؤمنين ، فما مكانة سائر المؤمنات عند الله تعالى ؟

فجاءت الآية التالية جوابا على ذلك ، وحملت بشرى المغفرة والأجر العظيم ، الى كل من اتصف بهذه الصفات ، من الرجال والنساء ، قال الله تعالى :

((ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما / ٣٥))

وهذا الربط هو الذى يلتئم مع سياق الآيات السابقة ، وفيما روى من أسباب نزول هذه الآية ، ما يتناسب معه هذا الربط أيضا ، روى ابن جرير الطبرى عن قتادة ، قال : دخل نساء على نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقلن : قد ذكركن الله تعالى فى القرآن ولم نذكر بشيء ، أمافينا ما يذكر ؟ فأنزل الله تعالى : ((ان المسلمين والمسلمات)) ... الآية[1] .

---

(١) تفسير الطبرى ١٠/٢٢

وروى أن السائل أم سلمة[1] ، كما روى أن السائل أم عمارة الأنصارية[2] .

ولا تعارض بين هذه الروايات اذا صحت جميعها ، لاحتمال تعدد السبب .

والآية مسوقة لبيان تفضل الله تعالى بالجزاء الشامل للرجال والنساء المتحلين بهذه الفضائل ، وفيها اشعار بمشاركة المرأة للرجل فى سائر الأمور الشرعية ، والفضائل الخلقية ، الا ما دل عليه دليل الاختصاص .

وانما قدم الذكور على الاناث ، لمكانة القوامة للرجال على النساء ، ولأن الشارع حملهم من أعباء التكاليف ما لم يحملهن ، فكان لهم بذلك مزية .

وإذا كانت الآية مسوقة ، فى مقام المدح والتفضل والامتنان ، فأن أولى ما تحمل عليه صفة الاسلام هنا : كمال الخضوع والاذعان للحق ، ومنه قوله تعالى : (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ... الآية[3]) .

---

(١) قال ابن حجر — فى تخريج أحاديث الكشاف — أخرجه النسائى من رواية شريك عن محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أم سلمة ... وأخرجه الطبرانى من وجه آخر عن محمد بن عمر ، ورواه أحمد وابن راهوية والنسائى من رواية عثمان بن حكيم عن عبد الرحمن بن شيبة عن أم سلمة وأخرجه الحاكم من طريق مجاهد عن أم سلمة . تفسير الكشاف للزمخشرى (فى الهامش) ج ٥٣٨/٣ — ٥٣٩ .

* راجع مسند الامام أحمد ٣٠١/٦ ، ٣٠٥ ، وابن جرير المرجع السابق ، ومستدرك الحاكم ٤١٦/٢ .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث حسن غريب ٣٥٤/٥ .

(٣) سورة المائدة ٤٤ .

ولهذا فسره ابن جرير هنا[١] : بالتذلل لله تعالى بالطاعة ، كما فسره الامام الرازى[٢] : بالانقياد لأمر الله تعالى .

■ أما الايمان : فهو التصديق بكل ما يجب التصديق به ، وهو تصديق يصاحبه أمن للمصدق فى الدنيا والآخرة ، فهو اذا : الذى تواطأ عليه القلب واللسان ، وسائر الجوارح ، وهذا التفسير للايمان يدخل فيه تفسير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للايمان بما ورد فى حديث جبريل المشهور ، بقوله : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ... الحديث "[٣] .

والخضوع والاستسلام – الذى اخترته تفسيرا للاسلام – لا يتم الا مع الايمان ، وعلى هذا فان ذكر الايمان بعد الاسلام ، من ذكر الخاص بعد العام ، قال القرطبى :

" بدأ تعالى بذكر الاسلام الذى يعم الايمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر الايمان تخصيصا له ، وتنبيها على أنه عظم الاسلام ودعامته "[٤] .

---

(١) تفسير ابن جرير ١٠/٢٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢١٠/٢٥ .

(٣) رواه البخارى ، كتاب الايمان ١٩/١ ، ومسلم ، كتاب الايمان ٣٦/١ واللفظ له .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨٥/١٤ . وقوله : عظم . هى كقفل ، قال فى اللسان : " وعظم الشىء : وسطه . وقال اللحيانى : عظم الأمر : معظمه . وجاء فى عظم الناس وعظمهم : أى فى معظمهم " ٤١٠/١٢ .

وأما القنوت : فالمراد به الطاعة (١) ، وزاد الزمخشري قيد الدوام ، فقال : " القانت : القائم بالطاعة الدائم عليها (٢) " .

▪ والصدق : استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم ، والتزام الحق وتحري الصواب في القول والعمل ويشمل آداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، والحكم بالحق ، وإقامة الشهادة بالقسط ، والثبات عند اللقاء .

والمجتمع الذي يتحلى بفضيلة الصدق ، يتطهر من التزييف والخداع ، والغش والمكر والنفاق .

▪ والصبر : هو حبس النفس على ما يأمر به الشرع ، وعما ينهى عنه .

تصبير النفس على الوفاء به

وهذا التعريف شامل لكل مواطن الصبر ، فكل عمل يأمر به الشرع x وإن كان شاقا تكرهه النفس كمواطن البأس ، وكذا تحبس النفس عن الوقوع في الأمور التي نهى الشرع عنها ، وتميل النفس إليها بدافع الشهوة واللذة العاجلة .

---

(١) " القاف والنون والتاء ، أصل صحيح يدل على طاعة وخير في دين ، لا يعدو هذا الباب . والأصل في الطاعة ، يقال : قنت يقنت قنوتا . ثم سمى كل استقامة في طريق الدين قنوتا ... الخ " معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ٥ / ٣١ .

(*) ابن فارس ٣٢٩ – ٣٩٥ هـ هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي ، أبو الحسين : من أئمة اللغة والأدب . أصله من قزوين ، وأقام مدة في همذان ، ثم انتقل الى الري فتوفى فيها ، واليها نسبته . من مؤلفاته : "مقاييس اللغة" و " المجمل " و " الصاحبي " و " ذم الخطأ في الشعر " وغيرها .

(٢) الكشاف ٣ / ٢٦١ .

وما نهى الشرع عنه ، جزع النفس عند المصيبة ، وما يتبع ذلك من شكوى اللسان وشق الجيوب ولطم الخدود .

فالصبر اذا يعني : القوة والجلد ، ومغالبة الشدائد ، واستشعار القوة والعزة .

أما الاستسلام للشدائد وعدم الثبات ، فذل وعجز ، وليس من الصبر في شيء .

والمراد بالصبر هنا : الصبر الذي يبتغى به وجه الله تعالى ، وهو الصبر الذي يصاحبه يقين وتقوى . يقول الله عز وجل : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)(١) وقال سبحانه : (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور)(٢) .

والخشوع : " الانخفاض والذل والسكون(٣) " ومحله القلب " والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته(٤) " فمن تمثل عظمة الله سبحانه وجلاله وربوبيته ومراقبته أعمال عباده ، اشتد خوفه ووجله من الله تعالى ، وأورث ذلك الخشوع لله تعالى والتذلل والرهبة والانكسار . وقد جعل الله سبحانه الخشوع في الصلاة سببا من أسباب الفلاح ، فقال سبحانه : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون)(٥) .

---

(١) سورة السجدة آية ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران ١٨٦ .
(٣) مدارج السالكين ، لابن القيم ١/ ٥٢٠ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٨٧ .
(٥) سورة المؤمنون ١ ، ٢ .

ووصف بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام بالخشوع فى مقام المدح ،
فقال سبحانه : (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشمين) (١) .

والصدقة : ما يخرجه الانسان من ماله على وجه القربة كالزكاة ، لكن الصدقة فى الأصل تقال : للمتطوع به ، والزكاة للواجب . وحملهما هنا على ما يعم الفرض والنفل ، هو الذى يقتضيه سياق المدح للذين جمعوا بين هذه الصفات .

يقول ابن كثير : " الصدقة : هى الاحسان الى المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله ، واحسانا الى خلقه ، وقد ثبت فى الصحيحين : " سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله - فذكر منهم - ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " (٢) .

واذا كان هناك أفراد ، يعيشون تحت وطأة الفقر والبؤس ، فانه لابد من علاج لهذه الظاهرة ، بحيث يقى المجتمع داء العداوة والبغضاء والحسد ، والاحساس بالمذلة والحرمان ، وهذا العلاج ، قد جاء به الاسلام فى أحسن صوره ، يضمن للمجتمع السلامة من هذه الأدواء ، كما يضمن له التكافل فى أسمى صوره ، وما الدعوة الى الصدقة الا جزء من ذلك

---

(١) سورة الأنبياء ٩٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨٨/٣ ، والحديث رواه البخارى ، كتاب الزكاة ١٣٨/٢ ، ومسلم ، كتاب الزكاة ٧١٥/٢ .

الحل العام ، الذى يقيم التكافل بين أفراد المجتمع المسلم عموما ، ويغرس في النفوس كمال المحبة والألفة والتعاون على الخير والبر .

▪ والصوم : وحمل الصوم هنا أيضا على ما يعم الفرض والنفل أولى ، كما سبق في الصدقة .

وحين يذكر الصوم مع هذه الصفات ، فلما فيه من الفوائد الجليلة في تربية النفس وتزكيتها بل وفي تربية المجتمع كله ، فالصوم يحمل الانسان على ضبط النفس ، وقوة الارادة ، وتحمل المشاق ، كما يهيئ النفس لمواجهة شهواتها وهى أقوى ماتكون ، فانه لا يكمل صوم العبد حتى يحفظ جوارحه كلها ، ويقيم من نفسه رقيبا يقظا عليها ، فلا غضب ، ولا غيبة ، ولا نظر الى محرم ، ولا لغو ، ولا رفث .

كما يربى المجتمع على التواسى والتراحم ، وتبادل المصالح والمنافع ، واحساس القادر بحاجة العاجز ، والغنى بحاجة الفقير .

وقد جعل الله الصوم من أسباب تقوى العبد ، فقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)(١) .

▪ وحفظ الفروج : صيانتها من الوقوع فيما حرم الله تعالى ، قال تعالى — في سياق الثناء على عباده المؤمنين — : (والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين)(٢) .

---

(١) سورة البقرة ١٨٣ .
(٢) سورة المؤمنون ٥ ، ٦ .

وهذه الصفة فى المجتمع ، تمثل جانب الطهر والعفاف ، فـى الجماعة المتحلية بها ، كما أن فى ذكرها تعويضا بأصحاب الرذيلـة الذين أهدروا الفروج وأضاعوها ولم يصونوها من الفاحشة ، ففقدوا بذلـك العفاف والطهر والحياء .

وحين يأمر الله سبحانه بحفظ الفروج ، فانه يريد صيانة المجتمـع الاسلامى من التحلل الخلقى وشيوع الفساد بين أفراده وجماعاتـه ، حتى يصبح المجتمع الاسلامى ، مجتمعا صالحا قواما بما أسنده اللـه سبحانه اليه من الاستخلاف فى الأرض .

■ وذكر الله تعالى : شامل للذكر بالقلوب والألسنة والجوارح[1] .

وملازمة ذكر الله دائما ، هو أفضل ما شغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك حديث " سبق المفردون " قالوا : وما المفردون يارسول اللـه؟ قال : " الذاكرون الله كثيرا والذاكرات "[2] والذكر من العبادات الـتى لا يعذر العبد ان تركها ، فانه ممكن فى كل الأحوال ، ولذلك يقـول الله عز وجل : (فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعـلى جنوبكم)[3] ، فيأمر به فى جميع الأحوال ، كما أثنى سبحانه على أولـى الألباب ، لقيامهم بذلك بقوله : (الذين يذكرون الله قياما وقعـودا وعلى جنوبهم ... الآية)[4] .

---

(١) تفسير ابن جرير ٢٢/١٠ .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الذكر ٤/٢٠٦٢ .
(٣) سورة النساء ١٠٣ .
(٤) سورة آل عمران ١٩١ .

وقيد سبحانه الذكر بقوله : ((كثيرا)) للاشارة الى أن المؤمن ينبغى له أن لا ينسى ذكر ربه وخالقه ، وان لا يشغله أمر الدنيا عن ذلك اذا مازاول أى عمل من الأعمال .

وفى التعبير نكتة لطيفة ، وهى ان الله سبحانه لم يأمر عباده المؤمنين باستغراق أوقاتهم فى الذكر ، حتى يفوتهم بذلك بعض مصالحهم وواجباتهم نحو أسرهم ومجتمعهم ، ولكنه الذكر الذى يصل القلوب بخالقها ، ويقيها الغفلة عنه سبحانه ، حتى تدوم على استحضار عظمته وجلاله ، فتنجو بذلك من الوقوع فى معصيته ، أو اهمال حق من حقوقه .

وهذه الصفات العشر المذكورة فى هذه الآية الكريمة ، يذكر بعضهم لترتيبها مناسبة بحيث يدرك المرء أنها ترتقى بالانسان الآخذ بها فى سلم متصاعد ، من ذلك ما ذكره الامام الرازى ، فانه بعد أن ذكر الصفات الثلاث الأولى ، التى يكمل بها العبد من حيث التصديق والانقياد لله تعالى ، والقيام بعبادته ، وهى الاسلام ، والايمان ، والقنوت ، قال : " ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ، ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة ، وهو المراد بقوله : ((والصادقين والصادقات)) . ثم ان من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه ، كما قال تعالى : ((والصابرين والصابرات)) ، ثم انه اذا كمل وكمل ، قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته ، فمنعه منه بقوله : ((والخاشعين والخاشعات)) ، ولما ذكر هذه الحسنات ، أشار الى ما يمنع منها ، وهو اما حب الجاه ، أو حب المال — من الامور الخارجية — ، أو الشهوة — من الأمور الداخلية — ، فقال : والمتصدقين

والمتصدقات)) اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ، ثم قال : ((والحافظين فروجهم والحافظات)) : أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ، ثم قال : ((والذاكرين الله كثيرا والذاكرات)) : يعنى هم فى جميع هذه الأحوال يذكرون الله ، ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله))(١) .

ويلاحظ أن حفظ الفرج جاء فى أواخر درجات هذا السلم ، ذلك أن حفظ القلب ، وضبط الخواطر ، وتطهير النفس من وسواس شهوة الفرج ، والتخلق الصادق بأدب الاسلام فى هذا الباب ، من الأمور الشاقة ، التى لا تتكامل الا عند من تكاملت عنده هذه الصفات ، حتى صار ربانيا لا سلطان للشيطان ولا للشهوة عليه .

ولا غرابة فى أن تكون هذه الصفة موضع اهتمام فى هذه الآية ، فذلك من شأن السورة التى اهتمت بالمجتمع اهتماما بارزا ، وشأن الفروج فى المجتمع خطير وجليل ، فبحفظها يحفظ المجتمع من الرذيلة ، وبعدم ذلك يقرض المجتمع من أساسه .

وهذه الصفات المذكورة فى هذه الآية الكريمة ، من أكبر الأدلة على العناية التامة التى وجهت فى هذه السورة لاقامة المجتمع الاسلامى ، فانه اذا ما أقام كل مسلم نفسه على هذه الصفات ، يصل المسلمون حينئذ بمجتمعهم الى القمة ، لأنهم يبنونه على قواعد ربانية .

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥/٢١٠ — ٢١١ .

وتختم الآية الكريمة بقوله سبحانه : ((أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما)) ، وهو اخبار من الله عز وجل ، بما هيأ لعباده المتصفين بهذه الصفات الكريمة ، والتى تعتبر رؤوس الفضائل التى شرعها الله سبحانه ، وما ادخره سبحانه لهم عنده من جزيل المثوبة ، والأجر العظيم .

... ...

خاتمة :

سبب الاقتصار على بعض السورة :

كان موضوع الرسالة عند مبدأ الشروع فيها ، " المجتمع الاسلامى كما تصوره سورة الأحزاب " ، وهو الموضوع الذى سبق أن وافق عليه مجلس القسم .

ولما سرت فى هذه الطريق فترة غير يسيرة ، رأيت أن البحث يتسع ويتطلب زمنا كبيرا .

فرأيت الاقتصار على بعض معالم المجتمع فى السورة ، وعرضت الأمر على فضيلة المشرف على الرسالة فوافقنى على ذلك ، واقتضى الأمر أن يعرض الموضوع بعنوانه الجديد " بعض معالم المجتمع الاسلامى من سورة الأحزاب " على مجلس القسم ، فوافق عليه .

وقد جريت فى البحث على أساس النظر فى معالم المجتمع الاسلامى فى هذه السورة المباركة .

فكان ما اشتملت عليه الرسالة أربعة عشر بحثا ، وهى التى سردت عنواناتها فى المقدمة أجمالا .

ثمرة البحث

وكانت النتيجة التى خرجت بها من البحث ٠ هى بيان بعض معالم المجتمع الاسلامى ، التى وضعت السورة قواعدها العامة :

■ وتناول البحث الأول : التمهيد لارساء قواعد المجتمع الاسلامى ، حيث دعت الآيات الأولى من السورة الى التمسك بما لابد منه لنجاح الدعاة فى اقامة المجتمع المثالى ، من تقوى الله تعالى ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وتفويض الأمر بعد ذلك اليه سبحانه ، والاستغناء بوحى الله عز وجل عما سواه ٠

■ وتناول البحث الثانى : ارشاد المؤمنين الى أن يكون اتجاههم الى الله عز وجل وحده دون سواه ٠ لأن الاتجاه والقصد الى الله عز وجل والى غيره فى آن واحد ، من الأمور المتناقضة التى يعجز القلب عن القيام بها ٠ كما تضمن ذكر بعض الرواسب الاجتماعية الجاهلية وطرق اصلاحها ٠

■ وتناول البحث الثالث : بيان مكانة النبى صلى الله عليه وآله وسلم عند المؤمنين ، ووجوب تعظيمه ، وايثار طاعته واتباعه على ما سوى ذلك من رغبات النفس وحظوظها ٠

■ وتناول البحث الرابع : الاشادة بمكانة أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيان حقهن على المؤمنين من التوقير والتعظيم ٠

■ وتناول البحث الخامس : الاشارة الى حقوق ذوى الأرحام وبيان أولويتهم على من سواهم من المؤمنين فى الحقوق العامة .

■ وتناول البحث السادس : بيان وحدة دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والتذكير بما أخذه الله عز وجل عليهم من العهد ، وما يلزم من ذلك من التثبيت للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وحفزهم الدعاة ورثة الأنبياء ، للسير على منوالهم ، وحمل أعباء الدعوة الذى حملوه بمقتضى وراثتهم ، بأمانة واخلاص .

■ وتناول البحث السابع : تذكير المؤمنين بنعمة النصر فى "غزوة الأحزاب" ، ليؤدوا شكر هذه النعمة الجسيمة ، ولتقوى ثقتهم بالله الذى وعدهم بالنصر ، ما استقاموا على نهجه ، واعتصموا بحبله .

■ وتناول البحث الثامن : بيان موقف المنافقين فى "الأحزاب" ، وهو موقف من مواقفهم المتشابهة المتكررة ، ضد الاسلام ورسوله وأتباعه ، كلما سنحت لهم الفرصة ، وبيان صنوف من الكيد والمكر التى وجهوها لمحاربة المسلمين ، وهى مواقف ينبغى للدعاة التيقظ لها ، ولأهلها الذين لا يفتأون يحاربون هذا الدين ، ما بقى لهم وميض من الحياة .

■ وتناول البحث التاسع : بيان أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، هو القدوة العليا لأمته ، وبيان صفات المتأسى به .

■ وتناول البحث العاشر : موقف المؤمنين الصادقين فى "الأحزاب" من الثبات والصبر واليقين بصدق وعد الله سبحانه ووعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، والاستسلام لحكم الله عز وجل .

■ وتناول البحث الحادى عشر : الثمرة التى جناها المؤمنون من النصر ، جزاء صبرهم وثباتهم وثقتهم بالله تعالى ، كما تناول ما باء به المنافقون من الخذلان بهزيمة اخوانهم من المشركين واليهود .

■ وتناول البحث الثانى عشر : الحديث عن "بنى قريظة" وخيانتهم ، ونكثهم للعهد ، وما آل اليه أمرهم .

■ وتناول البحث الثالث عشر : بيان الآداب والفرائض الشرعية التى نيطت بأمهات المؤمنين ، ليكن بها قدوة لنساء المسلمين .

■ وتناول البحث الرابع عشر : بيان الصفات الكريمة ، والفضائل التى تشارك المرأة فيها الرجل ، وان لها ما له من الجزاء والاقتداء ، وثمرة التحلى بهذه الفضائل بالنسبة للمجتمع كله .

وأخيرا أسأل الله عز وجل أن يجعل العمل خالصا لوجهه ، وأن يعفو عنى فى زلات القلم ، وأعوذ به أن أتقول عليه بما لم يقل . وهو سبحانه صاحب الكمال المطلق ، والنقص والخطأ من شأن البشر . وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه .

فهرست المراجـــع

م	اسم المؤلف	اسم الكتاب
١	ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم	الفتاوى ، الرياض ، مطابع الرياض ط الأولى عام ١٣٨١ هـ .
٢	ابن جرير : أبوجعفر محمدبن جرير الطبرى	جامع البيان عن تأويل القرآن ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبى ط الثالثة عـــام ١٣٨٨ هـ .
٣	" " " " "	تاريخ الطبرى ، القاهرة ، مطبعة دار المعارف عام ١٩٦١م .
٤	ابن الجوزى : عبد الرحمن بن على بن محمد	زاد المسير فى علم التفسير ، دمشـــق ، المكتب الاسلامى ط الأولى سنة ١٣٨٥هـ .
٥	ابن حجر : أحمد بن على العسقلانى	فتح البارى ، القاهرة ، مطبعة مصطفـــى الحلبى عام ١٣٧٨ هـ .
٦	" " " " "	تهذيب التهذيب ، بيروت ، تصوير دار صادر ، عن طبعـــة مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ط الأولى عام ١٣٢٥ هـ .
٧	" " " " "	تقريب التهذيب ، الناشر المكتبة العلمية ، المدينة المنورة .
٨	" " " " "	الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنـــة ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب الحديثة .
٩	ابن حنبل : أحمد محمد الشيبانى	مسند الامام أحمد ، بيروت ، تصوير دار صادر ، عن طبعة المكتب الاسلامى .
١٠	ابن سعد : محمد بن سعد	الطبقات الكبرى ، بيروت ، تصوير دار صادر ، عام ١٣٧٦ هـ .
١١	ابن العربى : أبوبكر محمد بن عبد الله	أحكام القرآن ، تحقيق على محمد البجاوى ، القاهرة ، عيسى الحلبى .

م	اسم المؤلف	اسم الكتاب
١٢	ابن فارس : أبوالحسين أحمد	معجم مقاييس اللغة ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبي ط الثانية عام ١٣٩٢هـ.
١٣	ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم	تأويل مشكل القرآن ، تحقيق سيد أحمد صقر ، القاهرة ، طبعة عيسى الحلبي .
١٤	ابن القيم : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر	زاد المعاد ، مراجعة طه عبد الرؤوف ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبي ، عام ١٣٩٠ هـ .
١٥	" " " " "	التبيان في أقسام القرآن ، تصحيح طه يوسف شاهين ، القاهرة ، دار الطباعة المحمدية .
١٦	" " " " "	مدارج السالكين بتحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية .
١٧	ابن كثير : أبوالفداء اسماعيل	تفسير القرآن العظيم ، تصحيح نخبة من العلماء ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي .
١٨	" " " " "	البداية والنهاية ، بيروت ، مكتبة المعارف ط الأولى عام ١٩٦٦م .
١٩	ابن ماجه : أبو عبد الله محمد بن يزيد	سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي عام ١٣٧٢ هـ.
٢٠	ابن منظور : أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم	لسان العرب بيروت ، تصوير دار صادر ، عام ١٣٨٨هـ.
٢١	ابن هشام : محمد بن عبد الملك الحميري	سيرة ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيساري ، وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبي ، ط الثانية عام ١٣٧٥هـ.
٢٢	أبو حيان : محمد بن يوسف	البحر المحيط ، الرياض ، مكتبة ومطابع النصر الحديثة .

م	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٢٣	أبو داود : سليمان بن الأشعث	سنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، نشرته دار احياء السنة النبوية .
٢٤	أبو السعود : محمد بن محمد العمادي	تفسير أبي السعود ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، القاهرة ، مطبعة السعادة .
٢٥	أبو عبيدة : معمر بن المثنى	مجاز القرآن ، القاهرة ، الناشر محمد الخانجي ، ط الأولى ، عام ١٣٨١ هـ .
٢٦	الآلوسي : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود	روح المعاني ، بيروت ، تصوير دار احياء التراث العربي ، عن طبعة ادارة الطباعة المنيرية .
٢٧	الأصفهاني : أبو القاسم حسين بن محمد	المفردات في غريب القرآن ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، طهران ، المكتبة المرتضوية .
٢٨	البخاري : عبد العزيز بن أحمد	كشف الأسرار ، بيروت ، طبعة دار الكتاب العربي عام ١٣٩٤ هـ .
٢٩	البخاري : محمد بن اسماعيل	صحيح البخاري ، بيروت ، تصوير دار التراث العربي .
٣٠	البيضاوي : عبد الله بن عمر بن محمد	تفسير البيضاوي ، تصحيح محمد سالم محيسن وشعبان محمد اسماعيل ، القاهرة ، مكتبة الجمهورية العربية .
٣١	الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى .	سنن الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، الناشر المكتبة الاسلامية .
٣٢	الجصاص : أبو بكر أحمد بن علي الرازي	احكام القرآن ، القاهرة ، المطبعة البهية ، عام ١٣٤٧ هـ .
٣٣	الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري	المستدرك على الصحيحين ، حلب ، الناشر مكتب المطبوعات الاسلامية .
٣٤	الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي	تاريخ بغداد ، بيروت ، الناشر دار الكتاب العربي .
٣٥	الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن	سنن الدارمي ، الناشر دار احياء السنة النبوية .

م	اسم المؤلف	اسم الكتـــاب
٣٦	الرازى : محمد بن عمر بن الحسين	مفاتيح الغيب ، طهران ، تصوير دار الكتب العلمية .
٣٧	رشيد رضا : السيد محمد	تفسير المنار ، القاهرة ، مطبعة دار المنار ط الرابعة عام ١٣٧٣ هـ.
٣٨	الرضى : أبو الحسن محمد بن الحسين	مجازات القرآن ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبى ، ط الأولى عام ١٣٧٤ هـ.
٣٩	الزركلى : خير الدين	الأعلام ، الطبعة الثالثة .
٤٠	الزمخشرى : محمود بن عمر	الكشاف ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبى ، ط الأخيرة عام ١٣٨٥ هـ.
٤١	السايس : محمد بن على	تفسير آيات الأحكام ، القاهرة ، مطبعة محمد على صبيح ، عام ١٣٧٣ هـ .
٤٢	السبكى : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى	طبقات الشافعية ، تحقيق محمود محمد الطناحى وعبد الفتاح محمد الحلو ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبى ط الأولى .
٤٣	السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر	الجامع الصغير ، تصحيح ابراهيم عبد الغفار الدسوقى ، القاهرة ، مطبعة دار الطباعة ، عام ١٢٨٦ هـ .
٤٤	الشوكانى : محمد بن على	فتح القدير ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبى ط الثانية ، عام ١٣٨٣ هـ .
٤٥	" " " "	البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ط الأولى عام ١٣٤٨ هـ .
٤٦	الصفدى : صلاح الدين خليل بن أيبك	الوافى بالوفيات ، دار النشر
٤٧	الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد	المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى ، القاهرة ، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .
٤٨	القاسمى : جمال الدين بن محمد	محاسن التأويل ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبى ، ط الأولى .

م	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٤٩	القرطبي : محمد بن أحمد الأنصاري	الجامع لأحكام القرآن ، بيروت ، تصوير دار الكتاب العربي ، عن طبعة دار الكتب ، عام ١٣٨٧ هـ .
٥٠	قطب : سيد قطب	في ظلال القرآن ، بيروت ، مطبعة دار احياء التراث العربي ط الثالثة ، عام ١٣٨٣
٥١	مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري	صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، مطبعة عيسى الحلبي ، ط الأولى عام ١٣٧٤ هـ .
٥٢	المودودي : أبو الأعلى	تفسير سورة النور ، مطبعة دار الفكر بدمشق .
٥٣	المقبلي : صالح بن مهدي	الاتحاف لطلبة الكشاف ، مخطوط .
٥٤	المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي	امتاع الأسماع ، تصحيح وشرح أحمد شاكر القاهرة ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥٥	المناوي : محمد عبد الرؤوف	فيض القدير ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، ط الثالثة ، عام ١٣٩١ هـ .
٥٦	النسائي : أحمد بن علي بن شعيب	سنن النسائي ، القاهرة ، المطبعة المصرية ، (مع شرح السيوطي) .
٥٧	النيسابوري : الحسن بن محمد بن الحسين	تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) ، القاهرة ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، ط الأولى عام ١٣٢٩ هـ ، (بهامش تفسير ابن جرير) .
٥٨	الهيثمي : نور الدين علي بن أبي بكر	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، القاهرة طبعة مكتبة القدسي ، عام ١٣٥٣ هـ .
٥٩	الواحدي : أبو الحسن علي بن أحمد	أسباب النزول ، القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبي ، ط الأولى ، عام ١٣٧٩ هـ .
٦٠	ياقوت : ياقوت الحموي	معجم البلدان ، بيروت ، تصوير دار صادر عام ١٣٨٨ هـ .

الفهـــــــــرس

الموضـــوع	الصفحـــة